

السماع عند الصوفية

"خاصة عند الغزالي"

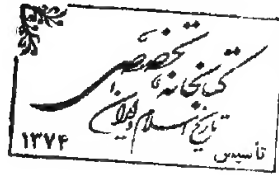
تأليف
دكتورة / لوكيس همام
مدرس بكلية البنات .. جامعة عين شمس

١٩٨٨



السمع عند الصوفية

"خاصة عند الغزالي"



تأليف
دكتورة / كوكب حمار

مدرس بكلية البنات .. جامعة عين شمس

١٩٨٨

طبع في

شركة اخوان رزق
٢٠٤ شارع النهضة - مصر الجديدة
ت : ٢٤٥٠٤٩٦

الفهرس

رقم الصفحة

الموضوع

٢ - و

المقدمة

الفصل الأول

١١٩ - ١	سماع الموسيقى والغناء
١	(١) لمحة تاريخية عن الغناء والموسيقى...
٢٢	(٢) تعريف السماع
٣٥	(٣) العلاقة بين السماع والموسيقى العربية ..
٤٥	(٤) علة طرب الارواح بالغناء والنغمات العذبة
٥٦	(٥) مقامات السامعين في الفهم والوجد
٥٨	(١) الفهم
٧٦	(٢) الوجد
٩٤	(٦) آداب السماع

الفصل الثاني

١٤٤ - ١٢٠	سماع القرآن الكريم
	(١) تأثر اصحاب القلوب العنافية بسماع
١٢١	القرآن الكريم
	(٢) لماذا يكون تأثر السامعين اقوى بسماع
١٣٢	القصائد

١٨٤ - ١٤٥

الفصل الثالث

١٤٥	رأى من حرموا السماع وأدلتهم
-----	-----------------------------------

الفصل الرابع

رأى من أحلوا السماع وأدلتهم على حليته ١٨٥ - ٢١٧

الفصل الخامس

رأى الغزالي في السماع ٢١٩ - ٢٨٦

تمهيد ٢١٩

(١) رد الغزالي على الشافعي ٢٢٠

(٢) رد الغزالي على حجج القائلين بتحريم

السماع ٢٢٤

(٣) رأى الغزالي في السماع وأدلته على إباحته ٢٤٣

تعليق ٢٨٧ - ٢٩١

الخاتمة ٢٩٢ - ٢٩٤

قائمة المراجع العربية ٢٩٧ - ٣٠٣

المراجع الأجنبية ٣٠٤

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

ترجع أهمية هذا البحث عن السماع عند الصوفية وبخاصة عند الامام الغزالي الى انه يناقش قضية تستحق من الباحث في الفكر الاسلامي بصفة عامة ، والفكر الصوفي بصفة خاصة ، وقفه ، لمعرفة حقيقة موقف الاسلام من الغناء وما اذا كان سماع الغناء على اختلاف اغراضه جائز شرعا ام انه لا يباح . خاصة وان الاراء قد تعددت وتناقضت حول تلك المسألة ، فمن علماء الدين من اباح سماع الغناء من غير كراهه ، ومنهم من اباحه مع الكراهة ، ومنهم من حرمه .

والسماع لا يقتصر فقط على الغناء وانشاد القصائد والموسيقى ، وانما يمتد الى سماع القرآن الكريم . وهذا النوع الاخير من السماع ليس هناك خلاف على حله وابهائه اذ أن الله تعالى قد امر بسماعه والانصات له وتدبر معانيه في قوله تعالى : " واذا قرئ القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون " (سورة الاعراف ، آية ٢٠٤) . وانما كان الاختلاف حول ما يسميه الصوفية بالوجد عند سماعه كأن يغشى على المستمع او يصدر عنه صوت مرتفع او يعفق او يأتسى بحركات غير عادية وغير ذلك مما يترتب على انفعال السامعين بسماع آيات الذكر الحكيم . فمن العلماء من يبيح ذلك ومنهم من ينكره ، ويرى ان الالتزام بالهدوء والاستماع في خشوع وسكون الى القرآن فيه وقار وفيه اقتداء برسول الله (ص) وصحابته رضوان الله عليهم . الذين كانوا حينما

يسمعون القرآن يتلى لا يزيد وجدهم على البكاء فى صمت وخشوع ، وتقشعر جلودهم مملا بقوله تعالى : " تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم " (سورة الزمر ، آية ٢٣) وقوله تعالى : " واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى اعينهم تفيض من الدمع " (سورة المائدة ، آية ٨٣) .

وفى ايامنا هذه نجد ان الغناء والموسيقى قد ذامما وانتشرا واصبح الشباب والشيوخ من الجنسين يقبلون على السماع بشكل ملحوظ .

ولاشك ان الانسان يستمتع بسماع الاصوات الجميلة والموسيقى العذبة والغناء المطرب للترويح عن نفسه وغسل هموم قلبه بين تضاعيف الجد وكثرة الاعمال والاعباء فالنفس تستلذ النغمات الطيبة وتستجيب لها وتتفعل بها انفعالا فطرياً .

غير ان الانسان ايضا عليه الا يسرف فى الاستمتاع بالسماع ويمضى فيه جل وقته ويجعله اكبر همه فان ذلك يشغله عن الامور الهامة والاعمال الجادة ومنها ذكر الله والتعبد له .

وقد كان موضوع السماع محل اهتمام الباحثين من الصوفية وغيرهم قديما وحديثا فمنهم من افرد للسماع مصنفا كاملا . ومنهم من تناوله ضمن موضوعات اخرى فى مصنف او اكثر .

ومن بين من افرد له مصنفا خاصا " محمد بن طاهر القيسرانى " (٤٤٨ هـ - ٥٠٧ هـ) فى مصنفه (فى السماع)

وابن القيم الجوزية (المتوفى سنة ٧٥١ هـ) فى مصنفه عن "السمع"
وابن حجر الهيثمى فى " كف الرعاع عن محرمات السمسماع"
وعبدالوهاب الشعرانى (٨٩٨ هـ - ٩٧٣ هـ) فى مصنفه كشف
القناع عن وجه السماع " وعبدالغنى النابلسى (١٠٥٠ هـ -
١١٤٣ هـ) فى مصنفه " ايضاح الدلالات فى سماع الآلات " وغيرهم .

ومن بين من تناولوا السماع ضمن موضوعات اخرى فى
مصنفاتهم ابن الجوزى البغدادى (المتوفى سنة ٥٩٧ هـ) فى
مصنفه (تلبيس ابليس) وشمس الدين محمد بن ابى بكر الزرعى
الدمشقى المعروف بابن القيم الجوزية (المتوفى سنة ٧٥١ هـ)
فى مصنفه و " مدارج السالكين " و " اغاثة
اللفهان " . وابن حزم الاندلسى فى رسائله . والشيخ الرئيس
ابن سينا (المتوفى سنة ٤٢٨ هـ) فى مصنفه " كلمات الصوفية"
والسهروردى البغدادى فى (عوارف المعارف " و " آداب
المريدين " وعبدالكريم بن هوزان القشيري (٣٦٧ هـ - ٤٦٥ هـ)
فى مصنفه (الرسالة القشيرية فى علم التصوف) . وابو نصر
السراج الطوسى فى مصنفه (اللمع) وغيرهم الكثير مما
يحبب حصره .

هذا الى جانب اقوال الصوفية المحققين فى السماع
كالجنيد البغدادى وذو النون المصري وابو يعقوب النهرجورى
وابو على الرزبارى وابو على الدقاق وابواسحق ابراهيم
الفيروزباده المعروف بالشيرازى وغيرهم ممن وردت اقوالهم
فى السماع فى كتب الطبقات وفى " الرسالة القشيرية " وفى
" عوارف المعارف " و " احياء علوم الدين " وغيرها من
كتب التصوف .

وقد اهتم الامام ابو حامد الغزالي^(١) " المعروف بحجة الاسلام " (٤٥٠ هـ - ٥٠٥ هـ) بدراسة موضوع السماع في الجزء الثاني من كتابه الكبير " احياء علوم الدين " في الكتاب الثاني من ربيع العادات . وكانت دراسة الغزالي للسمع دراسة وافية عرف فيها السماع ، ثم اوضح الاتجاهات المختلفة فيه ، وعرض لآراء المؤيدين والمعارضين له وذكر حجج من انكروا السماع ومالوا الى تحريمه ورد عليها ، وحدشنا عن السماع عن طريق الغناء وسمع القرآن الكريم وتحدث عن الوجد واداب السماع والتزم في ذلك بموقف من اباح السماع في اطار اداب وشروط محددة ثم ابان عن العوارض التي تحرم السماع واثبت بالحجج النقلية والعقلية حل السماع واباحته محاولا احقاق الحق وازهاق الباطل في كل ما قيل حول هذه المسألة . ولذلك كان رأى الغزالي في السماع جدير بالدراسة .

وقد انتهى من تلك الدراسة الى ان الغناء ليس محرما تحريما مطلقا ولا مباحا اباحة مطلقة وانما هو يحرم على من غلبت عليه الشهوة من الشباب الذين ينزلون ما يسمعون من غناء على من لا يحل لهم ، ولا يحرك سماع الغناء فيهم الا الصفات الذميمة الغالبة عليهم . وهو مكروه اذا اسرف الانسان في الاستماع على سبيل اللهو ، فيتخذ سماع الغناء عادة تشغله عن الجاد من الامور ، وهو مباح لمن يستمتع طلبا للطرب والتمتع بجمال الصوت وطيب النغمات ، وهو مستحب لمن غلب على قلبه حب الله تعالى لان السماع لا يحرك منه الا الصفات المحموده .

(١) انظر ترجمة الغزالي ، طبقات الشافعية للسبكي ، ج ٤ ، ص ١٠١ واتحاف السادة المتقين للزبيدي ، ج ١ ، ص ٢ ، ووفيات الاعيان لابن خلكان ج ١ ، ص ٥٨٦ الى ص ٥٨٨ ، وكتاب سيرة الغزالي واقوال المتقدمين فيه . تحقيق عبدالكريم العثمان ، دار الفكر ، دمشق .

وقد عبر الغزالي عن رأيه فى السماع بأسلوب مهذب لم يجنح فيه الى تجريح المخالفين له فى الرأى مستخدماً الفاظاً معبرة واضحة بعيدة عن الغموض وافكار منظّمة متسلسلة ، كما تجلت بوضوح ثقافته الدينية والفقهية من خلال عرّفه للدلالة الشرعية من الكتاب والسنة ، وهو فوق هذا كله يتناول الموضوع من خلال تجربته الذوقية الصوفية .

وقد قسمت هذه الدراسة الى خمسة فصول فبدأت بعهد المقدمة بالفعل الاول الذى حاولت فيه اعطاء لمحة سريعة عن تاريخ الغناء والموسيقى ثم التعريف بالسماع واطهار العلاقة بينه وبين الموسيقى العربية وعلة طرب الارواح بالنغمات العذبة والغناء واختلاف درجات السامعين باختلاف احوالهم وتأثرهم بالنغمات والكلمات المغناة ثم حديث الصوفية والغزالي عن الوجد وهو ثمرة السماع والاداب التى يجب ان يلتزم بها فى مجالس السماع .

وفى الفصل الثانى ، تناولت سماع القرآن الكريم كما تبينته عند الصوفية وعند الغزالي موضحة انهم يعتبرونه سماع الكمل من القوم ثم تعليل الغزالي لطرب السالك المبتدئ بالنغمات وتأثره بها اكثر من انفعاله بايات القرآن الكريم .

وفى الفصل الثالث ، عرضت رأى من ذهبوا الى تحريم السماع والادلة الشرعية التى استندوا اليها فى ذلك موضحة رأى ائمة الفقه الاربعة مالك والشافعى واحمد بن حنبل وابو حنيفة وغيرهم ممن مالوا الى تحريم السماع

- و -

وفى الفصل الرابع ، تناولت الرأى المخالف الذى
اباح اصحابه السماع وقالوا بجوازه شرعا وذكرت الادلة
التي استندوا عليها من الكتاب والسنة .

وفى الفصل الخامس والاخير تناولت بالتفصيل موقف
الغزالي من السماع وعرضت لرد الغزالي على الشافعى
ورده على حجج القائلين بتحريم السماع ثم أدلة الغزالي
على اباحة السماع ورأيه الخاص فيه .

واختتمت البحث بتعقيب وخاتمة ثم ثبت لأهم
المراجع العربية والاجنبية .

والله الموفق ،،

كوكب ماسر

اللاهرة - مارس ١٩٨٨

الفصل الأول

سماع الموسيقى والغناء

- لمحة تاريخية عن الغناء والموسيقى
- تعريف السماع
- العلاقة بين السماع والموسيقى العربية
- ملة طرف الأرواح بالغناء والتغيمات العذبة
- مقامات السامعين فى :
 - (١) الفهم .
 - (٢) الوجد .
- آداب السماع .

الفصل الأول

سماع الموسيقى والغناء

(١) لمحة تاريخية عن الغناء والموسيقى

يُعتبر الغناء من الفنون العريقة التي لا يخلو منها مجتمع من المجتمعات في كل بقاع العالم ايا كانت درجة تقدمه أو تخلفه الحضارى . فلكل مجتمع غناء والحسبان موسيقية خاصة به متميزة عن نظيراتها في المجتمعات الاخرى.

وقد عرف الانسان الغناء منذ فجر التاريخ فقد ذكر " أبو جعفر الطبرى " ان الذى اتخذ الملائكة رجل من ابناء " قابيل " بن " آدم " أبو البشرية يقال له " شوبال " اما الات اللهو " اى الالات الموسيقية " فاتخذت في زمان "مهلاشيل" ابن " قينان" وكانت من المزامير والطبول والعيدان . فانهمك ولد قابيل في اللهو . وتناهى خبرهم الى من بلجبل مسن نسل " شيث " فنزل منهم قوم وانتشر اللهو والغناء وفشت الفاحشة وشرب الخمر^(١).

واذا صحت هذه الرواية فان الانسان الاول يكون قد عرف الغناء والموسيقى منذ بداية الخليقة .

ومحاولة تحديد نشأة الغناء والموسيقى تحديدا تاريخيا صارما أمر ليس باليسير حيث ان الغناء والموسيقى كانا لهما نشأة بدائية بسيطة ، ثم تطورت على مر الازمان والعصور . بل ان هناك من ذهب الى ان محاولة تحديد نشأة الغناء مجهود ضائع وهدف لا يمكن الوصول اليه^(٢).

(١) ابن الجوزى البغدادى : تلبس ابليس ، ص ٢٢٢ .

(٢) ابن القيسرانى : السماع . تحقيق أبو الوفا المراحى ، ص ١٢ .

للغناء والموسيقى اذن تاريخ طويل منذ العهد البعيدة وقد عرفه أصحاب الحفارات القديمة مثل قدماء المصريين واليونانيين والفرس . كما الف الفيشاغوريون كتبوا فى الموسيقى ووضعوا لها اصولا نظرية . كذلك صنع أصحاب حضارة سبأ فى اليمن والغساسنة فى الشام والمناذرة فى العراق وكانت موسيقاهم أرقى من موسيقى البدو فقد اصطنعوا من آلات العزف العود والطنبور والمعزف والمزمار وآلات ضبط الوزن والدفوف والصنج (١) .

وقد كان البدوى فى الجاهلية شاعرا بطبعه بغير علم ولا صناعة يتغنى بالرجز لبساطة تفاعيله وهو غناء قريب من الحداء يحدو به للابل وبذلك كان الحداء أصل الغناء العربى كما ظهر منه النصب وهو الغناء المرتجل (٢) .

وكان الغناء فى بداية الامر غير مصحوب بالالات الموسيقية ثم رى لزيادة تحسينه أن تصحبه الآلات الموسيقية (٣) فظهرت الآلات على اختلاف انواعها واختلاف ترتيبها التاريخى وبدأت فى صورة بدائية بسيطة ، ثم تطورت وتنوعت واصبحت على مر العصور فنا وعلما متقدما حتى ان الكثير منها الان يعمل بالكهرباء . كما يستخدم الكومبيوتر فى عزف العديد من الالحان الموسيقية .

(١) انظر الاصفهاني . الاغانى . ج ١ ، ص ١٢ .

(٢) انظر د. أحمد فؤاد الالهوانى . الكندى فيلسوف العرب ، ص ٦١ (القاهرة ١٩٦٤) .

(٣) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٣٣٨ .

وارتبط الغناء بالشعر^(١) وصار الشعر الغنائى أكثر
الاشعار انتشارا واغناها بالمعاني المحببة الى النفس
المثيرة للخيال واقربها الى القلوب .

ويذهب اخوان الصفا الى أن أصحاب النواميس الالهيسة
من الحكماء استعملوا الموسيقى والغناء فى الهياكل وبيوت
العبادة وعند القراءة فى العلاوات ، وعند تقديم القرابين
والتضرع والبكاء . كما كان يفعل داود النبى عليه السلام
عند قراءة مزاميره . وكما يفعل النصارى فى كنائسهم . كما
تغنى المسلمون بالقرآن فى مساجدهم من طيب النغمة ولحن
القراءة . فان كل ذلك لرقعة القلوب ولخضوع النفس
ولخشوعها والانقياد لاوامر الله تعالى ونواهيهِ والتوبة
اليه من الذنوب والرجوع اليه سبحانه وتعالى باستعمال سنن
الناواميس كما رسمت^(٢) .

(١) يذهب اخوان الصفا الى ان ميزان الشعر وقوانينه
مماثلة لقوانين العروض الذى يعرف به المقاطع الثمانية
فى الاشعار العربية وهى "فعولن ، مفاعيل ، مستفعلن ،
فاعلاتن ، فاعلن ، مفعولات ، مفاعيلن " وهذه الثمانية
مركبة من ثلاثة أصول وهى " السبب ، والتودد ، والفاصلة "
وكذلك قوانين والالحن ثلاثة أصول وهى " السبب ،
والتودد ، والفاصلة " فأما السبب " فنقرة متحركة
يتلوها سكون مثل قولك تن تن تن ويكرر دائما
و"التودد" ثلاث نقرات متحركة يتلوها سكون مثل قولك
تن تن تن تن ويكرر دائما و"الفصلة" ثلاث نقرات
متحركة يتلوها سكون مثل قولك تنن تنن تنن تنن
فهذه الثلاثة هى الامل ، أنظر اخوان الصفا ، ج ١ ، ص
١٤٤ ، الرسالة الخامسة فى الموسيقى .

(٢) اخوان الصفا ، الرسالة الخامسة فى الموسيقى ، ج ١ ، ص ١٣٥ .

كذلك ذهب اخوان الصفا الى ان أحد الاسباب التى دعت الحكماء الى وضع النواميس واستعمال سننها هو ما قدح لهم من موجبات أحكام النجوم من السعادات والمناحس عند ابتداء القرانات وتحاويل السنين من الفلاء او الرخص او الجذب او الخصب او القحط او الطامون والوباء او تسلط الاشـــــرار والظالمين وماشاكلها من تغيرات الزمان وحوادث الايام فلما تبين لهم ذلك طلبوا حيلة تنجيهم منها ان كانت شرا وتوفر حفظهم فيها ان كانت خيرا ، فلم يجدوا حيلة انجس ولا شيئا انفع من استعمال سنن النواميس الالهية التى هى الصوم والطلاة والقرايين والدعاء عند ذلك بالتفرغ الى الله تعالى . بالخشوع والخضوع والدعاء والبكاء والتوبة والانابة ليكشف عنهم ما قد توجبه او اوجبه احكام النجوم من المناحس والبلاء . وكانوا يستعملون عند الدعاء لله والتسبيح والقراءات الحانا من الموسيقى تسمى " المحزن " (١) .

وكانت تلك الموسيقى ترقق القلب وتبكي العين وتكسب النفوس الندامة على سالف الذنوب واخلاص السرائر واصلاح الضمائر فهذا فى رأى اخوان الصفا ، كان أحد اسباب استخراج الحكماء للموسيقى واستعمالها فى الهياكل وعند القرايين والدعاء والصلوات .

كما استخرجوا لحنا اخر يسمى " المشجع " كان يستعمل فى الحروب والهجاء وهو يكسب النفس شجاعة واقدام .

واستخرجوا لحنا يستعمل عند الاعمال الشاقة والصنائع المرهقة مثل ما يستعمله الحمالون والبنائون واصحاب المراكب يخفف عنهم تعب الايدان والنفوس .

(١) اخوان الصفا . الرسالة الخامسة فى الموسيقى ، ج ١ ، ص ١٣٥ .

ووضعوا ايضا الحانا اخرى تستعمل عند الفرغ واللذة
والسرور في الاعراس والولائم .

كما وضعوا الالحان التي تخفف على الحيوانات ثقل
احمالها مثل الحداء^(١) الذي يستعمل لتنشيط الابل فـسـى
السير ويخفف عنها الاحمال ، كما يستعملها رعاة البقر والخيـل
والغنم عند ورودها الماء ترغيبا لها في شرب الماء . كما
يستعملون لها الحانا اخرى عند هيجانها والحانا اخرى عند
حلب البانها لتدريه . كما يستعمل صياد الغزلان والطـيـور
الحانا يوقعها بهـا .

وتغنى الام لطفلها حتى يكف عن البكاء ويخلد الـى
النوم^(٢) وهكذا تعددت الالحان وانتشر الغناء وصحبته

(١) يذهب ابن الجوزى البغدادي الى ان اول الحداء ما أنبأنا
به يحيى بن حسن بن البنا عن ابي جعفر بن المسلمه عن
المخلص عن احمد بن سليمان الطوسي عن الزبير بن بكار عن
ابراهيم بن المنزر عن ابي البحتري وهب عن طلحة المكي عن
بعض علمائهم ان رسول الله (ص) مال ذات ليلة بطريق مكة
الى حاد مع قوم فسلم عليهم فقال: ان حاديننا نام فسمعنا
حاديكم فملت اليكم فهل تدرون انى كان الحداء؟ قالوا:
لا والله . قال: ان آباهم مفر خرج الى بعض رعاته فوجد
ابله قد تفرقت فاخذ عـما فـضرب بها كف غلامه ففر الغلام
فى الوادى وهو يـصيح " يا يـداه . يا بـيدااه " فسمعت الابل
ذلك فعطفت عليه (اي جاءت نحوه) فقال مفر: لو اشتق
مثل هذا لانتفعت به الابل واجتمعت فاشتق الحداء - انظر
تلبيس ابليس ، ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

(٢) رسالة اخوان الصفا فى الموسيقى ، ج ١ ، ص ١٣٥ ،

الموسيقى وأقبل الناس في كل زمان ومكان على سماعها والاستمتاع بها لما لها من تأثير في نفوس الانسان والحيوان.

من ذلك ترى ان الغناء ظاهرة انسانية فهي كما يقول الغزالي اللذة الخاصة بحاسة السمع كما لكل حاسة من حواس الانسان لذة خاصة بها كما سنرى بعد .

ويذهب ابن خلدون الى ان الغناء يحدث في العمران اذا توفر وتجاوز حد الفروزي الى الحاجي ثم الى الكمال حيث ان الغناء والموسيقى في رأى ابن خلدون لا يستدعيهما الا من فرغ من جميع حاجاته الضرورية اللازمة للمعاش فلا يطلبها الا الفارغون من سائر احوالهم تفننا في مذاهب الملذذات (١) .

ويذهب ابن خلدون ايضا الى ان الفرس برعوا في الموسيقى وكان ملوكهم يهتمون بها ويولعون بها فاهتموا بأهل هذه الصناعة وكان لهم مكانة خاصة في دولتهم . وقد ازدهر فن الموسيقى عند الساسانيين فبلغ شأوا بعيد المدى .

وكان اهتمام الفرس بالموسيقى في دينهم ودنياهم ولذلك شواهد عدة تطالع من نظرة في تاريخهم او شـهدا شيئا من آدابهم (٢) .

وفي تركيا ازدهرت الموسيقى والغناء وخاصة في عهد السلطان سليمان القانوني الذي عم فيه الرخاء واستبحر العمران . وكان هذا السلطان رائد نهضة ادبية وعلمية هي أسمى نهضة عرفها الترك في الاداب والعلوم . وبلغ الشعر في

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ج ١ ، ص ٣٣٨ .

(٢) د. محمد مجيب المعري . فارسيات وتركيات ، ص ٥٧ وانظر

له ايضا . صلات بين العرب والفرس والترك ، ص ٢٦٢ .

عهد الشا والبعيد، وكان شعر العمور المتقدمة يجرى على نسق واحد ويكرر المعنى، واقترن شعر الحضارة التركية بالموسيقى والغناء^(١) فهناك ملات وطيدة بين الشعراء والموسيقى والغناء .

وقد تأثر الترك بالموسيقى الفارسية فتعلموا منهم من فنون الموسيقى والغناء ما لم يكن لهم به علم. وهذا يبدو واضحا مما نلاحظه على أسماء النغمات والمطلحات الموسيقية عند الترك فنجد معظمها فارسي ومن اظهر الامثلة على ذلك " گاه " بمعنى مقام عندالموسيقيين وهي من " كا تا " بمعنى الاغاني وهو اسم جزء من كتاب مقدس لدى الفرس يسمى " بالابستاق " ودخلت في الفهلوية فاصبحت " كاس " ثم تطورت في الفارسية الحديثة الى " گاه " ^(٢) ويقال انها تلحق باعداد فارسية فتصبح " دوگاه " و " سه گاه " و " چهارگاه " على سبيل المثال فيسبقها العدد اثنان وثلاثة واربعية ولهذا دلالة في مصطلح الموسيقى^(٣).

كذلك كلمة " بشرو " وهي في الاصل كما يقول الدكتور المصري بمعنى " المتقدم " و " الراشد " اما عندالموسيقيين فتعني مقدمة موسيقية وتنطق في العامية المصرية (بشرف)^(٤).

(١) دقائق رشاد : تاريخ أدبيات عثمانية ، ص ٢٦٩ برنجي جلد (استانبول) .

(٢) انظر د. محمد مجيب المصري . ملات بين العرب والفرس والترك ، ص ٤٤٨ وانظر له ايضا كتاب / فارسيات وتركيات ، ص ٥٨ (القاهرة سنة ١٩٤٨) .

(٣) د. مجيب المصري . ملات بين العرب والفرس والترك ، ص ٤٤٩ .

(٤) المرجع السابق نفس الصفحة .

وقد أخذ المصريون هذا عن الاتراك الذين آخذوه من قبل عن الفرس . ومن المعازف التي مرفها الترك " الناي " و " الكمان " والكلمتان فارسيتان ، الاولى بمعنى القصبـة والآخرى بمعنى القوس . كما يسمى الفرس هذا المعـازف " كمانجه " بمعنى القوس الصغيرة ، وهى نفس الكلمة فى العامية المصرية وان نطقت بكيفية مختلف عن اصلها الفارسى شيئا ما (١) .

اما العرب فى الجزيرة العربية فكان الشعر له مكانة عظيمة عندهم فى الجاهلية ولذلك جعلوه - كما يقول ابن خلدون - ديوان علومهم واخبارهم وشاهد صوابهم وخطئهم - واملا يرجعون اليه فى الكثير من علومهم وحكمهم وكانت ملكته مستحكمة فيهم (٢) .

وكان رؤساء العرب منافسين فى الشعر فكانوا يقفون فى سوق مكافئ بمكة لانشاده وعرض كل واحد منهم ديباجته على فحول الشأن وأهل البصر - حسب تعبير ابن خلدون - وعلقوا اشعارهم باركان البيت الحرام موضع حجبهم . ثم انصرفوا عن الشعر فى اول الاسلام لانشغالهم بامر الدين والنبوة والوحى لما أدهشهم من اسلوب القرآن ونظمه (٣) .

وعندما أستقر لهم الامر ولم ينزل الوحى بتحريم الشعر وحظره وسمعه النـبى صلى الله عليه وسلم وأثاب عليه فرجعوا حينئذ الى ديدنهم منه ، وكان لعمر بن ابي ربيعة كبير قريش مقامات فيه عالية وكان كثيرا ما يعرض شعره على ابن عباس فيقف لاستماعه معجبا به (٤) .

(١) د. حسين مجيب المصرى، ملات بين العرب والفرس والترك، ص ٤٤٩ .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ، ج ٤ ، ص ١٢٩٠ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٣١٢ .

وقد تغنى العرب بالشعر وعرفوا الحداء للابل وكان
الفتيان فى فضاء خلواتهم يتفننون به ويترنمون ويسمعون
الترنم اذا كان بالشعر غناء^(١).

ثم انتشر الاسلام فى بلاد العجم وكان العرب — من
البداوة والقضاة على الحال التى عرفت لهم... فلما جاءهم
الترف وغلب عليهم الرفه وصاروا الى نضارة العيش ورقية
الحاشية واستحلاء الفراغ اقبل المفضنون من الفرس والروم الى
الحجاز وصاروا موالى العرب وغنوا جميعا بالعيدان والطنابير
والمعازف والمزامير وسمعوا العرب تلحينهم للاصوات فلحنوا
عليها اشعارهم^(٢).

فقد كان فن الموسيقى عند العرب قبل الاسلام بدائيا
واختلف اختلافا جوهريا عنه بعد الاسلام .

وقد حدثنا الفارابى عن الالحان الموسيقية فى الجاهلية
ولا يستبعد أن يكون ما اشار اليه الفارابى بقايا الحان
قديمة للعرب قبل الاسلام^(٣) وأياما كان الامر فليس هناك
شك فى أن العرب قد تأثروا فى هذا الفن بالفرس وان هناك
ملات قوية قد قامت بينهم فى فن الغناء والموسيقى^(٤).

ويرى ابن خلدون انه لم تكن امة من الامم اولع بالطرب
والملاهى والاغانى بعد الفرس والروم من العرب^(٥).

(١) ابوفرج الاصفهاني / الاغانى ، ج ١ ، ص ١٢ .

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٣) مهدي بركشلى : موسقى در دوره ساسانى ، ص ٩ ، ١٠٠ طبع
(تهران ١٣٢٦ م) .

(٤) د. حسين مجيب المصمرى ، ملات بين العرب والفرس والتترك

ص ٢٦٣ .

وقد اشتهر بالغناء فى الجاهلية " أمش قيس " الذى كثيرا ما كان يفد على بلاط الحيرة وبلاط كسرى والتقى " بانو شروان " فى المدائن وقد اورد فى شعره كثيرا من الالفاظ الفارسية ووصف مجالس الانس عند الفرس .

وتغنت القيان فى الحانات بالحن فارسية ورومية واما اللغة فكانت عربية احيانا وفارسية ورومية احيانا اخرى ومن العلماء من ذهب الى انهن كن يتغنين بلغتهن الفارسية واليونانية لا العربية^(١) غير ان الدكتور حسين مجيب المصرى يقول " وفى رأى ان العرب لا يمكن ان يرضوا استماع الشعر العربى من فم اجنبى والذى نذهب اليه فى ذلك ان هذا لا يمكن القطع فيه برأى وان كان الاقرب الى الصواب أن يكون هذا الغناء فارسى أو رومى اللحن عربى اللغة بدليل ان الاعشى مثلا كان يتغنى بشعره العربى مقلدا الفرس فى الحانهم ولا نعرف منه انه غنى بالفارسية " ولعل بعضهم كن يغنين بلسانهم^(٢) .

ويقال ان اول من غنى على العود بالحن الفرس " النضر بن الحارث بن كلدة " . وقد على كسرى فتعلم ضرب العود والغناء ، وقدم مكة . كما كان من اوائل من تعلم فى الاسلام بالحن الفرس " سعيد بن مسجح " وذلك ان عبد الله ابن الزبير لما وهى بناء الكعبة جدد بناءها وكان فيها صناع من الفرس يغنون بالحنانهم فوق عليها ابن مسجح الغناء او الطرب العربى^(٣) .

(١) انظر Farmer: A History of Arabic Music. p. 12. (London, 1929)

(٢) د. حسين مجيب المصرى ، ملات بين العرب والفرس والترك ص ٢٦٢ .

(٣) انظر: النواجى: حليت الكميت ، ص ١٨١ ، ٢٦٤ ، (القاهرة ١٢٩٩)

ومن المعازف التي عرفها العرب من الفرس " البريط " وهو " العود " ويقول لغويو العرب في تفسير معنى الكلمة انها من " بر " بمعنى " صدر " و " بط " بمعنى الطائر المعروف فكانها بمعنى " صدر البط " و الصحيح أن هذا المعزف قد سمي باسم " بربد " او " باريد " وهو اسم مطرب مشهور " لكسرى برويز " وقد صنع " باريد " هذا ثلثمائة وستين لحنا " لكسرى برويز " وكان رأيه في الموسيقى قانونا يلتزمه الموسيقيون جميعا وكلهم اخذ عنه مقتد به (١)

كما عرف العرب من الفرس آلة " الصنج " ذات الاوتار وقد استعار العرب من الفرس كلمة " دستان " وهو موضع الاصابع من العود والطنبور كما سموا الوتر الاول والرابع " الزير " و " اليم " غير انهم لم يغيروا اسم الوتر الثانى والثالث وهما " المثنى " و " المثلث " (٢).

وقد كان الفرس اشهر من تغنوا وعزفوا الموسيقى بين العرب ومن المغنين الفرس اسماء عديدة نجدها مدونة فى كتاب الاغانى للاصفهاني (٣).

وقد اخذ العرب عن الفرس كلمة " خيناكر " و " خناكر " بمعنى المغنى والموسيقي وصاغوا منها فعل عربى الوزن هو " خنكر " او " غنى " (٤) فيقال " يخنكر " اى " يغنى " .

(١) انظر : Christensen: L'Empire des Sassanides. p. 104 (Kovenhavn, 1907)

(٢) انظر : Farmer: A History of Arabic Music. p. 70. (London, 1929)

(٣) انظر. الاصفهاني. الاغانى ، ص ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ج ١ (القاهرة ١٩٢٥) .

(٤) انظر: النويري: نهاية الارب ، ص ٣٦٨ ، ج ٤ " القاهرة

وما زالت صناعة الغناء تتدرج عند العرب حتى اكتملت في أيام بني العباس عند " ابراهيم بن المهدي " و " ابراهيم الموصلي " وابنه " اسحق " وابنه " حماد " وكان ذلك في دولتهم ببغداد^(١). وكان الغناء سبيلا الى جوائز الخلفاء وملاتهم التي كانت تكاد تخرج من حد التصديق فقد قال ابراهيم بن جامع : " اخذت من الرشيد ببيتين غنيته اياهما عشرة الاف دينار^(٢) . واكتظت المدينة بدور اللهو والغناء التي كانت تطلب دائما شعرا تغنيه مغنياتهم ومغنيهم وكانوا اذا فقدوه في المدينة طلبوه في شعر البادية^(٣) .

وكانت مكة تنافس المدينة في الغناء وان كانت نهفتها قد جاءت متأخرة عن نهضة المدينة ومستمدة منها ومتأثرة بها وكان من ابرز الشعراء في مكة عمر بن ابي ربيعة الشاعر الغنائي . وقد جرف تيار الشعر الغنائي شعراء المدينة حتى الفقهاء والمحدثين " فعروة بن اذينة " كان معدودا من الفقهاء والمحدثين ومع ذلك نظم الشعر الغنائي بل غنى بما كان ينظمه فيه وله فيه اصوات معروفة كما ورد في كتاب الاغانى^(٤) .

وكذلك عبيد الله بن عبد الله بن عتبة وهو احد الفقهاء السبعة المقدمين بالمدينة^(٥) .

(١) ابوفرج الاصفهاني ، الاغانى ، ج ١ ، ص ١٢ ، (القاهرة ١٣٤٥ هـ / ١٩٢٧ م) .

(٢) النويرى : نهاية الارب ، ج ٤ ، ص ٢٩٩ .

(٣) انظر : د. شوقي ضيف ، الشعر الغنائي في المدينة من ص ١٤١ ، ص ١٤٨ .

(٤) انظر : الاصفهاني ، الاغانى ، وانظر ايضا ابن القيسراني ، كتاب السماع تحقيق ابوالوفا المرازى ، ص ١٤ (القاهرة ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م) .

وما زال الشعر الغنائى والغناء ينمو ويزدهر وارتبط
بالادب الرقيق وزاحم فنون الشعر واقبل عليه الجمهور ومما
ساعد على ذلك ، اتماهه بالطبيعة البشرية وميلها اليه
استرواحا من هموم الحياة واثقال العيش ، ولعدوبة موسيقاه
ووضوح معانيه وسهولة الفاظه مما قربته الى العامة وسلكهم
مع الخاصة فى استساغته وتذوقه . هذا مع تطور القيم فى
المجتمعات التى اصبحت تنفر من الملق فى شعر المديح
وتستكره الفحش والافراع فى شعر الهجاء ، واصبح التفاخر
بالماضى ضربا من استجداء الاموات . وجرى الشعر الغنائى
على السنة الناس يلتقطونه من افواه المغنيين ما يتفق
مع آذواقهم (١) .

ويقول الدكتور الاهوانى : " فى هذا الجو الفنى
المعقب بعبير الغناء والموسيقى المملوء بالمناقشات
الحامية حول محاسن الالحن ونقدها وتقديرها والمنازعات
الشديدة حول تمسك بقديم عربى ماثور ومحافظه عليه واتباعه
او تحرر وتجديد، واخذ بموسيقىات الفرس والروم وبخاصة
بعد ترجمة كتب اليونان فى الموسيقى ظهر " ابو يوسف يعقوب
الكندى " يفصل علميا فى المناقشات ويشد ازر الروح العربية
ويضع للمغنيين والموسيقيين الاصول النظرية التى تبنى
عليها انواع الغناء والالحن الموسيقية بما يكفل لها
ان تكون سبيلا واضحا مضبوطا للمتعلمين " (٢) .

وقد اعتبر " الكندى " صاحب اول مدرسة للموسيقى فى
الاسلام كما اعتبر " اسحق الموصلى " صاحب اول مدرسة للغناء
ثم تطورت مدرسة " الكندى " على يد " الفارابى " الذى السف

(١) ابن القيسرانى : السماع . تحقيق ابو الوفا المرازى ، (القاهرة

١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م) ، ص ١٤ ، ١٥ .

(٢) انظر : د . احمد فهد ادا هو انى : الكندى فيلسوف العرب ، ص ١٦٥ .

كتاب " الموسيقى الكبيرة " ووض فيه اسس التعاليم الصوتية . وبلغت المدرسة ذروتها عند " الشيخ الرئيس ابن سينا " الذى فعل فى كتابه " جوامع علم الموسيقى " فعلا تاما بين الموسيقى كعلم والموسيقى كفن وصنعة .

غير ان كتب الكندى ظلت النبراس الذى استضاء به كل من جاء بعده والتى من اشهرها كتاب " فى خبر صناعة التأليف وكتاب " المصوتات الوترية " وكتاب " فى اجزاء خبريه فى الموسيقى " وكتاب فى " فى تأليف النغم وصناعة العود " ثم كتاب " الرسالة الكبرى فى التأليف " (١) .

وكان لتلك المؤلفات وغيرها مساهمة عظيمة فى تقدم علم الموسيقى لدى العرب .

واذا كان العرب قد ترجموا (٢) مصنفات اليونان فى الموسيقى فى عهد الكندى واطلع عليها الا انه سار على ترتيب موسيقى مخالف لها وقد اعلن ذلك فى قوله فى كتاب " فى اجزاء خبريه فى الموسيقى " : " سألت ايضاح اصناف الايقاعات وكميتها ، وكيفية ترتيبها وازمانها وكيفية استعمال الموسيقى لها فى الزمن المتاح اليها فيه : اذ كان اهل العصر من اهل هذه الصناعة الاغلب عليهم لزوم العادة لطلب موافقة من حضرم عند استعمالهم من اليونانيين من استعمالها على حسب الترتيب الاوجب فيها فرأيت اجابتك الى هذا (٣) .

-
- (١) د. الاهوائى، الكندى فيلسوب العرب وانظر ايضاد. محمد احمد الحفنى - سلسلة فى تراشنا الموسيقى (القاهرة ١٩٥٩) - حقق الاستاذ/ زكريا يوسف الرسالة الكبرى فى التأليف كما نشر بحاشا مغير بعنوان "موسيقى الكندى" (بغداد ١٩٦٢ م) .
- (٢) انظر: فارمر: تاريخ الموسيقى العربية . ترجمة د. حسين نصار (القاهرة ١٩٥٦) .

ويرى الدكتور الاهوانى ، ان هذا النص يوضح كيف ان " الكندى " يحمل لواء القومية العربية فى وجه التيارات الاجنبية وبخاصة التأثير اليونانى. فنحن نعرف ان مؤلفات اليونان مثل " ارستكسينوس " و " اقليدس " و " بطليموس " و " نيقوماخوس " الموسيقية قد ترجمت فى عصر " الكندى " ولكنه يعلن فى غير موارد انه ينبغي السير بترتيب موسيقى يخالفها . وقد ذكر فى اخر رسالته الكبرى ما يؤيد ذلك ويدل على معرفته بمذاهب الامم الاخرى فى الموسيقى وانـه التزم بالقوانين العربية^(١).

ولاشك ان الكندى كان مدركا للذوق العربى فى الموسيقى وما يطرب العرب من الحان وانغام وما لا يتناسب مع ذوقهم العربى الذى له طابع متميز . ومن الملاحظ ان لكل شعب من شعوب العالم ذوقه الموسيقى الخاص به . واذا كان العرب قد اخذوا شيئا من موسقى الفرس او تأثروا بالموسيقى اليونانية الا ان الموسيقى العربية كان لها طابع خاص تميزت به .

وقد لاحظ " الكندى " تلك الفوارق المزاجية بين الشعوب ووضح كيف ان كل شعب يطرب لسماع آلة موسيقية بعينها وقال ما نحه : " فان الفارسى يطرب بالاراشمين والناقوس والهندي والرومى لا يطرب بالطنبور الخراسانى "^(٢).

وهو يرد هذا الخلاف فى استعمال الآلات المعموتة سواء بالنقر او العزف او الاوتار الى طبيعة البيئة التى تؤثر فى صور الآلات كما تغير صور اهل تلك البلاد واخلاقهم وعاداتهم

(١) انظر: د. الاهوانى ، الكندى فيلسوف العرب ، ص ١٦٧ .

(٢) انظر كتاب الكندى - المعموتات الوترية من ص ٧٢ : ٨٠ حيث يتحدث الكندى بالتفصيل عن مذاهب كل امة واثـر ذلك فى

ولغاتهم. ففي الهند يستعملون آلة ذات وتر واحد تسمى " كنگة " وفي خراسان ونواحيها يستعملون آلة ذات وترين لانهم كانوا من الاثنيين ويعتقدون ان العالم وما فيه لا ينفك من الاثنية (ليل ونهار - حركة وسكون - خير وشر) وقد شدوا على الالة ذات الوترين سبعة دساتين او اكثر لتنتقل عليها اصابع اليد. والروم الذين يعتقدون بثلاث مبادئ فقد صنعوا آلة شدوا عليها ثلاثة اوتار وثلاثه دساتين . اما الروم الذين اعتقدوا في العناصر الاربعة فقد شدوا على العود اربعة اوتار وهي الالة الاكثر استعمالا عند الخاصة والعامة" (١)

وقد قسم الكندي الموسيقى الى بابين كبيرين هما :
الالحن والايقاع . وتحدث عن كل قسم بالتفصيل وعمل نوتة موسيقية سار عليها الفارابي وابن سينا ومن جاء بعدهما (٢).

كذلك كان لآخوان الصفا ابحاث ودراسات في الموسيقى واثرها على الارواح والابدان وقد خصموا الرسالة الخامسة من رسائلهم في الموسيقى ولم يغفلوا فيها شيئا يتعلق بالموسيقى دون ان يتعرضوا له وهم يتفقون مع الكندي في ان لكل امة من الناس الحانها ونغمات يستلذونها ويفرحون بها لا يستلذون غيرها ولا يفرح بها سواهم مثل غناء الديلم والترك والاعراب والارمن والزنج والفرس والروم وغيرها من الامم المختلفة اللسان والطباع والاخلاق والعادات (٣).

(١) انظر الكندي : المصوتات الوترية من ص ٧٢ : ٨٠ وانظر ايضا د. احمد فؤاد الاخواني . الكندي فيلسوف العرب ص ١٦٨ ، ١٦٩ .

(٢) انظر : ابن سينا جوامع علم الموسيقى ، ص ٨١ ، د. احمد فؤاد الاخواني ، الكندي فيلسوف العرب ، ص ١٨٠ ، ١٨١ .

(٣) اخوان الصفا ، رسالة في الموسيقى ، ج ١ ، ص ١٤٣ .

وإذا صح هذا الحكم الى درجة كبيرة الا انه ليس بالحكم المطلق فان لكل امة موسيقى خاصة بها والحن مميزة غير ان ذلك لا يعنى ان أهل كل امة لا يطربون الا لموسيقاهم واغانيهم الوطنية وانما قد يطرب العربى لسماعه الغناء والموسيقى الهندية او الغربية ويقبل على سماعها وهذا هو الملاحظ فعلا الى جانب حبه وطربه للموسيقى العربية .

اما أهل الاندلس فقد شاع الشعر فى قطرهم وتهدبت مناحيه وفنونه وبلغ التنسيق فيه للغاية وتغنى به المطربين والمطربات واستحدث المتأخرون منه فنا سموه " بالموشح " ينظمونه اسماطا اسماطا واغصانا اغصانا يكثررون منها ومن اعاريضها المختلفة ويلتزمون عند قوافى تلك الاغصان واوزانها متتالية فيما بعد الى اخر القطعة (١) .

وكان من اعلام الموشحين فى الاندلس " ابن زهر " و " ابن بقى " و " ابوبكر الابيض " والحكيم الفيلسوف " ابوبكر بن باجة " صاحب التلاحين المعروفة . ومن الحكايات المشهورة عن " ابن باجة " انه حضر مجلس مخدمه " ابن تيفلويت " صاحب " سرقطة " فلقى بعض قيناته موشحه قال فى مطلعها :

جرر الذيل أيما جرر وصل الشكر منك بالشكر

فطرب الممدوح لذلك . فلما ختمها بقوله :

عقد الله رأية النمر لاميير العلا ابى بكر

فلما طرق ذلك التحلين سمع " ابن تيفلويت " صاح واطرباه وشق ثيابه وقال : " ما أحسن ما بدأت وما ختمت .

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، تحقيق د. على عبدالواحد وافي ،

وجعل البروج الاثنا عشر تناسب الاوتار الاربعة
والدساتين الاربعة والملاوى الاربعة .

- الحمل والسرطان والعقرب والدلو لانها بروج منقلبية
تناسب الملاوى التى من شأنها الالتواء والانقلاب .

- الثور والاسد والعقرب والدلو لانها بروج ثابتة
تناسب الدساتين التى من شأنها الثبات فى مواقعها .

- الجوزاء والسنبلة والقوس والحوت تناسب الاوتار
الاربعة (١) .

وقد كان الكندى متأثرا فى ذلك بمذاهب الصابئة فى
قوله بذلك وبمذهب فلاسفة اليونان والفلسفة الاسكندرانية .

اما الفارابى وابن سينا لم يعترفا بهذه الصلة بين
الافلاك والموسيقى وقد أعلن ابن سينا مراحة فى كتابه
" جوامع علم الموسيقى انه لم يلتفت الى محاكيات الاشكال
السماوية والاخلاق النفسانية بنسب الابعاد الموسيقية لان
ذلك من سنة الذين لم تتميز لهم العلوم بعضها عن بعض
ولان اصحابها قوم قدمت فلسفتهم وورثوها غير ملخصة فاقتدى
بهم المقصرون ممن أدرك الفلسفة (٢) .

(١) لمعرفة المزيد من التفاسيل فى حديث الكندى عن
علاقة الانغام الموسيقية بالافلاك انظر الكندى .المصونات
الوترية وانظر ايضا زكريا يوسف موسى الكندى
ود .الاهوانى الكندى فيلسوف العرب ، ص ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ .

(٢) انظر : ابن سينا : جوامع علم الموسيقى وانظر ايضا
د . احمد فؤاد الاهوانى ، الكندى فيلسوف العرب
ص ١٨٨ .

ويلق الدكتور الاهوانى على قول "ابن سينا" بأن
أغلب الظن ان الشيخ الرئيس يوصى بهذه الإشارة الى فيلسوف
العرب " الكندى " (١) لان الكندى تأثر فى قوله هـذا
بالفلسفات القديمة التى ربطت بين الموسيقى والفلك .

كذلك فعل اخوان الصفا الذين تصوروا ان لحركات
الافلاك نغمات كنغمات العيذان الموسيقية وذهبوا الى ان
حركات الافلاك لها اصوات ونغمات طيبة مفرحة لنفوس اهلها
من الملائكة وان تلك النغمات تذكرهم بعالم الارواح التى
فوق الفلك والتى جوهرها اشرف من جواهر عالم الافلاك او عالم
النفوس (٢) .

كما تصوروا علاقة بين اوتار العود وبين عناصر
الطبيعة الاربعة " النار - الهواء - الماء - التراب " فقالوا
الحكماء الموسيقاريين انما اقتصروا فى اوتار العود على
اربعة لا اقل ولا اكثر لتكون مصنوعات مماثلة للامور التى
دون فلك القمر . اقتداء بحكمة البارى جل ثناؤه .

فوتر " الزير " (٣) مماثل لركن " النار " ونغمته
مناسبة لحرارتها وحدتها .

ووتر " المثنى " (٤) مماثل لركن " الهواء " ونغمته
مناسبة لرطوبة الهواء اللينة .

(١) د. أحمد فؤاد الاهوانى . الكندى فيلسوف العرب ، ص ١٨٨ .

(٢) اخوان الصفا ، رسالة فى الموسيقى ، ج ١ ، ص ١٤٤ .

(٣) " الزير " وتر فى العود يسمى اليوم " كردان " وهو طبقة
واحدة يصنع من الحرير .

(٤) " المثنى " وتر فى العود يصنع من الابرسم اى الحرير
وهو من طبقتين بفتلان جيدا . وقياسه قياس المعنى

ووتر "المثلث" مماثل لركن الماء ونغمته مناسبة
لرطوبة الماء وبرودته .

ووتر " البم " مماثل لركن التراب او الارض ونغمته
مماثلة لشغل الارض وغلظها (١) .

تلك لمحة سريعة عن تاريخ الموسيقى والغناء ننتقل
منها الى تعريف السماع .

(١) انظر اخوان الصفا رسالة فى الموسيقى ، ج١ ، ص ١٤٤
كان العود يتركب بالفعل من اربعة اوتار ولكن الكندى
اضاف اليه نظريا وترا خامسا هو " الزير الثانى "
ويختص كل وتر بستة اصوات اولها مطلق الوتر وتستخرج
الاصوات الباقية بالعفق بواسطة الاصابع على هذا
الترتيب " السبابة - الوسطى - البنصر - الخنصر "
انظر د. الاهوانى : الكندى فيلسوف العرب ، ص ١٧١ .

(٢) تعريف السماع

للسماع مفهوم واسع فهو يشتمل على كل ما يسمعه
الانسان من اصوات عذبة واغنيات واشعار وموسيقى ونشـ
وقرآن وغيرها وهو عامة يدل على السمع او الاستماع وآلتـ
الاذن^(١) والاحساس بالاصوات^(٢) وآلتـ القوقعة ، والمنبـ الصوتي
وهو عبارة عن موجات هوائية تصل القوقعة عن طريق الطبلة
والعظيمات والسائل اللمفي الموجود في الاذن الباطنة^(٣) .

- (١) من اجزاء الاذن الرئيسية الطبلة وسلسلة العظيـمات
ثم الاذن الباطنة وهي تقوم بوظيفتين : الاحساس
والتوازن وآلته الكيس والشكية والقنوات الهلالية
الثلاثة . انظر د . يوسف كرم . مبادئ علم النفس العام
ص ٦٥ .

- (٢) الاصوات نوعان : حيوانية وغير حيوانية . وغير الحيوانية ايضا نوعان طبيعية وآلية فالطبيعة هي كموت الحجر والحديد والخشب والرعد والريح وسائر الاجسام التي لا روح فيها من الجمادات . والآلية كموت الطبل والبوق والزممر والاوتار وما شاكلها . والحيوانية نوعان منطقية وغير منطقية . فغير المنطقية هي اصوات سائر الحيوانات الغير الناطقة واما المنطقية فهي اصوات الناس وهي نوعان : دالة وغير دالة . فغير الدالة كالضحك والبكاء والصياح وبالجملة كل صوت لاهجاء له واما الدالة فهي الكلام والاشارات التي لها هجاء . وكل هذه الاصوات انما هي فرع يحدث في الهواء من تعادم الاجسام . انظر اخوان الصفا - ج ١ ، ص ١٣٧ ، رسالة في الموسيقى .

- (٣) الذبذبات الصوتية التي تدركها الاذن البشرية تتراوح سلمها بين ٢٠ و ٢٠٠٠ ذبذبة في الثانية .

وقد عرف السمع بأنه " قوة مودعة فى العصب المفروش فى مقعرة الدماغ تدرك بها الاصوات بطريق وصول الهواء المكيف بكيفية الصوت الى الصماغ " وقيل ان السماعى فى اللغة هو ما نسب الى السماع (١) .

وقد قال الامام القرطبى فى " كشف القناع " السماع فى كلام العرب مصدر . يقال سمع يسمع سمعا وسماعا . بدليل قولهم اخذ العلم عنه سمعا وسماعا اى مشافهة ومكالمة .

وقد يقال ايضا على الفهم للمسموع كما قال الله تعالى : . ولو علم الله فيهم خيرا لاسمعهم " (٢) اى افهمهم (٣) فهذا هو معنى السماع فى اللغة والشرع .

وللصوت المسموع خصائص عامة هى :

(١) الشدة : أو سعة الموجة ويقابلها ما يعرف بالرنانة Loudness فيقال صوت قوى او ضعيف .

(٢) التردد : أو طول الموجة ويقابله ما يعرف بالمقام Pitch وتتراوح درجته بين الحاد والغليظ .

(٣) درجة التركيب : ويقابله الكيفية الصوتية Timpey وتمتاز به الانغام الصادرة عن الآلات مختلفة من حيث اجزائها الرنانة سواء كانت اوتار او خشب او نحاس او غيرها . وتراجع الكيفية الى تركيب النغمة الاساسية بنغمات اخرى تعرف بالنغمات التوافقية (٤) .

(١) الجرجاني ، التعريفات ، ص ١٠٧ ، ط ١٣٥٧ هـ / ١٩٣٨ م .

(٢) سورة الانفال ، آية ٢٣ .

(٣) محمد ابى الهدى المكنى بابى البركات ، احكام الذكروالسماع ٤٣

(٤) انظر د . يوسف مراد . مبادئ علم النفس العام . الطبعة الرابعة ، ص ٦٥ .

وتعتبر الاذن البشرية أدق تحليلا واكثر تمييزا
للكيفيات الصوتية من العين فى تحليلها للكيفيات الضوئية
فليس فى امكان العين تحليل الالوان المركبة الى السوان
بسيطة بينما الاذن المدربة تميز بين النغم الاساسى والانغام
التوافقية . ولهذا السبب لا تفوق لذة فنية ما تجلبه الانغام
الموسيقية للنفس من نعيم ومتعة (١) .

ولحاسة السمع ما للحواس الاخرى من قيمة عقلية فهى
تدرك الاصوات البعيدة مما يتيح فرصة للاستعداد لمواجهة
الموقف بطريقة ناجحة . وهى اقل الحواس مادية واقواها
استخداما للرموز والاشارات العقلية كالرموز اللغوية التى
يمطنعها التعبير اللفظى (٢) .

هذا عن السماع عموما اما الصوفية فانهم يطلقون
السماع على فهم يقع لاحدهم بغتة يكون عند وجد وغيبة سواء
كان ذلك من نظم او نشر او غيرها (٣) .

فالسماع عند الصوفية له معنى خاص فهو رياضة عملية
يعطنونها لترقيق القلب وتهياته باثارة الوجد وتزكية
نار الحب والشوق فى قلوب عشاق الله تعالى بالسماع الى
صوت خاشع رخم يتغنى بكلمات منظومة على نغمات موزونة
تحمل معانى الحكمة والزهد والترغيب والترهيب ما يثير
انفعال السامع من شوق وطرب وحزن وخوف وانس ورجاء وغيرها
من الانفعالات الكامنة فى نفوسهم فيتواجدون ويسقطون ما

(١) انظر د . يوسف مراد . مبادئ علم النفس العام ، الطبعة

الرابعة ، ص ٦٦ . ٦٧ .

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٣) محمد بن ابى الهدى المكنى لابى البركات ، احكام

الذكر والسماع ، ص ٤٣ .

يسمعون على احوالهم مع الله وقد يبلغ وجدهم مقاماً أعلى
يفنى السامع عن احواله يفنى عما حوله ويبقى بالله
فيحدث له حال من الاتصال الروحي بالله فى لحظة عابرة
فينعم بلذة القرب ويجنى ثمرة الاتصال .

وهناك سماع الخاصة وهو سماع القرآن الكريم وما
تحمله آياته من المعانى الجليلة العميقة اذا استمع لها
بانصات وتدبر تقوى الهمم وتشعل الوجد فى الصدور وتسمو
بالارواح وتثير فيها العواطف الكامنة من أثر المحبة
المتزايدة للحق فتهم حبا وشوقا وترداد اتصالا وقربا حتى
تعل بهاحبها الى حال من الجذب والوجد والاشراق القلبى

كما ان الصوفية لحضورهم الدائم مع الله قد يتواجدوا
عند سماع العبارات والالفاظ العادية والاصوات المختلفة
كتغريد الطيور وخير الماء وغيرها . كما سيأتى تفصيله .

وقد جاء فى مصنفات الصوفية تعريفات عديدة للسماع
نذكر اهمها ثم نتبين معا تعريف الغزالي للسمع :

(١) عرف ذو النون المصرى (١) السماع بقوله : "وارد حق
يزعج القلب الى الحق ، فمن اصفى اليه بحق تحقق ومن اصفى
اليه بنفس تزندق" (٢) .

وفى هذا التعريف يرى ذو النون ان السماع يحرك
القلب ويشير الوجد اذا كان من يستمع اليه صادق الحال
واما من يسمع طلبا للمتعة والطرب فهو فى رأيه زنديق .

(١) هو ابو الغيث ثوبان ابراهيم المصرى وهو من كبار صوفية
مصر فى القرن الثالث الهجرى ولد سنة ١٥٥ هـ وتوفى سنة ٢٤٥ هـ
وكان والده نوبيا ويعد من اوائل من تكلموا فى المعرفة
الصوفية . انظر طبقات السلمى ، ص ١٠ .

وقد قال ذوالنون من الصوت الحسن : " هو مخاطبات
واشارات اودعها الله كل طيب وطيبة " (١).

(٢) وقد عرف محيي الدين بن عربي السماع بانـــــــه
"الانتباه بالقلب الى ما يحمد شرعا" (٢) واستماع القول الذي
اثنى الله عليه وامر باستماعه واتباع احسنه وهو عنـــــــده
رياضة عملية يعطنهما الصوفية للوصول الى الوجد واثماره في
القلب ومقام من مقامات السالكين ومنزل عظيم الفائـــــــدة
لترقيق القلب واشارة الوجد ولكنه ايضا مزلة قدم لمن
لا شيخ يرشده ولا علم يحميه واما اذا كان السامع عالـــــــم
بالشرع وعامل به ومسترشد بشيخ يهديه ومائق الحال فــــان
سماعه يثمر فهو يسمع من الحق ويشهد ان لا مخاطب له ســــوى
الحق فيمثل لكل ما يفيضه عليه ويقول ما نعه " السماع من
مقامات السالكين ، وهو منزل عظيم الفائدة ، من منازل القلب
وهو مزلة قدم لمن لا تحصيل له ولا شيخ يرشده . . . يخرج فيه
المريد على ان يسمع من الحق ولا يرى ان احدا في الوجود
يخاطبه غير الله تعالى فهو ممثّل لكل ما يؤمر به " (٣).

(٣) وقد عرف الجنيد (٤) السماع بقوله " السماع فتنة
لمن طلبه ترويح لمن صادفه " (٥) اي ان السماع فتنة لمن
يطلبه للمتعة والطرب ويكون ترويحاً من النفس لمن يعادف في
نفسه صدى او اثر كريم .

-
- (١) عبد الكريم القشيري ، الرسالة ، ج ٢ ، ص ٦٤٤ .
 - (٢) ابن عربي : المواقع ، ص ١٦٤ .
 - (٣) المرجع السابق ، نفس الصفحة .
 - (٤) هو ابو القاسم الجنيد محمد الحراز من العراق من صوفية القرن
الثالث الهجري ، توفي سنة ٢٩٧ هـ . انظر الطبقات الكبرى للشعراني
وانظر طبقات السلمى ، ص ٣٦ .
 - (٥) الرسالة القشيرية ، ج ٢ ، ص ٦٤٤ .

وقد قال الجنيد " الرحمة تنزل على الفقير في ثلاث مواضع ، عند الاكل فانه لا يأكل الا عن حاجة ، وعند الكلام لانه لا يتكلم الا للضرورة ، وعند السماع لانه لا يسمع الا من وجد " (١) .

(٤) وقد عرف الشبلى (٢) السماع تعريفا يشبه تعريف الجنيد له حيث قال : " السماع ظاهرة فتنة وباطنه عبرة فمن عرف الاشارة حل له استماع العبرة والا فقد استدعى الفتنة (٣)

وفى هذا التعريف يوضح الشبلى ان السماع له ظاهر وباطن فظاهره اللهو والغناء وهو لذلك فتنة لمن طلبه لهذا الغرض ، وباطنه ترقيق القلب وتهيشته للاتصال الروحي بالله عز وجل والتقرب اليه تعالى وهو لذلك عبرة . ومن عرف العبرة من السماع وكان صادق الحال حل له الاستماع اليه والاعتبار به .

(٥) وعرفه أبو يعقوب النهرجورى (٤) بقوله : " السماع حال يبدى الرجوع الى الاسرار من حيث الاحتراق " (٥) .

وفى هذا التعريف يرى النهرجورى ان السماع وسيلة تشعل نار الحب الالهى فى قلوب السامعين من عشاق الحق يعمل

(١) الرسالة القشيرية ، ج ٢ ، ص ٦٤٤ .

(٢) هو أبو بكر جدر الشبلى ويقال اسمه جعفر بن يونس من خراسان ولد ببغداد وكان صاحب الجنيد . توفي سنة ٣٣٤ وهو تلميذ خير النساء . انظر الرسالة القشيرية ، ج ٢ ، ص ٦٤٥ .

(٣) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٤) هو اسحق بن محمد النهرجورى من كبار الصوفية صاحب الجنيد واقام بالحرم سنين طويلة مجاورا وتوفى به سنة ٣٠٣ هـ انظر طبقات السلمى ، ص ٦٢ .

(٥) القشيري ، الرسالة ، ج ٢ ، ص ٦٤٥ .

فيه السامع الى حال الغناء وتشرق الاسرار الالهية على قلبه
الذى تطفى بنار الحب الالهى .

(٦) وعرف "أبو على الروزبارى" (١) السماع بقوله :
السماع هو مكاشفة الاسرار الى مشاهدة المحبوب" (٢) .

وهذا التعريف يشبه التعريف السابق فى انه يرى ان
السماع يؤدى الى حال المكاشفة والمشاهدة القلبية للحق
سبحانه واظلامه تعالى الواصلين الى حضرة ومكاشفتهم
بالاسرار الالهية والمعرفة اللدنية .

وقد سئل "الروزبارى" ممن يسمع الملاحى ويقول : هـى
لى حلال لانى قد وصلت الى درجة لا تؤثر فى اختلاف الاحوال
فقال : قد وصل لعمرى ولكن الى مقرر (٣) .

وهذا يعنى ان السماع عنده لا يكون بالتغنى بقصائد
الغزل واللهو الرخيص وانما يكون بالانشاد الدينى والاشعار
التى تقرب العبد من ربه وتذكره بدار القرار وتذهده فى
الدنيا وتقوى عزيمة . اما من يسمع اغانى اللهو والمجون
ويدمى انها لا تؤثر فيه لانه وصل الى درجة او مقام اعلى
من ان تؤثر فيه مثل هذه الكلمات فانه يكون غير صادق
وسماعة لها يؤدى به الى الهلاك فيكون من اهل النار .

(١) هو أبو على احمد بن محمد بن القاسم بن منصور بن شهرىار

ابن مبرز اذار بن فرغدر بن كسرى ، وهو من اهل بغداد
سكن مصر وصار شيخها ومات بها صاحب الجنيذ وابا الحسن
النورى توفى سنة ٣٢٢ هـ . انظر طبقات السلمى ، ص ٨٧ .

(٢) القشيرى الرسالة ، ج ٢ ، ص ٢٤٩ .

(٣) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(١)
(٧) وقد عرف " سهل بن عبد الله الستري " السماع بقوله " السماع علم استأثر الله تعالى به لا يعلمه الا هو " (٢) وفي هذا التعريف يعتبر " سهل " ان السماع سر من الاسرار الالهية وربما ذلك لان السماع يشير في قلب المستمع وجداً وانفعالات وعواطف فياخذ لا يعلم سر انبعاثها بمجرد السماع الا الله .

(٨) وعرفه الكلبي (٣) بقوله " السماع استجمام من تعب الوقت وتنفس لارباب الاحوال واستحضار الاسرار لذوى الاشغال " (٤).

ويوضح هذا التعريف اهمية السماع في الترويح عن النفس من كثرة الجد لان فيه متنفس لاصحاب الاحوال وانسه يشمر استحضار الاسرار والمعارف الذوقية .

(٩) وقال السهروردي البغدادي من السماع ويعنى (سماع القرآن الكريم) " هو السماع الحق لا يختلف فيه اثنان من اهل الايمان معكوم بالهداية واللب وهذا سماع ترد حرارته على برد اليقين فتفيض العين بالدمع لانه تارة يشير حزنا والحزن حار ، وتارة يشير شوقا والشوق حار وتارة يشير ندما والندم حار . فاذا اثار السماع هذه الصفات من صاحب القلب مملوء بهرد اليقين ابكى وادمع ، لان الحرارة والبرودة اذا اصطدما مصرا ماء .

(١) هو اسد محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسى بن عبد الله

ابن ربيع الستري احد ائمة القوم .

(٢) القشيري . الرسالة ، تحقيق د. عبد الحليم محمود

محمود الشريف ، ج ٢ ، ص ٦٤٩ .

(٣) هو تاج الاسلام ابو بكر محمد الكلبي (٣٨٠ هـ - ٩٩٠ هـ).

(٤) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

فإذا ألم السماع بالقلب تارة يخف المامه فيظهـر
اثره على الجسد ويقشعر منه الجلد. قال تعالى: " تقشعر
منه جلود الذين يخشون ربهم" (١) (٢) وهنا يوضح السهروردي اثر
سماع القرآن الكريم على السامعين جسميا ونفسيا فهو يبعث
الوجد والحضور مع الله فتدمع العين وتقشعر الاجسام .

(١٠) وعرفه زكريا الانصارى بقوله: " السماع هو الانتباه
بالقلب الى ما يحمد شرعا" (٣) وهذا التعريف بول فيــــه
الانصارى على دور القلب فى الانتباه لمعانى المسمــــوع
والانفعال بها على ان يكون ما يسمع موافقا للشرع وملتزما
بآدابه .

(١١) اما محمد بن على الباقر بن على بن الحسين زين
العابدين رضى الله عنه فيرى ان موت القلب من شهوات النفس
وحياة القلب فى رفض شهوات النفس وكلما رفض العبد شهواتها
نال من الحياة وان السماع دليل على حياة القلوب فهــــو
للاحياء لا للاموات . قال تعالى : فانك لا تسمع الموتى" (٤) ،
والاحياء هم الذين يحيون حياة روحية مترفعة عن الشهوات
والاهواء فالسماع فى نظر الباقر دليل على حياة القلوب (٥) .

(١٢) ويذهب ابن سينا الى ان السماع رياضة عمليــــة
يستعين بها السالك على تهذيب نفسه وتطويع النفس الامارة
بالسوء (للنفس المطمئنة لكى تجذب قوى التخيل والوهم الى

(١) سورة الزمر ، آية ٢٣ .

(٢) عوارف المعارف بهامش احياء علوم الدين للغزالى ،
ج ٢ ، ص ٢٢٢ .

(٣) انظر شرح زكريا الانصارى للرسالة القشيرية على هامش
الرسالة ، ص ١٥٠ .

(٤) سورة الروم ، آية ٥٢ .

الاحساسات السامية وانفعالات الوجد والجذب والشوق مما يتناسب مع حفرة الحق وتنصرف عن الاحساسات والانفعالات الخارجية المحيطة التى تتصف بانها توهومات مادية مناسبة للامر السفلى ويقول فيذلك: " ثم انه (اى المريد) ليجتاج الى الريافة... والى تطويع النفس الامارة بالسوء للنفس المطمئنة لتجذب قوى التخيل والوهم الى التوهومات المناسبة للامر القدس منصرفا عن التوهومات المناسبة للامر السفلى... ويعين على ذلك الالخان المستخدمة لقوى النفس الموقعة لما لحن به من الكلام موقع القبول من الاوهام" (١).

(٢)
(١٢) وعرفه عبدالوهاب الشعرانى بقوله: " أعلم ان السماع سر من اسرار الله تعالى يظهر فى المادقين من العشاق ولا يعرفه حق المعرفة الا من ذاق" (٣) وهو يفرق بين نوعين من السماع :

سماع تقليدى • وسماع حقيقى • والسماع التقليدى هو ما يفعله المتشبه ليلتحق بآرباب الاحوال والمواجيد فمن تشبه بقوم فهو منهم •

اما السماع الحقيقى فهو ما قال فيه الحق تبارك وتعالى " فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه

-
- (١) انظر الاشارات والتنبيهات، ج ٤ من ص ٨٢٠ الى ٨٢٤ •
(٢) هو عبدالوهاب بن احمد بن على الشعرانى ولد سنة ٨٩٨هـ / ١٤٩٠م، وتوفى سنة ١٧٣هـ / ١٥٦٥م وهو عالم من علماء الفقه والتصوف وله مصنفات عديدة فى مختلف فروع العلم وهو مصرى من محافظة المنوفية وله قبر فى مسجده فى باب الشعريسة بالقاهرة •
(٣) للشعرانى رسالة فى السماع هى " كشف القناع عن وجه السماع" مخطوطة بالمكتلة الازهرية ضمن مجموعة (٩٤٢ حلیم) ٣٣٥٧٦ انظر

أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الالباب" (١) وهذا السماع محكوم لاهله بالهداية وهو منده ينقسم بدوره الى :

سماع طبيعى . وسماع روحانى الهى .

والسماع الطبيعى هو ما يحدث بالاصوات الحسنة والنغمات الطيبة وصاحبه يسمع بطبعه ونفسه وهواه فيكون حظه من مسموعه ما وافق طبعه وهو لا يصلح الا لمن كان قلبه صافيا ونفسه قد تهذبت .

اما السماع الروحانى او الالهى فهو سماع الخاصة لكلمات الله تعالى وادراكها وفهمها وتدبر معانيها والانفعال بها . وهو سماع مطلق لاصحاب الهمم العاليتين والنفوس الزكية والقلوب المستنيرة بنور الله . وهؤلاء لا تؤثر فيهم النغمات (٢) .

(١٤) هذا وقد عرف الامام الغزالى السماع بقوله : "السماع للقلب محك صادق ومعيار ناطق فلا تعمل نفس السامع اليه الا وقد تحرك فيه ما هو الغالب عليه" (٣) وهذا يعنى ان السماع هو اختبار صادق للقلب ليظهر ما بطن فيه فاذا كان قلب السامع صافيا عامرا بحب الله اظهر السماع هذا الحب والهب نار الشوق واذا كان قلبه مليئاً بحب الدنيا لذاتها وشهواتها اثار فيه السماع هذه اللذات والشهوات وقال الغزالى ايضا : "اعلم ان السماع هو اول الامر ويثمر السماع حالة من الوجد ويثمر الوجد تحريك الاطراف" (٤) .

(١) سورة الزمر ، آية ١٨ .

(٢) الشعراى ، رسالة كشف القناع عن وجه السماع مخطوطة ل ٢١٠ ظ

(٣) احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ١٢٦٦

(٤) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

ومعنى ان السماع أول الامر هو انه وسيلة عملية لريافة النفس يطمئنها الصوفى فى احداث الوجد وهو فى بداية الطريق الى الله . فالسماع يشمر الوجد . واذا تملك الوجد السامع فانه قد يحرك اطرافه استجابة لهذا الانفعال الداخلى القوى، يتفق قول الغزالى هذا مع ما ذهب اليه علماء النفس من ان الانسان وحدة جسمانية نفسية لا تتجزأ وان سلوكه ناحيتان - ناحية النشاط الحركى - وناحية النشاط الذهنى وهما متلازمتان فى العادة^(١)، كذلك يتفق ما ذهب اليه الغزالى وغيره من الصوفية من ان السماع يحرك ما فى القلب وانه محك صادق يظهر ما كمن فيه مع ما توصل اليه علم النفس الحديث من ان المنبه الخارجى - وهو فى تلك الحالة النغمات والاصوات - لا يفاجئ جسما جامدا وانما جسما حيا يمتاز بالنشاط والاحساس فالانسان حتى عندما يكون غارقا فى نوم عميق ليس فى حالة غيبوبة حسية تامة بل فى حالة احساس كامن .

ومن الخطأ ان يقال ان المنبه الخارجى هو الذى يولد الاحساس بل من الخطأ - ان اردنا توخى الدقة فى التعبير - ان يقال ان التنبيه يتحول الى احساس . كل ما فى الامر ان التنبيه الخارجى يحول الاحساس الكامن الى احساس فعلى واضح . فالمنبه الحسى هو مجرد منشط للطاقة الداخلية وللاحساس الكامن ووظيفة الجهاز العصبى توجيه اشار هذا التطور وتركيزه .

وعلماء النفس يرون انه يخيّل اليّنا اننا نحس بالاشياء وبالمنبهات ، والواقع اننا نحس انفسنا بفضائل تأثير المنبهات الخارجية^(٢) وعلى ذلك فان النغمات وموت

(١) انظر د. يوسف مراد . مبادئ علم النفس العام ، ص ٣٤ .

(٢) المرجع السابق ، لمعرفة المزيد عن عملية التنبيه بالمشورات

المغنى او المسمع لا يخلق فى المستمع مشاعر لم يكن لها وجود وانما هى فقط تشير مشاعر واجشان كامنة فى النفس فتحركها وتظهرها بشكل واضح وقوى .

ويمكننا بعد عرض التعريفات السالفة للسمع ان نستخلص ما تتضمنه من مفهوم السماع عند الصوفية فيما يلى :

(١) ان السماع عند الصوفية وسيلة عملية لاثارة الوجد والحب والشوق الى الله الكامن فى القلوب عن طريق سماع القرآن او الالحان المغناة او غيرها من الكلام حتى تنفذ فى سرائر المحبين فتزداد خشوعا وطلباً للقرب .

(٢) ان السماع لا يخلق شيئاً جديداً فى القلوب انما هو منه يثير المشاعر الكامنة فيه فان كان حبا لله تواجد وان كان حبا للشهوة ظهر وانكشف .

(٣) ان للسمع اداب شرعية يجب الالتزام بها والا صار لهواً وعبثاً .

(٤) ان من يسمع وهو صادق الحال يجنى ثمرة الوجد والاتصال وقد تتحرك نتيجة لذلك اطرافه وقد يحدث اصواتاً وقد يسكن بلا حراك .

(٥) ان السماع سر من اسرار الله يعمل فى القلوب عملها فيحييها ويحدد مشاعرها وينبها فتتهياً لتلقى المعرفة الذوقية .

(٣) العلاقة بين السماع والموسيقى العربية :

هناك علاقة قديمة بين السماع وبين الموسيقى فقد استخدم القدماء النغمات الموسيقية فى بيوت العبادة والالحان المحزنة والمرققة للقلوب والمذكرة، للنفسوس بعالمها . وكان سماعها لتلك الموسيقى وترتيلها تلك الالحان يقربها ويشوقها الى عالمها الروحانى .

وقد ذهب اخوان الصفا الى ان الاشعار التى كان الحكماء الالهيون يلحنونها عند استعمال الموسيقى فى الهياكل وبيوت العبادات لترقيق القلوب القاسية وتنبيه النفوس الساهية من نومة الغفلة والارواح اللاهية فى رقدة الجهالة ولتشويقها الى عالمها الروحانى ومحلها النورانى ودارها الحيوانية ولاخراجها من عالم الكون والفساد ولتخليصها من الغرق فى بحر الهوى ونجاتها من اسر الطبيعة فكانوا يلحنون مع نغمات تلك الاوتار كلمات وابيات موزونة وصف فيها نعيم عالم الارواح ولذات اهل وسرورهم كما كان يقرأ المجاهدين المسلمين عند سماع نغير الحرب آيات من القرآن انزلت فى هذا المعنى لترقق القلوب وتشوق النفوس الى عالم الارواح ونعيم الجنة مثل قول الله تعالى: " ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراه والانجيل والقرآن ومن اوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به " (١) ، ومثل هذه الايات من القرآن الكريم .

(١) سورة التوبة ، آية ١١١ .

كما ينشد المسلمون عند اللقاء ما قيل من ابيات
الشعر فى وصف الحور العين ونعيم الجنان مما يشوق النفس
الى هناك ويشجع على الاقدام (١) .

وقد كان الغناء بذلك منبرا هاما فى ترقيق القلوب
وكان له اثر فى التقاليد الدينية وكان من الانبياء من
يعتمد على جمال صوته فى جذب الناس فكان النبى داود عليه
السلام اذا قرأ الزبور استمع اليه الانس والجن والوحش
والطير (٢) وتستخدم الكنائس المسيحية حتى الان الموسيقى
والغناء الدينى .

اما المسلمون فقد تغنوا بالقرآن منذ عهد الرسول
(ص) (٣) وتفرّدوا الصوفية دون الفقهاء باتخاذ السماع
كوسيلة لترقيق القلب وتهذيب النفس وتهيج الشوق والهباب
نار العشق لله تعالى والوصول الى الوجد والاتصال الروحى
بالله سبحانه وتعالى .

فالصوفية يتصورون ان الغناء يوجه النفس الى الخير
اذا كان ما بداخلها خيرا او الى الشر اذا كان ما بداخلها
شرا فهو يشير كوامن النفس كما ذكرنا سلفا ولما كانت
نفوس الصوفية وقلوبهم عامرة بحب الله خالية من حـب
الشهوات وكانت نفوسهم قد تخلّصت من الاخلاق الذميمة وتحلّت
بالاخلاق الكريمة وتحقّقوا بالكمال الاخلاقى فانهم عندمـا
يسمعون فانما يسمعون فى الله ولله ولذلك قيل ان النفوس

(١) انظر رسائل اخوان الصفا : رسالة فى الموسيقى ، ج ١ ، ص ١٥٤ ،
ص ١٥٥ .

(٢) الطوس ، اللمع ، ص ٢٦٨ .

(٣) يذهب د. زكى مبارك الى ان هناك من يرى ان فواتح السور
فى القرآن الكريم ما هى الا علامات موسيقية وقد شرح هذا

الناطقة اذا مفت من الشهوات الجسمانية وزهدت فى الملاذ الطبيعية وانجلت عنها الاصدااء الهيولانية ترنمت بالالحن الحزينة وتذكرت عالمها الروحانى الشريف العالى وتشوقت نحوه فاذا سمعت الطبيعة ذلك اللحن تعرفت النفس بزينتها اشكالها ورونت اصباغها (اى ان اللحن يرد على النفس فيشير ما تلونت به واصطبغت به من خصال حميدة او ذميمة فيشيرها فيها) كى تربها اليها فاحذروا من مكر الطبيعة أن تقعوا فى شباكها^(١) فكل نفس اذا سمعت من الاوصاف ما يشاكل معشوقاتها ومن النغمات ما يلائم محبوباتها فرحت وسرت والتذت بحب ما تصورت من رسوم معشوقها واعتقدت محبوبها .

ويحكى أن رجل من أهل الوجد من الصوفية سمع قارضا يقرأ " يايتها النفس المظمئة ارجعى الى ربك راضية مرضية^(٢) فاستعانها من القارئ مرارا وجعل يقول . كم اقول لها ارجعى فليس ترجع ، وتواجد وزعق ومعق معقة فخرجت روحه^(٣) .

وقد مدح الصوفية الصوت الحسن واعتبروه مخاطبات واشارات الى الحق وسر من اسرار الله اودعه كل طيب وطيبة .

ولا أدل على شغف الصوفية بالسماع واقبالهم عليه باعتباره وسيلة لترقيق القلب وحفز الهمم وبعث الشوق وتقوية العزائم من ان كتبهم تفيض بالحديث عن السماع وآدابهم ودرجات السامعين والوجد الذى يحدث للصوفية نتيجة للسماع

(١) اخوان الصفا ، رسالة فى الموسيقى ، ج ١ ، ص ١٧٩ .

(٢) سورة الفجر ، آية ٢٧ .

(٣) المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٨٠ .

وما يثمره فى قلوبهم من معرفة ذوقية وما حوته تلىك
المصنفات من اشعارهم التى عبروا فيها من مواجيدهم
واذواقهم واشواقهم وحبهم لله واحوالهم (١).

وقد اهتم الصوفية بعقد مجالس السماع التى يجتمعون
فيها ويسمعون ما ينشده القوال من قصائد والحن على
نغمات الموسيقى يتغنى فيها بصوت خاشع بالانغانى والتوشيح
الدينية التى تذكر السامعين بالجنة والنار وتزهدهم فى
الدنيا وتدعوهم للاقبال على الله والالتزام باوامره ونواهيهِ
وتذكر صفاته سبحانه وتعالى وتمتدح اخلاق الرسول وتدعوهم
للاقتداء به .

اما طريقة التغنى فى مجالس الصوفية فقد بينها
المرحوم الاستاذ الشيخ التفتازانى فى قوله (٢) ان الصوفية
درجوا منذ القدم على ان يبدأوا مجالس الذكر ب"لا اله الا
الله " وتعرف عندهم بالارضية ويأخذ "الرسم" الذى هو رئيس
المجلس فى التدرج بالذاكرين أثناءها من "الراست" وهو
"الرمذ" الى "الدوكة" الى "السيكاه" الى "الجهر كاه" او
"الجر كاه" الى "الحجاز" ثم "الرهاوى" فالكردى" فالبياتى
وهنا تبدو مقدرة الرئيس فى نقل الذاكرين من نغمة الى

(١) نظم الصوفية قصائد عديدة فنظموا فى الحب ومناجاة
الله واغراض عديدة تصور وجدانهم واحوالهم كرابعة
العدوية وابن الفارض والشبلى والحلاج وابوالحسن بن
الصياغ وغيرهم من الصوفية . انظر د . زكى مبارك - التصوف
الاسلامى فى الاداب والاخلاق فى حديثه عن المنظومات
الصوفية ، ص ٢٩٩ وما بعدها .

(٢) انظر مجلة المعرفة ، يونيه سنة ١٩٣١ ، او د . زكى
مبارك ، التصوف الاسلامى فى الاداب والاخلاق ، ص ٢٦٧ وما
بعدها .

نغمة . كما تبدو مقدرة المنشدين فى متابعتهم للانغام
والانشاد .

والغالب فى الانشاد على الارضية أن يكون من كلام
الصوفية مثل :

الهى توسلنا بجاه محمد
نبيك وهو السيد المتوافع
انلنا مع الاحباب رؤيتك التى
اليها قلوب الاولياء تسارع

... الخ ثم ينفرد الرئيس بعد الوصول الى نغمة
الرمد التى ينتهى عندها انشاد القصيدة بالاستغاثه " فيقول:
(أغثنا أدركنا يا رسول الله) . ثم يقول الموال من
نفس النغمة ، فالابيات التى ينشدها عند قيام المجلس من
نفس النغمة ايضا ينشدها على الارض مقطعة ، وعند قيام
الذاكرين يكرر الابيات بالطريقة المألوفة ثم ينفرد بعد
ذلك بالمقطعات والقصائد والرقائق وما اليها من كلام
الصوفية (١) .

وكثيرا من الاغانى الصوفية يستخدم فيها الرمز وفيها
ما يفصح عن اغراضهم ومنهم من يتواجد على سماع اشعار
تحمل معانى الغزل والهجر والوصال ويسقطها على معانى فى
نفسه باطنة تختلف تماما عن معانيها الظاهرة . فالصوفى
الحق يجد الله فى كل ما يسمع والصوفية فى حال وجدهم
يتمثلون بالاشعار والكلمات فينقلونها من الاغراض الحسية الى
الاغراض الروحية .

(١) انظر . مقالة المرحوم الشيخ التفتازانى فى مجلة المعرفة
عدد يونيه ١٩٣١ ، وانظر ايضا ، كتاب د . زكى مبارك ، التصوف
الاسلامى فى الاداب والاخلاق ، ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ .

وقد كان للصوفية الفضل الكبير على الشعر والموسيقى والغناء ، وقد تركوا الاثار الباقية التى تشهد بذلك والتى كان لها قيمة فنية وأدبية عظيمة . والصوفى انسان رقيق المشاعر جياش العواطف طاهر الروح نقى القلب يتمتع بالشفافية الروحية والحس المرفه فقد يثير وجدانه وامواطفه أصوات عادية لا يلتفت اليها الانسان العامى ونذكر من ذلك ما وقع لابي الحسن بن الصباغ الصوفى وقد مر وقت الضحى ببساتين قوص فسمع حمامة على شجرة تغرد بصوت شجى فاستمع ثم بكى ثم تواجد وأنشد قصيدة ثم بكى طويلا (١) .

ويرى د. زكى مبارك انه ليس من المبالغة ان نحكم بان الصوفية تفردوا بين أهل الادب والاخلاق بالتجويد فى الموسيقى والغناء فهم الذين نظروا فى ذلك نظرا فلسفيا وهم الذين جعلوا الموسيقى والغناء من المشاكل الخلقية وهم الذين صبروا انشاد الشعر فى المحافل العلنية بابا من الادب الرفيع (٢) .

والصوفية هم الذين سمعوا من النفس حديثها ومناجاتها وسمعوا من القلب المعارف الذوقية والعُلُوم الكشفية .

واصحاب الطرق الصوفية فى مصر لا يزالون حتى يومنا هذا يعتقدون مجالس الذكر والسماع وقد يستبج بعضهم ان ينشد الادوار الموسيقية بمذاهبها وورودها المعروفة على مجالس الذكر ولكن هذه الطريقة قاهرية محضة " اى فى القاهرة " ويكاد لا يتبعها الا رجال الطريقة " الليثية " اصحاب الفضل

(١) انظر. مقالة المرحوم الشيخ التفتازانى فى مجلة المعرفة عدد يونيه ١٩٣١، وانظر ايضا كتاب د. زكى مبارك ، الاصوف فى الاداب والاخلاق ، ص ٢٢٩ ، .

على هذا الفن واساتذته ومبرزيه وحملة الوتية فى القاهرة منذ اكثر من مائتى عام (١) .

ويذهب د. زكى مبارك الى أن الموفية اقبلوا على الغناء ولم يشترطوا الا حسن النية وشرف القصد وتفردت الطريقة " المولوية " باستجازه العزف على الآلات الموسيقية على اختلاف انواعها اثناء مجالس الذكر وكان لهذه الطريقة اشياخ فى الاقطار الفارسية والتركية وكان لهم فى مصر تكية فى حي السيوفية بالقاهرة وكان لهم حضرة اسبوعية يتشوف اليها المولعون بالموسيقا والغناء . وقد اغلقت الحكومة تلك التكية . ويضيف الدكتور زكى مبارك قوله ورأينا يوم اغلاقها جماعة من اهل الادب يعترضون فى الجراشد على حرمان الموسيقا من براعة اولئك القوم (٢) .

وقد تبينت أن الموفية الذين أجازوا السماع واباحوه كوسيلة لامطناع الوجد وترقيق القلب من خلال مصنفاتهم انهم مجمعون على كراهة اللهو فى السماع وادعاء الوجد واتيان الحركات الممطنعة والعبث اثناء السماع وانهم ينفون للسماع الشروط التى يجب الالتزام بها والتى تكفل له الجدية وتبعه عن اللهو والعبث .

بيد ان بعض مجالس الطرق الموفية الان لا تلتزم كثيرا بتلك الشروط التى وضعها اسلافهم من الموفية ويبدو هذا من ملاحظة ان مجالس الموفية كانت تنقلب احيانا الى مجالس فنية فهى تعقد ظاهرا لذكر الله ، ولكن الغرض منها الغناء

(١) انظر، مقالة المرحوم الاستاذ الشيخ التفتازانى بمجلة المعرفة

عدد يونيه ١٩٣١، وانظر ايضا د. زكى مبارك ، التصوف

الاسلامى فى الاداب والاخلاق ، ص ٢٦٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٦٦ ، ص ٢٦٧ .

ويذهب د. زكى مبارك الى انه كان فى حى الحسين منزل تقام فيه حفرة كل ليلة ثلاثاء وكان ذكر الله فى الصورة الشكلية يتولاه طائفة من العجزة (عجزة الدراويش) اما نظام المجلس فيقوم على فن الشيخ حسن الحويحى وكان منشدا حلو الصوت عذب الاداء وكان ينشد فى الحفرة ابياتا من شعر ابن الفارض مثل :

ما بين معترك الاحداق والمهج
انا القليل بلا اثم ولا حرج

ثم يندفع فيغنى " انست يا نور الوجود ، شرفست يا روح المهجة بعد البعاد انا قلبى عليك " او " الكمال فى الملاح صدف " الى آخر الاغانى الطريفة التى كانت تغنى فى الليالى الملاح .

ثم يضيف د. زكى مبارك انه كان يلاحظ ان اهل هذا المنزل يجعلون ليلة الحفرة ليلة قعف فيجمعون خلانهم حول المواعيد ويتندرون بأطيب الاحاديث . وكان المستمعون يقترحون " الادوار " على نحو ما كانوا يفعلون فى حفلات الطرب والانس . وقد اقترح بعضهم دور " حود من هنا وتعالى مندا " فغضب الشيخ الحويحى وقال نحن لسنا فى الازبكية^(١) وكان د. زكى يرى من شواهد الحال ان الازبكية ليست عنهم ببعيد^(٢)

واذا كنا اسلفنا القول ان العوفية ينقلون المعانى الحسية الى المعانى الروحية وانهم لا يحملون الالفاظ التى

(١) كانت تقيم المرحومة السيدة / ام كلثوم سيدة الغناء

العربى حفلات غنائية شهرية على مسرح حديقة الازبكية يتوافد اليها محبى الطرب من كل مكان .

(٢) د. زكى مبارك - التصوف الاسلامى فى الاداب والاخلاق

يسمعونها على معناها الظاهر وانما يسقطونها على معانى روحية باطنة فى نفوسهم فهذا لا يعنى ان يعقد الصوفية مجالس لمثل هذه النوعية من الغناء فهى على الاقل تبدو فى ظاهر الامر مجالس للانس واليهو وليس لذكر الله . وممن المؤكد أن مجالس الصوفية ليست كلها على هذا الحال فهناك مجالس تعقد للسمع يتلى فيها القرآن الكريم بالالحسان او القراءات المشروعة او تنشد فيها القصائد الدينية .

ويقال ان مجالس الذكر والسمع كانت مدرسة لتخريج المغنين ففيها ظهرت تباشير النبوغ لبعض المطربين مثل عبده الحمولى ومحمد عثمان وسلامة حجازى والمنيلوى وسيد درويش " وهم رواد الغناء والموسيقى فى مصر فى ذلك الوقت وان القرى المصرية بها مئات من قراء الموالد وهم فى الاصل من اتباع الصوفية " (١) .

والحق أنى اشك فى ان يكون قراء الموالد فى القرى المصرية من اتباع الصوفية فما يحدث فى تلك الموالد بعيد كل البعد عن الدين عموما وعن التصوف خصوصا . ولقد سمعت ورأيت ما يحدث ويقال فى تلك الموالد من غناء ان لم يكن بيسء الى الدين فهو لا يحسن اليه . فمن لا يعرف الكثير عن الاسلام من اصحاب الديانات الاخرى قد يخطئ الظن ويعتقد ان مثل تلك الاعمال والاقوال من الدين فى شيء نهيك عما يحدث فى احتفالات المولد النبوى فى هذا الشأن فى القرى المصرية .

ان ما يحدث فى تلك الموالد لا يفى بالغرض الذى اصطنع الصوفية من اجله السماع كرياضة عملية تذكرهم بامور الاخرة وتزهدهم فى الدنيا وتقربهم الى الله وترغبهم فى

(١) د . زكى مبارك - التصوف الاسلامى فى الاداب والاخلاق

الطاعات ومالح الاعمال وحميد الخصال وتهذب نفوسهم وتجلى
قلوبهم لتقبل الفيوضات الالهية والمعارف الذوقية . فقد ناء
بها اصحابها عن السماع الصوفى شكلا وموضوعا ولم يلتزموا
فيها بأدابه التى جعلها الصوفية حصنا يحمى السماع من
العبث واللهو .

هذا وقد حاول الصوفية تعليل أثر السماع فى وجدان
السامع ليوضحوا لماذا تنفعل النفس بسماع الالخان وتطرب
لها . وهذا ما سنتبينه معا فى عرض جانب من محاولات الصوفية
فى هذا المصدد .

(٤) ملحة طرب الارواح بالغناء والنفحات العذبة :

تطرب النفس لسماع النفحات العذبة والالحان الشجية
والعبارات البليغة المغناه يستوى في ذلك الكبار والمغار (١)
من الجنسين بل ان الحيوانات ايضا تطرب لسماع الالحان
الجميلة كما سبق ان اوضحنا وكلما كان الانسان مرهف
الاحساس رقيق العواطف كلما كان تأثره اقوى (٢) فلا عجب

(١) اكدت الابحاث العلمية التي قامت بها الجمعية العلمية
الملكية بانجلترا ان الجنين يطرب لصوت امه وهو
لا يزال في بطنها واذا انطربت الام لسماع غناء فان هذا
ينعكس عليه وذلك لان سماع الام للغناء ينعكس عليها
في صورة توازن هرموني كميائي مما يؤثر بدوره على
الجنين فيطرب . والطرب هو احساس عميق بالسعادة
والنشوة قد يبدو في صورة حركية كان يميل برأسه
وجسمه وهذا نراه عند الاطفال حين يطربون . جاء هذا
الرأى في دراسة نفسية حول طرب الجنين لصوت امه ونشر
بجريدة الاهرام العدد ٣٦٦٥٦ الصادر يوم ١٩/٤/١٩٨٧ .

(٢) لاحظ القدماء منذ عهد الفيشاغوريين في القرن السادس
ق.م الصلة الوثيقة بين الموسيقى والغناء والنفس البشرية
فكانوا يتخذون منها انواع للعلاج . واخرى للهو والطرب
وثالثة للحماسة والحرب ورابعة للايقاع والرقص وتكلم عنها
افلاطون في "الجمهورية" وارسطو في كتاب الشعر وتكلم كل
منهما على ما يحسن منها ويجب تعليمه . وما يقبح ويجب
استبعاده . كما استخدم الكندي الموسيقى العربية في العلاج
وكان يستخدم انواع خاصة من العزف يتيقظ المريض من
غشيته وقد حكى في كتابه "المصونات الوترية" تأثير الموسيقى
على الحيوان والانسان وصف النفحات المؤثرة الى ثلاثة الحان

ان يتأثر الصوفي اكثر من غيره بالسمع لاسيما انه يجد الله في كل ما يسمع حتى وان كان ما يسمعه جملة هادئة يتفوه بها انسان فانها تجد لها وقعا في نفسه ولذلك قال ابو عثمان المغربي: "من ادعى السماع ولم يسمع صوت الطيور وصرير الباب وتعفيق الرياح فهو فقير مدع" (١) ويقول الغزالي: "ان قرعت اسماعهم (اي الصوفية) نغمة سبقت الى المحبوب سرائرهم وان ورد عليهم صوت مزج او مقلق او مضرب او مخزن او مبهج او مشوق او مهيج لم يكن انزعاجهم الا اليه ولا طربهم الا به ولا قلقهم الا عليه ولا حزنهم الا فيه ولا شوقهم الا الى ما لديه ولا انبعاثهم الا له ولا ترددهم الا حواليه فمنه سماعهم واليه استماعهم فقد اقبلوا من غير ابصارهم واسماعهم اولئك الذين اصطفاهم الله لولايتهم واستخلصهم من بين اصفياؤه وخاصته" (٢).

والانسان المؤمن يجد عظمة صنع الله وابداعه في كل ما يرى من الاشياء الجميلة وكل ما يسمع من الاصوات الرخيمة ولحضوره مع الله دائما يتأثر ادراكه الحسى بذلك الحضور ولا شك ان الحالة النفسية للسامع المؤمن تؤثر في ادراكه الحسى لما يسمع من الاصوات (٣) او كما قال " السهروردي"

=== الطوبى وهو يلازم الله واللسناذاد والاقدامى وهو يناسب الشجاعة والنجدة والاقدام الشجوى ويناسب البكاء والحزن انظر مزيد من التفاصيل في كتاب د. احمد فؤاد الالهوانى ص ١٦١. الكندى فيلسوف العرب وكتاب الكندى (المصوتات الوترية).

(١) القشيري . الرسالة ، ج ٢ ، ص ٦٥٥ .

(٢) الغزالي ، احباء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٣٧ .

(٣) لا أدل على ذلك مما روى عن الامام على بن ابي طالب رضى الله عنه انه سمع صوت ناقوس فقال لاصحابه : " اتدرون ما يقول هذا ؟ " قالوا : لا . قال : " انه يقول سبحان الله حقاً ان المولى

" فللكمال جمال لا يدرك بالحواس ولا يستنبط بالقياس . وفي مطالعة ذلك الجمال اخذ طائفة من المحبين خموا يتجلسون الصفات . ولهم بحسب ذلك ذوق وشوق ووجد وسمع . والاولسون منحوا قسطا من تجلى الذات فكان وجدهم على قدر الوجود وسماعهم على حد الشهود" (١) .

ويقول " الغزالي" في ذلك ما نمه " سماع من احب الله وعشقه واشتاق الى لقاءه فلا ينظر الى شيء الا راه فيه سبحانه ولا يقرع سمعه قارع الا سمعه منه او فيه فالسماع في حقه مهيج لشوقه ومؤكد لعشقه وحبه ومور زناد قلبه . ومستخرج منه احوالا من المكاشفات والملاحظات لا يحيط الوصف بها" (٢) .

والتأثر بالسماع مجبول في فطرة الانسان والحيوان فله سر في مناسبة النغمات الموزونة للارواح حتى انها تؤثر فيها تأثيرا عجيبا حتى انه قيل من لم يحركه الربيع وازهاره والعود واوتاره فهو فاسد المزاج ليس له علاج فالطفل في مهده والجمال على بلادة حسه يتأثر بالنغمات ويضطرب لها دون ان يعيها او يفهم لها معنى ويكون ذلك دون سابق تعلم او اكتساب وهنا يبدو سؤالا هاما . لماذا تثير تلك النغمات والاصوات غير المفهومة انفعالات سامعها على الرغم من عدم ادراكهم لمفهومها ؟ ويقول الغزالي: " المعاني المفهومة من الخوف والحزن والسرور انما تحمل في السماع

== صمدا يبقى . وماروى عن عبدالرحمن السلمى انه دخل على عثمان المغربي وكان رجل يستقى الماء من بئر على بكرة فقال : " اتدرى ما تقول " قال لا . فقال تقول " الله - الله " انظر القشيري ، الرسالة ج ٢ ص ٦٥٥ .

(١) السهروردي . عوارف المعارف على هامش الاحياء للغزالي ج ٢ ص ٢٤٩ .

عن غناء مفهوم واما الاوتار وسائر النغمات التى ليست
مفهومة فانها تؤثر فى النفس تأثيرا عجيبا ولا يمكن التعبير
عن مجائب تلك الاوتار وقد يعبر عنها بالشوق ولكن شوق
لا يعرف صاحبه المشتاق اليه فهو عجب والذى اضرب قلبه
بسماع الاوتار او الشاهين او ما شابه ذلك ليس يدري الى
ماذا يشتاق ويجد فى نفسه حالة كأنها تتقاضى أمرا ليس
يدري ما هو حتى يقع ذلك للعوام" (١).

ويحاول الغزالي تحليل السبب الذى يجعل السامع
ينفعل بالانغماس فتجعله فى حالة شوق . والشوق فى رأيه
يكون له ركنان :

الركن الاول : صفة المشتاق وهو نوع المناسبة مع
المشتاق اليه .

والركن الثانى : معرفة المشتاق اليه ، ومعرفة صورة
الوصول اليه .

فان وجدت الصفة التى بها الشوق . ووجد العلم بصورة
المشتاق اليه كان الامر ظاهرا . وان لم يوجد العلم بالمشتاق
اليه ووجدت الصفة المشوقة، وحركت القلب الصفة واشتعلت
نارها اورث ذلك دهشة وحيرة لا محالة (٢).

ومعنى ذلك ان الشوق يكون بين المشتاق والمشتاق اليه
فاذا عرف المشتاق المشتاق اليه كان الامر واضحا لا غموض
فيه . اما اذا وجد المشتاق ووجد الشوق وحرك قلبه غير انه
لا يعرف الى ماذا يشتاق فان ذلك يؤدى الى الدهشة والحيرة
وذلك كمثلى من يسمع الالحان فيجد روحه مأخوذة بها ويغلب

(١) الغزالي : احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٩٢ .

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

عليها شوق جارف الا أنه لا يعرف الى من هذا الشوق. فالانسان لا يدري أن بين روحه وبين العالم الاعلى والذات التى وعد بها فى سدرة المنتهى والفراديس العلا نوع من المناسبة والملة غير انه لم يتخيل من هذه الامور الا الاسماء والصفات فالسمع يحرك فيه الشوق اليها بينما جهله' المفـسـسـرـط واشتغاله بالدنيا وانغماسه فى الامور المادية جعله ينسى نفسه وينسى ربه وينسى مستقره الذى يشاق اليه ويحن له بالطبع والفطرة فيشعر عند سماع النغمات بمشاعر لا يدري سببها فيندهش لذلك ويتحير ويفطرب ويكون فى حال لا يدرك حقيقتها ولا يمكن التعبير عنها . ويقول الغزالي فى ذلك: " فكذلك فى نفس الادمى مناسبة مع العالم الاعلى وللذات التى وعد بها فى سدرة المنتهى والفراديس العلا الا انه لم يتخيل من هذه الامور الا الصفات والاسماء ... فالسمع يحرك منه الشوق والجهل المفرط والاشتغال بالدنيا قد انساه نفسه وانساه ربه وانساه مستقره الذى اليه حنينه واشتياقهـهـ بالطبع فيتقاضاه قلبه . امر ليس يدري ما هو . فيندهش ويتحير ويفطرب ويكون كالمخنوق الذى لا يعرف طريق الخلاص فهذا وامثاله من الاحوال التى لا يدرك تمام حقائقها ولا يمكن للمتعف بها ان يعبر عنها (١) .

هذا هو تفسير الغزالي لسبب الوجد الذى تحدثه الالحان والاصوات الحسنة فى القلب . وهناك رأى آخر يقترب من رأى الغزالي يحاول تعليل هذا الامر للسهروردى اذ يقول: " مشار الوجد الروح او الروحانى فى حق المحق والمبطل ويكـوـن الوجد تارة من فهم المعانى يظهر ، وتارة من مجرد النغمات والالحان فما كان من قبيل المعانى تشارك النفس الروح فى السماع فى حق المبطل ويشارك القلب فى حق المحق. وما كان

(١) احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٩٢ .

من قبيل مجرد النغمات تتجرد الروح للسمع . ولكن فى حق
المبطل تسترق النفس السمع . وفى حق المحق يسترق القلب
السمع " (١) .

وعنده ان سبب استلذاذ الروح للنغمات ان العالم
الروحانى هو مجمع الحسن والجمال وان التناسب والتناسق
الموجود فى الاكوان بين الموجودات تناسبا وتناسقا محبوب
ومستحسن وقد خلق الله الالوان والاشكال والصور والاصوات
وجعلها جميعا متعة للروح فمتى سمع الروح النغمات اللذيذة
والالحان المنسجمة المتناسقة تأثر بها لان الروح تتوق اليها
بطبيعتها ويقول فى ذلك " وجه استلذاذ الروح للنغمات
العالم الروحانى مجمع الحسن والجمال ووجود التناسب
فى الاكوان مستحسن قولا وفعل ووجود التناسب فى الهياكل
والصور ميراث الروحانية فمتى سمع النغمات اللذيذة والالحان
المتناسبة تأثر بها لوجود الجنسية " (٢) اى ان الروح لها
بطبيعتها حب للجمال وشوق اليه والى النغمات المنسجمة
ولذلك تطرب عند سماعها .

ويحاول السهروردى تحليل طرب الروح عند سماع النغمات
بطريقة اخرى فيقول : " انما تستلذ الروح النغمات لان
النغمات بها نطق النفس مع الروح بالايمان الخفى اشارة
ورمزا بين المتعاشقين . وبين النفوس والارواح تعاشق اولى
ينزع ذلك الى انوثة النفس وذكرورة الروح . والميل والتعاشق
بين الذكر والانثى بالطبيعة واقع ، قال تعالى : " وجعل
منها زوجها ليسكن اليها " (٣) وفى قوله سبحانه " منها "

(١) عوارف المعارف بهامش احياء علوم الدين للغزالي ،

ج ٢ ، ص ٢٦٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٦٧ .

(٣) سورة الاعراف ، آية ١٨٩ .

فى أسرارهم ، كما كمن كون ذلك فى عقولهم ، فلما سمعوا
كوامن اسرارهم فانزعجوا ، كما ظهرت كوامن عقولهم عند
اخبار الحق لهم ذلك فصدقوا" (١) .

تلك محاولات من جانب الصوفية لتجليل الطــــرب
والانفعالات النفسية والوجد الذى يستشعره السامع فى نفسه
مند سماعه للالحن والاقوال المنظومة وجميعها كما هو واضح
اجتهادات غير مؤكدة والاجدر بنا ان نسلم مع من يرى منهم
أن ذلك سر من الاسرار الالهية ، قد يعجز الانسان عن تعليله .

وقد حاول الفلاسفة والحكماء ايضا تعليلا تأثر
الكائنات الحية بالموسيقى فقالوا : ان اصوات الموسيقى
ونغماتها وان كانت بسيطة ليس لها حروف معجم ، فان النفوس
اليها اشد ميلا ، ولها اسرع قبولا لمشاكله ما بينهما ، وذلك
ان النفوس ايضا جواهر بسيطة روحانية ، غير مركبة ، ونغمات
الموسيقى كذلك ، والاشياء الى اشكالها اميل (٢) .

وقالوا ايضا ان البارى جل ثناؤه لما ربط النفوس
الجزئية بالاجساد الحيوانية ، ركب فى جبلتها الشهوات
الحسية ، ومكنها من تناول اللذات الجرمانية فى ايام الصبا
ثم سلبها عنها فى ايام الشيخوخة وزهدها فيها كيما يدلها
على الملاذ، والسرور، والنعم التى فى عالمها الروحانى
ويرغبها فيها ، فاذا سمعت نغمات الموسيقى ، فتأملوا
اشاراتها نحو عالم النفوس (٣) .

-
- (١) الكلbazى : التعرف لمذهب اهل التصوف . تحقيقــــــــــــــــق
د. عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور .
(٢) اخوان الصفا - الرسالة الخامسة فى الموسيقى ، ص ١٧٦ .
(٣) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

وقالوا كذلك ان النفوس الناطقة اذا هفت عن الشهوات الجسمانية ، وزهدت في الملاذ الطبيعية ، وانجلت عنها الاممية الهيولانية ، ترنمت بالالحن الحزينة وتذكرت عالمها الروحاني الشريف العالى ، وتشوقت نحوه ، فاذا سمعت الطبيعة ذلك اللحن تعرفت للنفس بزينة اشكالها ورونق اصباغها كيما تردحا اليها (١) .

وغير ذلك من اقوال الحكماء محاولين تحليل او تعليل هذه الظاهرة .

واذا حاولنا ان نقف على تحليل العلم لتلك الظاهرة فاننا نجد بيشا Bichat (٢) قد عرف الحياة مموما بانها مجموعة الوظائف التى تقاوم الموت . معنى هذا ان ما يميز الكائن الحى هو النزوع ، ويتجلى هذا النزوع فى قابلية الكائن الحى للتهيج والتنبيه لمواجهة المهيج او المنبه والرد عليه .

وان هذه القابلية موجودة فى ادنى الكائنات الحية فى جسم الحيوان كله . ثم اخذت تتمايز وتنحصر فى مناطق معينة ، وذلك بترقى الجهاز العصبى فى السلسلة الحيوانية فتكونتالاتها الخاصة ، وهى النسيج العظلى والاعصاب الخاصة بالحركة ، والمشرفة علىردود الفعل العظلية ، من انقباض وانبساط ، وما يترتب عليها من اوضاع واتزان وتوجيه . ان فالتهيجية هى منشأ الانقباضية Contractility .

(١) اخوان الصفا ، الرسالة الخامسة فى الموسيقى ، ص ١٧٦ .

(٢) Xavier Bichat ، عالم فسيولوجى ومشرح فرنسى ولد سنة ١٧٧١ وتوفى سنة ١٨٠٢ عن احدى وثلاثين سنة وله كتاب " التشريح العام " وكتاب " البحوث الفسيولوجية فى الحياة والموت " انظر د . يوسف مراد ، مبادئ

والى جانب خاصية الانقباض نشأة خاصية التنبيه وكانت
هى ايضا فى بادىء الامر غير متميزة شائعة على سطح الجسم
بشكل حالة التماس، ثم اخذت تتمايز وتتخصص فتكونت الالتها
الخاصة، وهى أعصاب الحس وسائر الحواس التى تنتهى عند
نهاية أطراف هذه الأعصاب، وان الحس والحركة مرتبطان
ارتباطا وثيقا . ويمر التنبيه الحسى بعدة مراحل قبل ان
يتحول الى الحركة (١).

ولن اطيل الحديث فى التفاصيل، وانما اكتفى بالإشارة
الى المراحل الثلاث التى تتم فيها دراسة الاحساس او تأثير
السامع بصفة خاصة بما يسمعه من الموسيقى والغناء. وهذه
المراحل هى :

(١) مرحلة الشروط الفزيائية :

لا يؤثر المنبه الحسى (الموسيقى والغناء) الا اذا لمس
العضو الحاس (الاذن باجزائها المختلفة) ويكون هذا
التماس فى حالة السمع غير مباشر .

(٢) مرحلة الشروط الفسيولوجية :

وهى تنقسم الى ثلاث مراحل وهى :

(أ) انفعال العضو الحاس (الاذن) واستقبالها
للانغام والالحان وهى ما يسمى بالتنبيهات وتركيزها
ثم تحليلها وتفهم معانى المسموع .

(١) انظر د. يوسف مراد، مبادئ علم النفس العام، ص ٥٥ الى

ص ٦٨ لمعرفة مزيد من التفاصيل العلمية .

(ب) توصيل التنبيه بواسطة العصب المـورد،
وتختلف مدة انتقال التنبيه باختلاف الاعصاب ومـا
يعترض طريقها من تسهيلات او عقبات فسيولوجية . وهذا
يعنى ان هناك فروق فردية فى الاستجابة للسمـاع
بالنسبة للمستمعين من الناحية الفسيولوجية .

(ج) ان الاحساس او ادراك المحسوس او المسموع
من الالحان والنغمات وغيرها من الاصوات لا يتم الا فى
المراكز العصبية .

(٣) المرحلة النفسية :

وهى مصاحبة لانفعال المركز العصبى . وهى التـأثير
النفسى الذى يحدثه المنبه الخارجى وهو السماع . او هـى
بمـثابة تحول التنبيه الى احساس نفسى . وكما سبق القول
ان المنبه الخارجى او السماع لا يخلق احساس جديدة فـى
نفس السامع وانما هو فقط يثير الاحاسيس الكامنة^(١) .

ننتهى من ذلك الى ان النفس تطرب لسماع الالحان لان
الانسان كائن حى قابل للتهيج والتنبه . ما دامت تتوفر فيه
الشروط الفزيائية والنفسية والفسيولوجية اللازمة . فاذا
توفرت فى السامع ووجد المنبه وهو السماع او الموسيقى
والغناء والالحان الجميلة حدث الطرب والانفعال والوجد .

وهكذا نجد تحليل علماء النفس لظاهرة انفعال السامع
بما يسمع وهى تعف ما يحدث للكائن الحى عند السماع او ما
يحدث فى عملية السمع وليس تعليلا وتوضيحا لاسباب هـذا
الانفعال . ومن هنا يمكن القول ان الانسان وغيره من الكائنات
الحية تنفعل بالسماع انفعالات مختلفة وبدرجات متفاوتة

(١) انظر د. يوسف مراد . مبادئ علم النفس العام ، ص ٦٧ ،

وتطرب به ولا خلاف على ذلك وانما معرفة علة هذا الطرب فهي سر من اسرار الله وقد ذكرنا محاولات الصوفية والحكماء والعلماء لتعليل ذلك .

اما اختلاف درجات السامعين وتفاوت انفعالاتهم بالسمع فذلك ما سنتبينه عند تناول درجات السامعين ومقاماتهم .

(٥) مقامات السامعين في الفهم والوجد :

عرفنا ان الصوفية يطمنون السماع للوصول الى حالة من الاستعداد النفسى يشعر الانسان لحظتها ان قلبه معلق بالله وان روحه تميل الى الاتصال به تعالى وانه بكل كيانه وجميع جواحه ينجذب بحب وشوق الى الحضرة الالهية فيقشعر بدنه ويهتز لغلبة الشوق عليه وقد تصدر عنه صيحة او تفيض عينيه بالدموع ويغمر قلبه الوجد وتهيم روحه فى عالم الملكوت فيغنى عما حوله ويغنى عن نفسه ويبقى بالله .

فالسمع وسيلة لاستحضار الوجد والبقاء فى حالة نفسية خاصة تهيم على السامع بحسب حاله الخاص ودرجته ومقامه .

اذن حقيقة السماع هى تنبيه القلب على حقيقة المسموع وفى ذلك يقول الغزالي ما نعه : " فان القلوب والسرائر خزائن الاسرار ومعادن الجواهر ، وقد طويت فيها جواهرها كما طويت النار فى الحديد والحجر واختفيت كما اخفى الماء تحت التراب والمدر ، ولا سبيل الى استشارت خفاياها الا بقوادح السماع ولا منفذ للقلوب الا من دهاليز الاسماع فالنغمات الموزونة المستلذة تخرج ما فيها ، وتظهر محاسنها او مساوئها ، فلا يظهر من القلب عند التحريك الا ما يحويه كما لا يشرح الاناء الا بما فيه ... فالسمع للقلب محك صادق

ومعيار ناطق فلا تعمل نفس السالك اليه الا وقد تحرك فيه ما هو الغالب عليه" (١).

ولما كان السماع يظهر خفايا القلوب واسرارها - كما اتضح لنا - وكانت تلك الخفايا تختلف من قلب الى اخر - اختلفت درجات السماع تبعا لذلك وتباينت مقامات السامعين وللمستمع عامة اربعة احوال هى :

(١) مستمع يستلذ بالنغمات والاصوات بمجرد الطبع دون فهم المسموع ، وهذا مباح وان كان يعد من اخص مراتب السماع لان تلك الدرجة من السماع يشاركه فيه الحيوانات التى تطرب لسماع الاصوات العذبة والنغمات الموزونة دون ان تفهم ما يقال وهذا السماع من اللهو المباح لا ضرر فيه .

(٢) مستمع يستلذ ما يسمع ويفهم معانى الكلمات غير انه ينزله على ما تقتضيه شهواته واحواله وهذا النوع من السماع اقل درجة من سابقه لان صاحبه يسقط ما يسمع على ما حرم عليه مما يثير شهواته وهذا هو سماع الشبان او الشابات الذين ينزلون ما يسمعون على من لا يحل لهم فيشثيرون بذلك ما يكمن فى نفوسهم من الشهوة وهو محرم لانه قد يؤدى الى الوقوع فى المعصية .

(٣) مستمع يستلذ النغمة ويفهم العبارات وينزل ما يفهم على احواله فى معاملاته مع الله تعالى فمثلا اذا سمع شيئا من العتاب او القبول او الهجر او الوصل او القرب او البعد او غيرها فانه ينزله على احواله مع الله وهذا ما يسميه الصوفية " سماع بالحال " ويسمى صاحبه سامع بحاله .

(٤) مستمع بربه وهو يسمع فى حال الغناء من الله وهو اعلى درجات السماع والوجد وصاحبه لا ينزل ما يسمع على

احوال نفسه وانما يكون غافلا عن نفسه واحوالها وغافلا
مما يقال وما يقابل الله يأخذ منه ما يفيضه على قلبه من
المعرفة الذوقية .

وقد جعل الغزالي اول درجات السماع فهم المسموع
وتنزله على معنى يقع للمستمع ثم يثمر الفهم الوجد ويثمر
الوجد الحركة بالجوارح وسنتبين ذلك بشئ من التفصيل .

(١) الفهم :

ويقصد به فهم معانى المسموع وادراك المستمع له
والفهم له الاهمية الاولى فى اثمار السماع وهو يختلف
باختلاف احوال السامعين النفسية ودرجة قربهم من الله
ويرى امامنا ان للسامع احوال اربعة تؤثر على مدى ادراكه
العقلى لما يسمع وهى :

- ان يكون السماع بمجرد الطبع .
- ان يفهم معانى المسموع وينزله على صورة انسان .
- واما ان تنزل السماع ما يسمعه على احوال نفسه
فى معاملته لله .
- سماع من جاوز الاحوال والمقامات وفنى عن نفسه
وبقى بالله .

وسنتحدث عن كل حال من هذه الاحوال كما تبينها
عند الغزالى .

(١) سماع بمجرد الطبع بحيث ان السامع لا يكون له
حظ فى السماع الا ان يطرب للالحان ويتلذذ بالانغام ويستمتع
بالاصوات الحسنة . وهذا السماع وان كان مباح لا حرمة فيه
الا انه اقل درجات السماع لان المستمع فى هذه المرتبة
يتساوى مع الحيوانات التى تطرب لسماع النغمات وتستلذها

دون ان تتأثر بمعانيها وتدرك مراميها ويقول الغزالي فى ذلك: " سماع بمجرد الطبع اى لا حظ له فى السماع الاستلذاذ الالخان والنفحات وهذا مباح وهو أخس رتب السماع اذ الابل شريكة له فيه وكذا سائر البهائم بل لا يستدعى هذا الذوق الا الحياة فلكل حيوان نوع تلذذ بالاصوات الطيبة" (١).

ومثال هذا النوع من المستمعين . كمن يسمع اغنيات بلغات اجنبية لا يعرفها ويضطرب لسماعها .

(٢) واما ان يكون السامع فاهما لمعانى المسموع ولكنه ينزل ما يسمع على صورة انسان اى يتخيل اثناء سماعه وتفهمه لمعانى المسموع صورة انسان وينزل ما يفهم من معنى عليه سواء كان هذا الانسان معروفا له او غير معروفه.

وهذا السماع يكون للشباب الواقع تحت تأثير الشهوات وهم ينزلون ما يسمعون على حسب شهواتهم واغراضهم ويسرى امامنا ان هذه الحالة اخس من ان يتكلم فيها الا ببيان خستها والنهى عنها (٢).

(٣) واما ان ينزل السامع ما يسمعه على احوال نفسه فى معاملته لله تعالى وتقلب احواله فى التمكن مرة وفى التعذر مرة اخرى فيكون هذا سماع المريدين المبتدئين فان للمريد مقعودا هو معرفة الله تعالى والتقرب اليه . ولتحقيق هذه الغاية السامية يسلك طريق المجاهدات والرياضات العملية والروحانية .

(١) احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٨٥ .

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

ويتحقق بمقامات الصوفية واحوالهم . فاذا سمع الغناء الذى يتحدث عن الشوق ، او الوحشة ، او الانس أو الوفاء ، او القرب او البعد ، او قرب الوصال ، او غير ذلك مما تمفه الاشعار من الاحوال التى تجد لها صدا قويا فى نفسه وتبعث فيه الشوق والوجد وتكون كالحمدح الذى يشعل نيران قلبه وتجعله يشعر باحوال مخالفة لحواله العادية وهذا المقام من السماع يسمى " السماع بالحال " .

ويذهب الغزالي الى ان المرید فى سماعه للقصائد اى كانت عباراتها ينزل الالفاظ على احواله بصرف النظر عن مراد الشاعر من هذه الالفاظ فهو يفهم معانى هذه الاقوال حسب احواله الخاصة التى تكون مخالفة لما لها من مفاهيم ظاهرة فاذا سمع ابیات فيها ذكر الخد والغم والصدغ فانه لا يدرك منها معانيها الظاهرة بل يفهم منها معانى خاصة تتفق واحواله التى يستشعرها فى لحظة السماع ويضرب الغزالي امثله على ذلك بقوله : " حكى ان بعضهم سمع قائلا يقول :

قال الرسول غدا نزو ر فقلت تعقل ما يقول

فاستفذه اللحن والقول وتواجد وجعل يكرر ذلك حتى غشى عليه من شدة الفرح واللذة فلما افاق سئل عن سبب وجده مم كان ؟ فقال : تذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم " ان اهل الجنة يزورون ربهم فى كل جمعة مرة " (١) .

(١) انظر الاحياء ج ٢ ، ص ٢٨٥ - وانظر حديث ان اهل الجنة يزورون ربهم كل جمعة ، رواه الترمذى وابن بـاجه من حديث ابى هريرة وقال عبد الحميد بن حبيب بن ابى العشرين انه مختلف فيه ، انظر المرجع السابق نفس الصفحة .

ويروى امامنا ايضاً ما حكى عن ابن الدارج انه قال
 " كنت ماراً انا وابن الفوطى على دجلة بين البصرة والاييلة
 فاذ بقصر حسن له منظره وعليه رجل بين يديه جارية تغنى
 وتقول :

كل يوم تتلون غير هذا بك أحسن

فاذا شاب حسن تحت المنظره وبيده ركوه وعليه مرفعة
 يستمع وطلب من الجارية ان تعيد عليه هذا البيت فاعادته
 فقال الشاب : هذا والله تلونى ، مع الحق فى حالى. فشهِق
 شهقة ومات" (١).

ويعول الغزالي على اهمية معرفة صفات الله معرفة
 تامة لمن ينزل سماعه على الله تعالى حتى لا يخطر بباله
 ما يستحيل على الله ويكون ذلك سبباً لكفره ويقول امامنا
 فى ذلك " ومن كان سماعه من الله تعالى وعلى الله وفيه
 ينبغى ان يكون قد احكم قانون العلم فى معرفة الله ومعرفة
 صفاته وإلا خطر له من السماع فى حق الله تعالى ما يستحيل
 عليه ويكفر به " (٢)، ومن هنا كان سماع المريد المبتدئ
 فى نظر شيخنا خطر وخطاً لعدم المامه التام بصفات الله
 ومعرفة هذه الصفات حق المعرفة الا اذا انزل ما يسمع على
 حاله دون ان يتعلق ذلك بوصف الله سبحانه وتعالى ويقول
 شيخنا لتوضيح ذلك " والخطأ فيه (اى فى سماع المبتدئ)
 هذا البيت بعينه (٣) فلو سمعه فى نفسه وهو يخاطب به ربه
 عز وجل فيضيف التلون الى الله تعالى فيكفر وهذا قد يقع
 من جهل . فالحق سبحانه وتعالى يلون ولا يتلون" (٤).

(١) الاحياء ، ج ٢ ، ص ٢٨٥ .

(٢) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٨٦ .

(٣) البيت هو - كل يوم تتلون غير هذا بك أحسن

(٤) ...

وحقيقة الخطر الذى قد يحدث للمبتدئ من انزاله ما يسمع على الله تعالى مع جهله بصفاته عز وجل هو مخالفته التأدب مع الله بسره . ولذلك قيل لا يقوى عليه الا العلماء الراسخون فى العلم ، بل ان الغزالى يذهب الى ان خطر هذا النوع من السماع قد يزيد على خطر السماع المحرك للشهوة لان هذا الاخير يودى الى المعصية اما سماع المريد المبتدئ عن جهل وانزاله ما يسمع على صفات الله دون معرفة ذوقيه بها فذلك يودى الى الكفر وهو اخطرواظم من المعصية ويقول الغزالى " ولذلك قال بعضهم ليتنا نجونا من هذا السماع رأسا يراس فى هذا الفن من السماع خطر يزيد على خطر السماع المحرك للشهوة فان غاية ذلك معصية . وغاية الخطأ هنا كفر" (١) .

ولابن الجوزى البغدادى رأى خاص فى القول بانكار السماع على المريد المبتدئ حيث يقول " وقد كان جماعة من قدماء الصوفية ينكرون على المبتدئ السماع لعلمهم بما يثير من قلبه ... قال الجنيد اذا رأيت المريد يسمع فاعلم ان فيه بقايا من اللعب ... وقال ابوالحسن النورى اذا رأيت المريد يسمع القصائد ويميل الى الرفاهيه فلا ترج خيره ، هذا قول مشايخ القوم وانما ترخص المتأخرون حب اللهو فتعدى شرمهم من وجهين : احدهما : سوء ظن العوام بقدمائهم لانهم يظنون ان الكل كانوا هكذا . والثانى : انهم جروا العوام على اللعب . فليس للعامة حجة فى لعبه الا انه يقول فلان يفعل كذا" (٢) فهو يستشهد باقوال كبار الصوفية الاوائل على ان الصوفى العادق الحال لا يحفل بالسماع ولا يطلبه .

(١) الاحياء ، ج ٢ ، ص ٢٨٦ .

(٢) تلبيس ابليس ، ص ٢٤٧ .

وما قاله الغزالي عن السماع بالحال يشبه ما قاله أبو نصر السراج الطوسي وما نصه " ان الذي يسمع بحالـه يتأمل اذا سمع ، حتى يبرد عليه معنى من ذكر متـباب او خطاب ، او ذكر وصل ، او هجر ، او قرب ، او بعد ، او تأسف على فائت ، او تعطش الى ما هو آت ، او ذكر طبع ، او بأس او بسط ، او استغناس ، او خوف الافتراق ، او وفاء بعهد ، او تصديق بوعـد او نقض للعهد ، او ذكر قلق ، او اشتيـاق او فرح الاتصال ، او ترح الانفصال ، او التحسر على ما لم ينل ، او القنوط على الذي آمل ، او ذكر صفاء المحبـة او التمكن في المودة ، او ذكر اعتراض الصبوة بعـد تمكنه من الخطوة ، او ذكر محافظة الرقيب عند ملاحظة الحبيب او تباريح الشجون وفنون الفتون ، فاذا طرق سمعه مـن ذلك حال مما يوافق حاله فيكون كالقدح يقدح في سره على قدر قوة ارادته فيعجز عن الضبط "(١).

(٤) اما الدرجة الرابعة فهي أعلى المقامات وهي السماع بالحق ومن الحق ، لا يلتفت صاحبها الى الاحـوال السابقة . وعندما يسمع يغنى عن بشريته وعن حظوظ نفسه واحوالها فهو لا يلتفت اليها وان كانت احوال شريفة الا انها ممزوجة بحظوظ البشرية فالسماع بالحق يكون سماع اصاحبه بالله ولله ومن الله والى الله . فهم قد تجاوزوا احوال النفس . وعبروا الى الحقائق وفنوا في الافعال والاقوال ووصلوا الى محض الاخلاص وصفاء التوحيد فخدمت بشريتهم وفنيت حظوظهم ، وبقيت حقوقهم ، فشهدوا موارد الحق بلا علة ولا حظ للبشرية ، واطلعتهم تلك الموارد على اسرار حكيمته وأرتهم اثار قدرته وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء"(٢).

(١) أبو نصر السراج الطوسي ، اللمع ، ص ٢٧٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٨٨ .

يقول الغزالي عن هذا المقام " سماع من جاوز
الاحوال والمقامات فعزب عن فهم ما سوى الله تعالى حتى
عزب عن نفسه واحوالها ومعاملاتها وكان كالمدهووش الفائص
فى بحر عين الشهود الذى يفاهى حالة حال النسوة اللاتى
قطعن ايديهن فى مشاهدة جمال يوسف عليه السلام حتى دهشن
وسقط احساسهن (١) .

وفى هذه الحالة يكون السامع قد فنى عما حوله
وفنى عن نفسه وبقى بالله الواحد لا يشهد الا هو .

ومن وصل الى هذا الحال فان قلبه اذا فنى عما حوله
التفت الى نفسه واذا فنى عن نفسه وشاهد الحق التفت الى
الشهود والى نفسه بانه مشاهد وهنا يكون قد غفل عن الشهود
لانه فى حال استغراقه فى الشهود يجب الا يلتفت الى
شهوده ولا الى رؤيته ولا الى عينه التى بها رؤيته ولا الى
قلبه الذى به لذته فالسكران لا خبر له من سكره والمتلذذ
لا خبر له من التذاذه وانما خيره من المستلذذ به فقط كما
يقول امامنا " (٢) .

ويستشهد الغزالي بما حدث للمعوفى ابي الحسن النورى
عندما سمع فى مجلس السماع هذا البيت :

مازلت أنزل من ودادك منزلا

تتحير الالباب عند نزوله

فقام وتواجد وهام على وجهه فوق فى حقل تصب قد
قطع وبقيت فى الارض جذوره مثل السيوف فصار يعدو فيها

(١) احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٨٨ .

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

ويردد البيت الى الغداة والدم يسيل من رجليه حتى
تورمت قدماه وساقاه وعاش بعدها ايام ومات (١).

ويرى الغزالي ان هذه درجة الصديقين في الفهم
والوجد وهي عنده اعلى الدرجات لان السماع ينزل فيها
على الاحوال الشريفة والدرجات الكاملة فيغنى صاحبها
بالكلية عن نفسه ويغنى عن احواله فلا يكون له التفات
اليها فيسمع بالله ولله وفي الله ومن الله . ويقول
الشيخ في ذلك " وهذه رتبة من خاض لجة الحقائق وعبر
ساحل الاحوال والاعمال واتحد بصفاء التوحيد وتحقق بمحض
الاخلاص فلم يبق فيه منه شيء اعلا بل جمعت بالكلية
بشريته وفنى التفاته الى صفات البشرية رأساً . وليست
اعنى بفناءه فناء جسده بل فناء قلبه ولست اعنى بالقلب
اللحم والدم بل سر لطيفه الى القلب الظاهر نسبة خفية
وراءها سر الروح الذي هو من امر الله " (٢).

وهذه الاثار القلبية والمشاعر الداخلية الناجمة
عن السماع يعرفها اصحابها الذين عاشوها وتذوقوها
ويجهلها من لم يخوض التجربة فلا يعرف حلاوة العسل الا
من ذاق ولذلك يقول الغزالي " عرفها من عرفها وجعلها
من جهلها " (٣).

ويصور السهروردي البغدادي درجات السامعين وتفاوت
هذه الدرجات قائلا " وقد مثل بعض الحكماء تفاوت الناس

(١) احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٨٨ .

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٣) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

فى الاستماع وقال : ان البائر خرج ببذره فملاء منه كفه فوق منه شئ على ظهر الطريق فلم يلبث ان انحط عليه الطير فاخطفه ، ووقع منه شئ على الصفوان وهو الحجر الاملس عليه تراب يسير وندى قليل فنبت حتى اذا وصلت عروقه الى الصفاء لم تجد مساعا تنفذ فيه فيبس ، ووقع منه شئ فى ارض طيبة فيها شوك نابت فنبت فلما ارتفع خنقه الشوك فافسده واختلط به ، ووقع منه شئ فى ارض طيبة ليست على ظهر الطريق ولا على الصفوان ولا فيها شوك فنبت ونما واصلح" (١) .

ويرى السهروردى ان مثال البادر مثال الحكيم ومثل البذر كمثال صواب الكلام ومثل ما وقع على ظهر الطريق مثل الرجل يسمع الكلام وهو لا يريد ان يسمعه فما يلبث الشيطان ان يخطفه من قلبه فينساه ، ومثل الذى وقع على الصفوان مثل الرجل يستمع الكلام فيستحسنه ثم تمضى الكلمة الى قلبه ليس قلبه عزم فينسخ من قلبه ومثل الذى وقع فى ارض طيبة فيها شوك مثل الرجل يسمع الكلام وهو ينوى ان يعمل به فاذا اعترضت له الشهوات قيده عن النهوض بالعمل فيترك ما نوى عمله لغلبة الشهوة ، ومثل الذى وقع فى ارض طيبة مثل المستمع الذى ينوى عمل ما يفهمه ويعمل به ويجانب هواه . وهذا الذى جانب الهوى هو الصوفى" (٢) .

ومن الصوفية الذين تحدثوا عن مقامات السامعين محي الدين بن عربى الذى ذهب الى ان للسمع حالات ثلاث هي :

(١) عوارف المعارف على هامش احياء علوم الدين للغزالي ،

ج ١ ، ص ٢٤٣ .

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

الحال الأول :

ان الانسان " السامع " اذا كان صاحب صدق فانه اذا ورد عليه شيئا والقى اليه فاشتعل الروح ومعه تتحد الجوارح وينحرف الطبع ويتغير المزاج فان الجسم اشتغل منه حافظ بما يلقي اليه . فاذا انصرف عنه النور الملكى سرى عنه . وقد عرق جبينه واحمر وجهه وقام كأنه نشط من عقله وهى المحادثة ولاولياء الله فى هذا شرب شهى ويقول : " متى اشتد الحال على الانسان وغاب وجود الحس فان حصل له فى تلك الغيبة علم بعقله هناك . ويعقله اذا رجع الى حسه (اى علم بعقله فى حال الغيبة والفناء وفى حال الصحو والبقاء) ويعبر عنه على قدر ما اعطاه تعالى من العبارة فذلك هو الحال الالهى ويمتلئ القلب عند الافاقة سرورا وربما عرقه ابرده فذلك حال صحيح" (١) .

وهذا يعنى ان السامع الصادق الحال اذا تواجد حتى فنى عن نفسه ووردت عليه الواردات والمعارف الالهية وعقلها فى حال الغيبة والفناء وظل عاقلا لها فى حال الصحو والبقاء واستطاع ان يعبر عن تلك المعارف على قدر ما اعطاه الله من العبارة فان حاله يكون حال صحيح وهو يشعر عند صحوته وافاقته بسعادة لا متناهية فقد كان سماعه من الله فهو سامع بربه .

(١) محي الدين بن عربى : شمس الطريقة فى بيان الشريعة والحقيقة مخطوط بالمكتبة الازهرية يحمل رقم (١٢٧٢ خاص ٤٣٠١٠ عام) آداب شرعية ل ٢٤ و .

والحال الثانى :

إذا غاب السامع وفنى من نفسه ثم عاد الى البقاء بعد الفناء دون ان ينعم بمعرفة ذوقيه من لدن الله فذلك حال من حمى قلبه بالذكر واسقط ما سمعه على احواله الشريفه حتى تواجد وفنى عن نفسه ولكنه لم يجنى ثمرة الاتعال وهو حال صحيح ومقام شريف وهو اقل مرتبة من المقام السابق يقول عنه ابن عربى ما نعه : " وان غيب ثم رد ولم يجد شئ الا انه اخذ عنه لقبه . قبض عليه لم يتم له فائدة . ولكن غاب عن حسه فهذا حال من المزاج لما حمى القلب بالذكر او بالتخيل معد منه البخار من التجويف الكبير الى الدماغ فحجب العقل ومنع الروح الحيوانى ورمى به صاحبه كالمصروع . فهذا حال صحيح ولكن من المزاج . ليس فيه فائدة . ولهذا اذا سألته . يقول : رأيت كانى كسيت برنسا أسود وسحابة مرت على عيني فعميت وهو ذلك البخار الذى ذكرناه " (١) .

أما الحال الثالث :

فهو حال المدعى للطريق الذى يجلس فى مجلس السماع وهو ينكره يسخر منه الشيطان فيوسوس له ويتصور ان ما يلقيه اليه علوم ومعارف وهى سموم ووساوس فلا يعول على ما يقول فى تلك الحالة حتى ولو صادف الصحة فيما يقول لانه جاهل بالطريق ولا يمكنه التفرقة بين الحق والباطل ويقول فى شأن صاحب هذا الحال : " الكذاب الذى يعقل أهل

(١) محيى الدين بن عربى : شمس الطريقة فى بيان الشريعة والحقيقة . مخطوط بالمكتبة الازهرية تحت رقم ١٢٧٢ (خاص - ٤٣٠١٠ عام) آداب شرعية ل ٢٤ ظ .

مجلسه فى السماع وفى حال خلوته ينكره فهذا صاحب وسوسه وحديث نفس وقد سخر به الشيطان . فكلما يلقي اليه يتخيل انها علوم وهى سموم فلا يعول على كل ما يخاطب به فى هذه الحالة ولو صادف الصحة فيها . فعلم ان هــ المسألة اهل عظيم عند السادة الصوفية نفعا الله بهم فلا يعول على ما يخاطب به هذا الجاهل بطريق الحق فانه لا يحسن يفرق بين الحق والباطل " (١) .

وصاحب هذا الحال الذى هو ادنى الاحوال والدرجات لانه خضع لوساوس الشيطان يقول عنه انه على احدا وجهين :

اما ان يغيبه الشيطان عن نفسه ويكون كالمـروع ولكن لا يلقي اليه شئ لانه لا يقوى على الاخذ عنه .

واما ان بغيبة ويلقى اليه ويكون فى باطنه حراره واستعداد للمخاطبة فيوسوس له ولو علم هذا الجاهل ان مخاطبة الحق لا تدرك احساسا وليست بالوهم ولا بالتخيل ولا بالاستعداد ولا بالانتظار ولا بخاطر الباطل ولا ببقاء الحـلـلـرجـع جهله .

وينصح ابن عربى السامع فى هذا الحال بالرجوع الى شيخه يرشده ويوجهه كما ينصحـه الا يقبل من الالقاء ان اراد الصحيح الا ما حمل له فى حال الفناء الكلى عن نفسه وحسه من غير تمثيل ولا حس سوى مجرد الفهم بما يكون منه وان سر

(١) محيى الدين بن عربى : شمس الطريقة فى بيان الشريعة والحقيقة ، مخطوط بالمكتبة الازهرية تحت رقم ١٢٧٢ خاص - ٤٣٠١٠ عام (آداب شرعية ل ٢٤ ط

(٢) المرجع السابق ، نفس اللوحة .

المشاهدة للبهت ، وسر الكشف للعلم وسر البقاء للادب وسر
الفناء للتوحيد ، وسر القبض للافتقار ، وسر البسط
للسؤال " (١) .

وقال ابونصر السراج الطوسي : أهل السماع على
ثلاث طبقات :

- قوم يرجعون في سماعهم الى مخاطبات الحق لهم
فيما يسمعون وهؤلاء في اعلى الدرجات وهم اصحاب السماع
الرباني .

- وقوم يرجعون فيما يسمعون الى مخاطبات
احوالهم ومقامهم واورقاتهم فهم مرتبطون بالعلم ومطالبون
بالصدق فيما يشيرون لله من ذلك وهذا هو السماع بالحال .

- وقوم هم الفقراء المجردون الذين قطعوا
العلائق ولم تتلوث قلوبهم بمحبة الدنيا والجمع والمنع
فهم يسمعون لطيفة قلوبهم فهم اقرب الناس الى السلامة
واسلمهم من الفتنة لطيب قلوبهم . وهؤلاء هم السامعون
المؤمنون الذي يثير فيهم سماع الالحان والانشاد الديني
هبة وخشوع ويرقق قلوبهم غير انهم لا ينزلون ما يسمعون
على احوالهم مع الله وانما يزيدهم السماع قربا من الله
وعشقا وشوقا واصحاب هذا المقام اقرب الناس الى السلامة
وابعدهم عن الفتنة وان كانت درجاتهم اقل من السابقين
وهو ما يسميه الصوفية سماع بالعقل . ثم يقول " كل قلب

(١) محيي الدين بن عربي : شمس الطريقة في بيان الشريعة

والحقيقة . مخطوط بالمكتبة الازهرية تحت رقم

(١٢٧٢ خاص - ٤٣٠١٠ عام) آداب شرعية ل ٢٤ ظ .

(٦)

ملوث بحث الدنيا فسماعه سماع طبع وتكلف" (١) وهؤلاء هم
اللاهون وتلو شغلهم بحب الدنيا فسماعهم سماع طبع وتكلف.

وقال الشيخ ابوبكر الكنانى " سماع العوام متابعة
الطبع " اى ان العوام يسمعون الغناء بما يوافق طبعهم
وهو اهم وحبهم للهو والمتعة والاستلذاذ . اما سماع
المريدين فقال عنه " سماع المريدين رغبة ورهبة وسماع
الاولياء رؤية الالاء والنعماء وسماع العارفين على المشاهدة
وسماع اهل الحقيقة على الكشف والعيان " ولكل واحد من
هؤلاء مصدر ومقام (٢).

وذهب الامام السيد احمد الرفاعى الى ان القوم
سمعوا وطابوا ولكنهم سمعوا احسن القول فاتبعوه وسمعوا
غير الحسن فاجتنبوه وانهم تحلقوا وفتحوا مجالس الذكر
وتواجدوا وطابت نفوسهم ومهدت ارواحهم . لاحت عليهم
بوارق الاخلاص حالة ذكرهم وسماعهم ترى ادهم كالفائض على
حال الحاضر . كالحاضر على حال الفائض يهتزون اهتزاز-
الاعيان التى تحركت بالوارد لا بنفسها . ويقولون لا اله
الا الله " ولا تشتغل قلوبهم بسواه ، يقولون " الله
ولا يعبدون الا اياه . يقولون " هو " وبه لا غيره يتباهون (٣)

ويقول فى درجات السامعين الذاكر سمع الحادى
يذكر اللقاء فطاب بطلب لقاء ربه . من احب لقاء الله

(١) انظر السهروردى . عوارف المعارف على هامش الاحياء للفسز الى

ج ٢ ، ص ٢٥٢ .

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٣) انظر الطوسى : اللمع ، ص ٢٧٩ .

احب الله لقاءه . سمع الحادى يذكر الفراق فتأهب للموت
وتفرغ من حب الدنيا . حب الدنيا رأس كل خطية . سميع
الحادى يذكر الصالحين فتقرب بحب احباب الله الى الله (١)
وهذا هو السماع بالحال الذى يسقط فيه السماع ما يسمع
على احوال نفسه وفق ما يكمن فى قلبه وقد انشد فى
ذلك قوله (٢) :

غنى بهم حادى الاحبة فى الدجى
فأطار منهم أنفسا وقلوبا
فأراد مقطوع الجناح بثينه
وهم أرادوا الواحدالمطلوب

اما عن السامعين بربهم فيقول عنهم " طاروا بأجنحة
الارواح فسارت بهم ودنت فتدلته .. خلصوا فتخلصوا من
قيد الرقية ووصلوا الى مقام الحرية ما ملكتهم الاغيار
كلا بل هم الاحرار (٣) . وهذا يعنى ان هؤلاء هاموا فى حب
الله وفنوا فيه فكان سماعهم منه بعد ان تخلت ارواحهم
من قيود الاحوال والاقوال فصعدت ارواحهم الى مقام الحرية
ولم يعد يؤثر فيهم قول القوال وانما هم فى هذا المقام
تحرروا عن انفسهم وفنوا عما حولهم وبقوا بالله يأخذون
عنه ويسمعون منه .. وهذه اعلى درجات السماع فهؤلاء هم
العارفون بالله تعالى فى الازل المتحابون فيه الذاكرون له
المهيمون به عن غيره فسمعوا بلا رسم ولا صفه .

(١) ابوالبركات ، روض الاسماع فى احكام الذكر والسماع ، ص ٧١ .

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٣) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

أما الذين يدعون السماع والوجد فيقول فيهم احمد
الرفاعي : " السماع الذى يرقص فيه الراقص بغير قلب
ونجاسة النفس لطخته كيف يحسب برقصه ونقصه من الذاكرين
... لله ملائكة جرد مرد تحت العرش يرقصون ويذكرونه تعالى
وتعتزون لذكره . هذه ارواح رقصت بالله ولله وانت يـا
مسكين ترقص بنفسك لنفسك اولئك الذاكرون وانت المغبون
المفتون . سمي القوم الهز بالذكر رقصا اذا كان راردا
الهز من الروح فنسبوا الرقص للروح لا للجسم والا فايـن
الراقصون واين الذاكرون طلب هؤلاء حق وطلب هؤلاء ضلال
... شتان بين مشرق ومغرب الراقصون كذابون ، والذاكرون
مذكرون وبين الملعون والمحبوب بون عظم" (١) .

فكل سامع يسمع بما يوافق طبعه وحاله ويفهم من
السماع ما تنتهى اليه همته وعلى قدر العزم تأتى العزائم

كما قسم عبدالوهاب الشعرانى الصوفى المسمى
(٨٩٨ هـ - ١٤٩٠ م / ٩٧٣ هـ - ١٥٦٥ م) درجات السماع الى
ثلاث درجات سامع بنفسه وسامع بعقله وسامع بربه .

والسامع بنفسه يتأثر بالانغمات الطيبة والاموات
الحسنة وعندما يسمعها يتحرك لقلبه الحال حتى يمل الى
الفناء وماحب النفس لا يأتى بعد الحركة والفناء بعلم
فسماع النفس ليس فيه علم .

وسامع بعقله لا تصدر عنه حركة اثناء السماع وتكون
علامته البهت وخمود البشرية .

(١) السيد محمد ابوالهدى المكنى بابى البركات . روض الاسماع

وسامع بربه فى اعلى الدرجات لا تصدر منه حركة
ويستلقى على الارض ويفنى فى الله ويفيض عليه ربه العلم
والمعرفة الوهبية (١).

وقد سبق الشعرانى الى هذا التقسيم لمقامات السماع
ابن القيم الجوزيه حيث قال : " وأصحاب السماع منهم من
يسمع بطبعه ونفسه وهواه ، فهذا حظه من مسموعه ما وافق
طبعه ومنهم من يسمع بحاله وايمانه ومعرفته وعقله فهذا
يفتح له من المسموع بحسب استعداده وقوته ومادته ، ومنهم
من يسمع بالله لا يسمع بغيره كما فى الحديث الالهى
الصحيح (فبى يسمع وبى يبصر) وهذا اعلى سماع " (٢).

وذلك المقام الاخير من السماع وهو السماع الالهى
لا تصدر من صاحبه حركة اثناء السماع بل يأخذ السماع
طريقه الى قلبه فيسعده ويشوقه الى ربه ويسمو بروحه
الى حقيقة الحقائق فيشير فى سامعه مشاعر واحساسيس ترفع
همته وتقوى عزيمته فيتجه بكلية الى الله تعالى ولا يرى
ولا يسمع غير الله شيئا اخر فيكون السماع له بمثابة الدليل
والداعى فما يلبث ان يلبي الدعوة ويستنشد بالدليل
فيهديه الى حضرة الحق وتشرق عليه انواره تعالى وتفيض
عليه الفيوضات الالهية فما يلبث السالك ان يستلقى على
ظهره ويفنى عما حوله ويفنى عن نفسه ويبقى بالله .

-
- (١) عبد الوهاب الشعرانى ، كشف البقناع عن وجه السماع
مخطوطة بمكتبة الازهر رقم ٩١٧ خاص - ٣٣٤٤٤ عام ،
تصوف - حليم ل ٢١٤ ظ .
- (٢) ابن القيم الجوزيه . مدارج السالكين ، طبعة اولى ،
ج ١ ، ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

ويقول الشعراني عن صاحب هذا المقام ما نعه : "واذا جاء الوارد الالهى واشتغل الروح الانسانى من تدبيره بما يتلقاه من الوارد الالهى من العلوم الالهية ، ثم يبقى الجسم لا يجد من يحفظ عليه القيام والقعود فيرجع الى اصله وهو لموقعه بالارض ، المعبر عنه بالاضطجاع ، فاذا فرغ روحه من ذلك التلقى رجع الى جسده فاقامه من ضجته" (١) .

وقال ابو عثمان الحيرى : السماع ثلاثة اوجه :

فوجه منها للمريدين المبتدئين يستدعون بذلك الاحوال الشريفة ويخشى عليهم فى ذلك الفتنة والمرآة .

والثانى : للعادقين يطلبون الزيادة فى احوالهم ويستمعون من ذلك ما يوافق اوقاتهم .

والثالث لاهل الاستقامة من العارفين فهؤلاء لا يختارون على الله تعالى ما يرد على قلوبهم من الحركات والسكون (٢) .

وكان ابو على الدقاق الموفى يقول الناس فى السماع ثلاثة : متسمع ، ومستمع ، وسماع فالمتسمع يسمع بوقت ، والمستمع يسمع بحال ، والسماع يسمع بحق .

(١) عبد الوهاب الشعرانى ، كشف القناع عن وجه السماع

ل ٢١٣ و .

(٢) الرسالة القشيرية ، ج ٢ ، ص ٦٤٨ .

(٢) **حقائق الوجد :**

الوجد من أشار السماع كما ذكرنا فما حقيقة الوجد كما يراها الصوفية؟. قال ذو النون المصري : (السماع وارد حق جاء يزعم القلب الى الحق فمن اصغى اليه بحسب تحقق ومن اصغى اليه بنفس تزندق) (١) فالوجد فى هذا التعريف يعنى انزعاج القلب الى الحق وهذا الانزعاج ما هو الا شعور يجده الصوفى فى نفسه من أثر السماع لمن كان صادق الحال .

وقال ابوالحسين الدارج عن الوجد: " الوجد عبارة عما يوجد عند السماع" وعبر عما يشعر به من وجد عند السماع من خلال تجربته الخاصة قائلا : " جال بى السماع فى ميادين البهاء فأوجدنى فى وجود الحق عند العطاء فسقانى بكأس العفاء فأدركت به منازل الرضاء واخرجنى الى رياض التنزه والفضاء" (٢).

وقال عمر بن عثمان الملكى : " لا يقع على كيفية الوجد عبارة (اى لا يمكن للالفاظ والعبارات التعبير عن حقيقته) لانه سر الله عند عباده الموقنين المؤمنين " (٣) وقيل ايضا ان الوجد هو مكاشفات الحق (٤).

وقال عنه ابوسعيد بن الاعرابى : " الوجد رفع الحجاب ومشاهدة الرقيب وحضور الفهم وملاحظة الغيب ومحادثة السر

(١) الغزالى ، احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٨٩ .

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٣) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٤) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

وايناس المفقود وهو فناؤك من حيث أنت " (١) وقال ايضا:
" الوجد اول درجات الخصوص وهو ميراث التصديق بالغيب
فلما ذاقوه وسطع في قلوبهم نوره زال عنهم كل شك وريب (٢) .

ويذهب ابوسعيد الى ان الذى يحجب عن الوجد رؤية
أثار النفس والتعلق بالعلائق والاسباب لان النفس محجوبة
باسبابها ، فاذا انقطعت الاسباب وخلص الذكر وصح القلب
ورق الصفا ونجعت الموعظة فيه ، وحل من المناجات محل
قريب وخوطب وسمع الخطاب بأذن واعيه وقلب شاهد وسرر
ظاهر فشاهد ما كان منه خاليا فذلك هو الوجد لانه قد وجد
ما كان معدوما عنده (٣) .

وقد عرف ابوسعيد الوجد ايضا بقوله : " الوجد
ما يكون عند ذكر مزيج او خوف تعلق او توبيخ على زلة
او محادثة بلطيفة او اشارة الى فائدة او شوق الى غائب
او اسف على فائت او ندم على ماضى او استجلاب الى حال
او داع الى واجب او مناجاة بسر . وهو مقابلة الظاهر
بالظاهر ، والباطن بالباطن والغيب بالغيب والسر بالسر
واستخراج مالك بما عليك مما سبق للسعى فيه ، فيكتسب
ذلك لك بعد كونه منك فيثبت لك قدم بلا قدوم وذكر بلا
ذكر اذا كان هو المبتدئ بالنعم والمثولى . واليه يرجع
الامر كله " (٤) .

(١) احياء علوم الدين ، الفزالي ، ج ٢ ، ص ٢٨٩ .

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٣) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٤) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

اما من تعريف الغزالي للوجد فهو كما يقول " الوجد عبارة عن حالة يثمرها السماع وهو وارد حق جديد عقيب السماع يجده المستمع في نفسه " (١).

ومما سبق يتضح لنا ان الوجد الذى يستشعره الصوفى هو حالة نفسية تعترى السامع اثناء السماع فيشعر خلالها بمشاعر قوية تهز كيانه او تزعجه قد تكون ندما على ذنب او شوقا الى لقاء او انس باقتراب او خوف تعلق او بسط مفرح والوجد فى النهاية امر ذوقى بحث يشعر به الصوفى ولا يشاركه فيه احد ويصعب التعبير عنه بالالفاظ (٢).

واذا كانت هذه بعض اقوال الصوفية فى الوجد فان الغزالي يعرض لنا ايضا بعض اقوال الحكماء فى الوجد . فيقول : " عبر بعض الحكماء عن الوجدبان فى القلب فضيلة شريفة لم تقدر قوة المنطق على اخراجها باللفظ فاخرجتها النفس بالالهام . فلما ظهرت سرت وطربت اليها فاستمعوا من النفس وناجوها ودعوا مناجاة الظواهر " (٣).

كما عرف بعض الحكماء الوجد بقولهم : " نتاشج السماع استنهاض العاجز من رأى واستجلاب العازب من

(١) احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٩٠ .

(٢) انظر ابوالبركات ، روض الاستماع فى احكام الذكر والسماع ، وانظرايضا د. ابوالوفا الغنيمى التفاترانى فى حديثه عن احوال الصوفية فى كتابه مدخل الى النصوص الاسلامى وكتابه ابن عطاء الله السكندرى وتصوفه فى حديثه عن حال الصوفى اثناء الذكر ، ص ١٩٣ وما بعدها .

(٣) الغزالي ، احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٨٩ .

الافكار وحدة الكمال من الافهام والاراء حتى يشوب ما عذب
وينهض ما عجز ويصفو ما كدر ، ويمرح في كل رأى وفيه
فيصيب ولا يخطئ ويأتى ولا يبطل" (١) .

ومن تعريفات الوجد ايضا القول بان الفكر يطرق
العلم الى المعلوم والسمع يطرق القلب الى العالم
الروحانى (٢) .

كما عرف الوجدان Feeling بانه مجموعـة
الظواهر الوجدانية من لذة والم وانفعال وعرف الوجدانى
بانه ما له صلة بالوجدان كاللذة والالـم
ويقابل الفكر والنزوعى من احوال النفس (٣) .

ويعلل الحكماء حركة الاطراف نتيجة للوجد عندالسمع
بان هذه الحركة تكون على وزن الالـحان والايـقاعات وهى
عشق عقلى . والعاشق العقلى لا يـناجى معشوقه بالمنطق
الجسمى وانما يـناجيه بالتبسم والحركة اللطيفة والاشارة
الخفيفة . وهى وان كانت حركات بدتية الا انها تعبر عن
معان روحية . اما العاشق البهيمى فانه يستعمل المنطق
الجرمى يعبر به عن شـمرة ظاهر شوقه الفـعيف وعشقـه
الزائف (٤) .

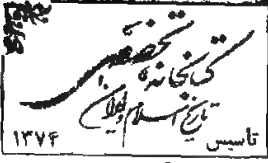
(١) الغزالى ، احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٨٩ .

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٣) انظر المعجم الفلسفى . مجمع اللغة العربية . القاهرة ،

تصدير الدكتور / ابراهيم مذكور ، ص ٢١٠ ، ٢١١ .

(٤) الغزالى ، احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٨٩ .



وهذا يعنى ان سبب الحركات الجسمية التى يأتى بها العاشق لله الذى تتحكم فيه نفسه الناطقة او العقل ولا تتحكم فيه الشهوة ونفسه الحيوانية يكون سبب حركته عند السماع ليس تعبيراً عن مدى حبه وعشقه لله بحركة جسمية وانما هى كما يقول الغزالي حركات واشارات لطيفة ظاهرة تعبر عن معانى روحية باطنة او كما يقول ابن سينا حتى توافق الابدان الارواح وانها لغلبة الشوق وانها سبب لحضور القلب وجمعيته بين يدى الله واعراضه عن الدنيا وهى خير محض لانها اثر لدخول نور الله فى القلب (١).

والوجد عند الغزالي لا يخلو من امرين :

(١) فهو اما ان يرجع الى مكاشفات ومشاهدات هى من قبيل العلوم والتنبيهات .

(٢) واما ان يرجع الى تغيرات واحوال ليست من العلوم هى كالشوق والخوف والحزن والقلق والسرور والاسف والنوم والبسط والقبض وكلها احوال يهيجها السماع ويقويها فان هف السماع بحيث لم يؤثر فى تحريك الظاهر او تسكينه او تغيير حاله حتى يتحرك على خلاف عادته او ينطق او ينظر على خلاف عادته ، او يسكن عن النظر والنطق والحركة على خلاف عادته ايضا فاذن ذلك لا يسمى وجدا . اما اذا ظهر على المستمع علامات ظاهرية واشارات معبرة عما بداخله سمى ذلك وجدا .

(١) احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٩٠ وانظر ايضا ابن سينا

رسالة فى الصلاة ، ص ٨ .

والوجد اما ان يكون ضعيفا او يكون قويا بحسب
ظهوره وتغييره للظاهر وتحريكه بحسب قوة وروده .

ويذهب الغزالي الى ان الوجد (وهو من يكون فى
حالة وجد) اذا كان قويا وقادرا على ضبط نفسه والتحكم
فى انفعالاته ، يكون وجده قويا من الباطن وانفعالاته
الداخلية شديدة غير انه يستطيع ان يضبط جوارحه فلا
يحدث حركة تعبيرا عن وجده ، فلا يتغير ظاهره لقوة تحكمه
فى ضبط جوارحه (١) .

وقد لا يحدث السامع حركة اثناء السماع غير ان هذا
لا يكون نتيجة لقوة ضبطه انفعالاته وتحكمه فيها وانما
يكون لضعف الوارد وقصوره فلا يثمر عنده السماع .

والى مثل هذه الحالة اشار الصوفى ابو سعيد بن
الاعرابى حيث قال فى الوجد " انه مشاهدة الرقيب وحضور
الفهم وملاحظة الغيب . ولا يبعد ان يكون السماع سببا
للكشف ما لم يكن مكشوفاً قبله فان الكشف يحصل لاسباب
منها التنبيه ، والسماع منه ومنها تغيير الاحوال
ومشاهدتها وادراكها . فان ادراكها نوع علم يفيد ايضاح
امور لم تكن معلومة قبل الورود ومنها صفاء القلب .
والسماع يؤثر فى تعفية القلب ، والصفاء بسبب الكشف
ومنها انبعاث نشاط القلب بقوة السماع فيقوى به على
مشاهدة ما كانت تقصر عنه من قبل قوته " (٢) .

فالوجد هو انبعاث نشاط القلب بقوة السمــع
لاستكشاف وملاحظة اسرار الملكوت .

(١) احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٩٠ .

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

ويذهب الغزالي الى ان القلب (١) - ربما يمثل
له الحق في صورة مشاهدة . - في لفظ منظوم يقرع سمعه
يعبر عنه بصوت الهاج اذا كان في اليقظة وبالرويا
اذا كان في المنام . وذلك جزء من ستة واربعين جزءا
من النبوة . ويقول الغزالي ان علم تحقيق ذلك خارج عن
علم المعاملة ولا ادل على ذلك مما روى عن ابن مسروق
البغدادي انه قال : " خرجت ليلة في ايام جهالتي وانا
نشوان وكنت اغنى هذا البيت :

بطور سيناء كرم ما مرت به
الا تعجبت ممن يشرب الماء
فسمعت قائل يقول :

وفي جهنم ماء ما تجرعه
خلق فأبقى له في الجوف امعاء
فكان ذلك سبب توبتي واشتغالي بالعلم والعبادة" (١) .

فقد تأثر بما سمع تأثرا عظيما كان سببا في تركه
الخمير والمجون والتوبة عن الذنوب والرجوع الى الله .

ويذهب الغزالي الى ان القلب اذا صفى وخلص من
حب الشهوات والاهواء وتطهرت السريرة وعمرت بحب الله
واستنارت بنوره تعالى لا يقف الامر عند سماع الهاتف فقط
بل قد يعمل صاحبه الى ان يشاهد بالبحر صورة الخضر عليه
السلام . ويقول الغزالي " انه يتمثل لارباب القلوب بمشور
مختلفة ، وفي مثل هذا الحال تتمثل الملائكة للانبياء
عليهم السلام" (٢) .

(١) الغزالي : احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٩٠ .

وفى مثل هذه الاحوال من صفاء القلوب تحدث ايضا
المكاشفة فيطلع صاحب ذلك القلب الظاهر على ضمائر
القلوب ويقول الغزالي " ويعبر عن ذلك الاطلاع " بالتفريس"
ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " اتقوا
فراصة المؤمن فانه ينظر بنور الله"(١).

ويروى الغزالي ان رجل من المجوس كان يدور على
المسلمين ويسأل عن معنى قول الرسول : " اتقوا فراصة
المؤمن " فكان يذكر له تفسيره فلا يقنعه ذلك حتى انتهى
الى بعض المشايخ من الصوفية فسأله فقال له : " معناه
ان تقطع الزنار الذى على وسطك تحت ثوبك " فقال صدقت
هذا معناه واسلم وقال الان عرفت انك مؤمن وان ايمانك حق.

والثمار التى تترتب على الوجد ويجنيها اصحاب
القلوب الصافية من السماع هي تلك المكاشفات والاحوال .

ويذهب الغزالي الى ان المكاشفات والاحوال تنقسم
كل منهما الى قسمين :

مكاشفات واحوال يمكن التعبير عنها بالعبارة
والالفاظ . واخرى تعجز العبارات عن التعبير عنها ولا يمكن
لصاحبها مع شدة فصاحتها ان يعيها فى جمل والفاظ لدقة
هذه الاحوال وهو يقول فى ذلك " واعلم ان كل واحد منهما
(اى المكاشفات والاحوال) ينقسم الى ما يمكن التعبير
عنه عند الافاقه منه والى ما لا تمكن العبارة عنه اصلا
ولعلك تستبعد حالة او علما لا تعلم حقيقته ولا يمكن

(١) الاحياء ، ج ٢ ، ص ٢٩١ .

التعبير من حقيقته . فلا تستبعد ذلك فانك تجد في احوالك الغريبة لذلك شواهد" (١) .

ويؤكد الغزالي المعنى السابق بقوله : " اما العلم فكم من فقيه تعرض عليه مسألتان متشابهتان في الصورة ويدرك الفقيه بدقة ان بينهما فرقا في الحكم واذا كلف بذكر وجه الفرق لم يساعده اللسان على التعبير وان كان من افصح الناس فيدرك بذوقه الفرق ولا يشك ان لوقوعه في قلبه سببا وله عند الله تعالى حقيقة ولا يمكنه الاخبار عنه لا لقصور في لسانه بل لدقة المعنى في نفسه ان تناله العبارة" (٢) .

ويذهب الغزالي الى ان حقيقة هذا القول لا يظن اليها الا اصحاب الذواق والمكاشفات .

والانسان قد يشعر في نفسه فرحا او قبضا او بسطا او غيرها من الاحوال ولا يعلم لهذه المشاعر من سبب . وقد يؤثر في نفسه مؤثرا خارجيا يثير فيه احد هذه الانفعالات كالاتوال الموزونة والالحن او قد يكون المؤثر داخليا كتفكره في شيء يثير فرحه او حزنه ، ويزول المؤثر ويبقى الانفعال وقد يجهل المؤثر الذي بعث فيه هذا الشعور ولكن يظل الاثر في نفسه لفترة فالاحوال مواهب من الله تعالى ترد على السالك دون تعمد منه وهي زائلة ، وهناك من الاحوال ما يمكن التعبير عنها بالالفاظ واخرى لا يجسد

(١) الغزالي ، احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٩١ .

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

صاحبها عبارات تصفها فيعجز عن التعبير عنها ويقول الغزالي في ذلك " اما الحال فكم من انسان يدرك نفسى قلبه في الوقت الذى يصبح فيه قلبها او بسطا ولا يعلم سببه وقد يتفكر الانسان في شيء فيترك في نفسه اثرا فينسى ذلك السبب ويبقى الاثر في نفسه وهو يشعر به ، وقد تكون الحالة التى يحس بها سرورا ثبت في نفسه بتفكره في سبب موجب للسرور او حزنا فينسى المتفكر فيه ويحس بالاثر عقيبها . وقد تكون تلك الحالة حالة غريبة لا يعبر عنها لفظ السرور والحزن ولا يعادف لها عبارة مطابقة مفصحة" (١) .

وقد انتقد ابن الجوزى البغدادي كلام الصوفية في الوجد بقوله " هذه الطائفة (اي الصوفية) اذا سمعت الغناء تواجدت وذهبت وصاحت ومزقت الثياب وقد لبس عليهم ابليس في ذلك وبالغ وقد احتجوا ... بما اخبر به ابونصر السراج الطوسي انه لما نزلت " وان جهنم لم وعدهم اجمعين" (٢) صاح سليمان الفارسي ووقع على رأسه ثم خرج هاربا ثلاثة ايام" (٣) وذكر ابن الجوزي قصصا كثيرة رواها الصوفية واستدلوا منها على ان السماع يبعث على الوجد وذهب الى ان ما ذكروه عن سليمان الفارسي محال وكذب وليس له اسناد والاية نزلت بمكة وسليمان بالمدينة ولم ينقل عن احد من الصحابة مثل هذا اصلا" (٤) .

(١) احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٩١ .

(٢) سورة الحجر، آية ٤٣ .

(٣) تلبيس ابليس ، ص ٢٥٠ .

(٤) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

ويستشهد ابن الجوزي على انكار السماع والوجد الناتج منه بان سفيان الثوري انكر ان يكون الربيع بن خثيم قد معق هند سماع القرآن ويقول : " فهذا سفيان الثوري ينكر ان يكون الربيع ابن خثيم (١) جرى له هذا (اى معق من السماع) لان الرجل كان على سمت الاول وما كان فى الصحابه من يجرى له مثل هذا ولا التابعين ثم نقول على تقدير الصحة ان الانسان قد يخشى عليه من الخوف فيسكنه الخوف ويسكنه فيبقى كالميت وعلامة الصادق انه لو كان على حائط لوقع لانه غائب . فاما من يدمى الوجد ويتحفظ من ان تزل قدمه ثم يتعدى الى تخريق الشياىاب وفعل المنكرات فى الشرع فاننا نعلم قطعاً ان الشيطان يلعب به (٢) .

ويروى ان حمين بن عبدالرحمن قال لاسماء بنت ابي بكر كيف كان اصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم وآله عند قراءة القرآن قالت : كانوا كما ذكرهم الله او كما وصفهم عزوجل تدمع عيونهم وتقشعر جلودهم " فقلت ان معنا رجالا اذا قرء على احدهم القرآن غشى عليه فقالت: أعود بالله من الشيطان الرجيم .

وقلوب الصحابة كانت اصفى قلوب وما كانوا يزيّدون عند الوجد على البكاء والخشوع ولم يعترفوا او يضربوا صدورهم كالجهال الذين يتلاعب بهم الشيطان .

(١) ارجع الى كتاب ابن الجوزي ، تلبيس ابليس للوقوف على مزيد من التفاصيل فى نقد مسالك الصوفية فى

الوجد من ص ٢٥١ : ص ٢٥٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٥٢ .

(۳) تلبيس ابليس ، ص ۲۵۷ •

بين الكتفين لا تزول الا بالتعب قال ابو الوفا ابن عقيل
قد نص القرآن على النهى من الرقص فقال عز وجل " لا تمشى
فى الارض مرحا" (١)، ودم المختال فقال " انه لا يحب كـل
مختال فخور " (٢).

ويستشهد ابن الجوزى بمعاصريه من مشايخ الصوفية
بانه لم يرى احد منهم يرقص (٣)، او يصفق او يعمق عند

- (١) سورة الاسراء: ٣٧ .
- (٢) تلبس ابليس ، ص ٢٥٩ . سورة لقمان ، آية ١٨ .
- (٣) يقول ابن الجوزى البغدادى اذا اشتد طربهم (اى الصوفية) فى
حال رقصهم جذب بعض الجلوس ليقوم معه . ولا يجوز على مذهبهم
للمجذوب ان يقعد فاذا قام قام الباكون تبعاله فاذا كشف
احدهم رأسه كشف الباكون رؤسهم موافقة له ولا يخفى على احد
ان كشف الرأس مستقبح وفيه اسقاط المروءة وترك الادب وانما
يقع فى المناسك تعبد الله وذلا له . فاذا تمكن منهم
الطرب رموا شيا بهم على المغنى فمنهم من يرمى بها صاحبا
ومنهم من يخرقها ثم يرمى بها وفداحتج لهم بعض الجهال
فقال هؤلاء فى غيبة فلا يلامون فان موسى عليه السلام لما
غلب عليه الغم بعبادة قومه العجل رماى اللواح فكسرها
ولم يدرى ما صنع : والجواب ان نقول من يصح عن موسى
بانه رماها رما كسر والذي ذكر فى القرآن القاهها
فحسب فمن اين لنا انها كسرت ثم لو صحنا ذلك عنه
قلنا كان فى غيبة حتى لو كان بين يديه حنظل بحر من
نار لخاضه ومن يصح لهؤلاء غيبتهم وهم يعرفون المغنى
من غيره ويحذرون من بثر ان كانت عندهم . ثم كيف
يقاس احوال الانبياء على احوال هؤلاء السفهاء . . . ثم
لو قدرنا ان القوم يصيحون عن غيبة فان تعرضهم لما
يغطى على العقول من سماع ما يطرب منهى عنه كالتعرض

=====

السمع كالشيخ ابي القاسم بن زيدان . وعبدالملك بن بشران وابى طاهر بن العلاف والجنيد والدينورى (١) .

واذا مدنا الى حديث الغزالي عن الوجد فاننا نجده قد قسمه الى قسمين :

وجد يمكن اظهاره . ووجد لا يمكن اظهاره كما قسم ايضا الى : وجد هاجم ووجد متكلف وهو ما يسمى بالتواجد وهذا التواجد المتكلف منه ما هو مزوم وهو الذى يقصد به الرياء واظهار الاحوال الشريفة مع عدم صدق الحال ومنه ما هو محمود، وهو التوصل الى استدعاء الاحوال الشريفة ومحاولة اكتسابها واستشارتها والحضور فيها ويقول الغزالي " ولذلك فان الرسول صلى الله عليه وسلم امر من لم يحضره البكاء فى قراءة القرآن ان يتباكى ويتحازن" (١) فاذا حاول الانسان ان يستجلب الوجد يستدعى الشعور بما يسمع وتعتمد الانفعال به فقد ينتهى به الى ان يتشعر الوجد دون تكلف فيكون وجدا هاجما ويقسول

==== لكل ما غالبه الاذى . وقد سئل ابن عفيل عن تواجدهم وتخريق شياهم فقال خطأ وحرام وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن اضاءة المال وعن شق الجيوب فقال له قائل : انهم لا يعقلون ما يفعلون . قال : ان حصروا هذه الامكنة مع علمهم ان الطرب يغلب عليهم فيزيل عقولهم اثموا بما يدخل عليهم من التخريق وغيره مما يفسد . ولا يسقط عنهم خطاب الشرع لانهم مخاطبون قبل الحضور يتجنب هذه المواضع . ارجع الى تلبيس ابليس ، ص ٢٦٠ ، ص ٢٦١ .

(١) احياء علوم الدين ، ص ٢٩٢ .

الغزالي في ذلك " فان هذه الاحوال قد تتكلف في مبادئها ثم تتحقق في اواخرها وكيف يكون التكلف سببا في ان يعير التكلف في الاخرة طبعا وكل من يتعلم القرآن اولا يحفظه تكلفا ويقرؤه تكلفا مع تمام التأمل واحضار الذهن يعير ذلك دينا للسان مفطردا حتى يجرى به لسانه فـسـى العلة وغيرها" (١).

فالسامع يتكلف الوجد في اول امره ثم ما يلـبـث ان يعير التكلف طبعا فيتواجد دون تكلف ويصبح لديه عادة ان يتواجد على السماع .

ولذلك ينصح الغزالي بعدم اليأس من وقوع الاحوال الشريفة لمن يفتقدها بل عليه ان يتكلف اجتلابها بالسماع وغيره وبالجلوس مع من يتمتعون بها ومشاهدة احوالهم في اثناء السماع كما عليه ان يستعين بالدماء والتضرع الى الله تعالى في ان يجعله من اصحاب هذه الاحوال وان ييسر له اسبابها (٢).

لقد عرضنا رأى الغزالي في الوجد ورأى من ينكر السماع وينكر الوجد وليس امامنا الا ان نقول ان هذه الاحوال لا تكون الا لاصحاب القلوب الصافية وان التجربة الصوفية من اولها الى اخرها يصعب على غير الصوفى الحكم عليها لانه لم يعيشها ولم يعاني من الادواق والمواجيد التى يعاني منها الصوفية ولذلك فان الكثير مما عبر عنه الصوفية من ادواقهم ومواجيدهم وما اعرّبوا عنه من احوالهم يبدوا غريبا وغير مستساغ من غير الصوفية من

(١) احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٩٣ .

(٢) ارجع الى المرجع السابق ، ص ٢٩٣ وما بعدها .

عامة الناس واذا كان ما يحدث للصوفية من وجد وما يترتب عليه من صياح او حركات لم يحدث للصحابة مع صفاء قلوبهم عند سماعهم القرآن فقد يرجع ذلك الى ان الصحابة كانوا يتحكمون فى مشاعرهم ولا يظهرونها بل ان كبار الصوفية المتحققين يفعلون ذلك والغزالي نفسه يحذض ضبط النفس مع طلبه استدعاء الوجد والتباكى عند سماع القرآن .

واذا كان بعض الصوفية يعبرون عن وجدهم فى شيء من المبالغة او التكلف فهذا يجب تجنبه ويجب الالتزام بأداب السماع التى كثيرا ما حدثنا عنها الصوفية انفسهم والتى حدثنا الغزالي عنها .

والغزالي وغيره من الصوفية ينهون عن ادعاء التصوف والالتزام بأداب الشرع فى كل كبيرة وصغيرة وينفى الغزالي ان يكون الشيطان حليفا لاصحاب القلوب الصافية العامرة بحب الله ويقول : " انما تحوم الشياطين على القلوب اذا كانت مشحونة بالصفات المذمومة فانها مرعى الشيطان وجنذه ومن خلص قلبه من تلك الصفات وصفاه لم يطف الشيطان حوله واليه الاشارة بقوله تعالى " الا عبادك منهم المخلصين " (١) ، ويقول تعالى : " ان عبادى ليس لك عليهم سلطان " (٢) .

ويشير الدكتور ابوالوفا الغنيمى التفتازانى الى الدراسات التى قام بها علماء النفس حول حالات التصوف هل هى سوية ؟ ومن هؤلاء ذكر على سبيل المثال لا الحصر

(١) سورة الحجر، اية ٤٠ .

(٢) سورة الحجر، اية ٤٢ .

عالم النفس الامريكى ولييم جمس (Jame- W.)^(١) وليوبا
(Leuba James.H.)^(٢) وباستيد Bastide Roger^(٣)
واندر هايل Underhill Everlyn^(٤).

ويرى الدكتور التفتازانى ان كثيرين من علماء
النفس الذين درسوا الظواهر النفسية للتصوف دراسة علمية
لم ينصفوا الصوفية وارجع ذلك الى بعض الاخطاء المنهجية
فى الدراسة فهم كانوا يحدرون انفسهم فى دائرة التجربة
الحسية وحدها ولم يدققوا فى فهم مصطلحات الصوفية التى
عبروا بها عن احوال وجدانية ذاتية خاصة لا تتصف بصفة
العمومية - ويرى استاذنا الدكتور ابوالوفالغنى ميسى
التفتازانى ان الباحث لى يحكم على هذا النوع من
الحالات الصوفية حكما علميا فلا بد له من ان يقوم بتجربته
او يكون لديه استعداد معين لتذوقه . اما ان يمتنع علماء

(١) انظر كتابه : The Varieties of religious
experience, New York, 1932.

(٢) انظر كتابه Psychologie du mysticisme religieux,
traduction francaise, par Lncien Herr, 1925.

(٣) انظر كتابه : Les problemes de la vie mystique,
Paris, 1931.

(٤) انظر كتابه :

Mysticism: A study in the nature and
development of man's spiritual consciousness,
1946.

النفس فى بعض الاحيان منهج المماثلة فى دراسة حالات
التصوف فهذا هو الخطأ بعينه لتعذر مماثلتهم للصوفى فى
حالاته الوجدانية الخاصة مماثلة حقيقية وهم ليسوا
بصوفية هذا الى جانب ان هؤلاء لا يدرسون صوفية موجودين
فعلا وانما يكتفون بتحليل ما خلفه الصوفية القدامى من
اثر ادبية . وهذا يعنى ان دراساتهم ليست دراسـات
تجريبية بمعنى الكلمة (١) .

واستاذنا يرى ايضا اننا اذا جعلنا من الصوفى
شخصا مريضا لجعلنا كذلك من الشاعر والكاتب والفنان
والموسيقى جميعا مريض لا شىء الا لانهم يعانون مشاعر
خاصة لا يعانيتها غيرهم من افراد الناس العاديين (٢) .

ننتقل بعد ذلك الى الحديث عن الاداب التى يجنب
على السامعين الالتزام بها فى مجالس السماع . يعـد ان
وقفنا على درجات السامعين ومقاماتهم فى فهم ما يسمعون
واختلاف انفعالاتهم الوجدانية واستجاباتهم وبعدان عرفنا
ان الكمل من القوم هم الذين يتحكمون فى وجدهم .

(١) ارجع الى كتاب د. ابوالوفا الغنيمى التفتازانى
مدخل الى التصوف الاسلامى ، الطبعة الثانية ،

ص ١٢ ، ١٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٤ .

(٤) آداب السماع

وضع الصوفية آداب للسمع وأوجبوا الالتزام بها في مجالسهم وما من صوفي تناول موضوع السماع الا ودعى الى الاهتمام بمراعاة تلك الاداب واحترامها وقد وضع لها الصوفية قواعد واصل منها ما يتخلق به السامع ومنها ما يخص المسمع ومنها ما يشترط ان يتوفر في المجلس من حيث الزمان والمكان ومنها آداب خاصة بما يقال من أشعاروالحان

وقد أجمل الغزالي آداب السماع في خمسة آداب هي:

الادب الاول : مراعاة الزمان والمكان والاخوان :

فشيخنا يرى ان من آداب السماع ان يكون في الوقت المناسب لذلك فلا يبعث ان يكون السماع في وقت حضور الطعام او في وقت الصلاة او في اي وقت يشغل الناس فيه اي شاغل يعرفهم عن الانتباه والانصات لما يقال وذلك حتى يفرغ له القلب فلا ينصرف الا اليه وبذلك يثمر السماع .

ويقول الغزالي : (قال الجنيد " السماع يحتاج الى ثلاثة اشياء والا فلا تسمع الزمان ، والمكان ، والاخوان " ومعناه ان الاشتغال به في وقت حضور الطعام او خضام او صلاة او صارف من العوارف مع اضطراب القلب لا فائدة فيه " (١) .

فيجب مراعاة فراغ القلب في رأى شيخنا اما السهرورى فانه يرى ان من آداب السماع الا يكون للسامعين وقت محدد

(١) الغزالي : احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٩٨ .

للسماع فهو يقول ما نعه : " ومن آدابهم (اى الصوفية)
الا يتكلفوا فيه (اى فى السماع) ولا يكون لهم وقـــــت
معلوم لذلك" (١) .

اما المكان فيرى الغزالى انه يجب ان يكون مناسباً
للسماع فينبغى الا يكون فى الاماكن العامة كالطرقـــــات
والشوارع وانما يكون فى مكان لاثق غير مطروق وليس به
ما يشغل السامع من السماع وان يكون نظيفاً واطهراً ويقول
الغزالى ما نعه " اما المكان فيجب الا يكون شامـــــاً
مطروقاً او موفها كريحه المورة او فيه سبب يشغل القلب
فيجتنب ذلك" (٢) .

وهذا يتفق مع ما ذهب اليه ابن عربى من ان السماع
يجب ان تجرى جلسته فى زاوية لا يدخلها الا الصوفية الذين
يعتقدوا فى السماع فلا يدخلها من ليس له شيخ ولا العامة
ولا الصوفى الذى لا يعتقد فى السماع ، ويقول " تجرى
جلسة السماع فى زاوية ولا يدخل فيها من ليس له شيخ" (٣)
ويقول ايضا : " فمن آدابهم فى السماع ان لا يكون بينهم
من ليس من طريقهم ولا من هو فى طريقهم اذا كان لا يقول
بالسماع فانه يقبضهم بتغيره فلا بد ان يكون السامعون
مجتمعون على قلب واحد" (٤) .

(١) السهروردى : آداب المريدين ، تحقيق فهم محمد
شلتوت ، ص ١٠٤ .

(٢) الغزالى : الاحياء ، ج ٢ ، ص ٢٩٨ .

(٣) ابن عربى : المواقع ، ص ١٦٥ .

(٤) محيى الدين ابن عربى ، رسالة آداب الشيخ والمريد

ل ١٩ ظ مخطوطة بمكتبة الازهر الشريف تحت رقم (١٠٧٠)

خاص - ٣٣٥٨٠ عمومى) مجاميع حلیم .

وهذا النص الاخير لابن عربى الى جانب انه يحدد المكان فهو ايضا يتناول الاخوان الذين يجتمعون للسمع وحديثه عن يحضرون مجلس السماع يشبه ما قاله الغزالى فى هذا الصدد الذى يرى ان الاخوان الذين يجتمعون للسمع يجب ان يكونوا صحبة طيبة ليس بينهم متكبر من اهل الدنيا او منكر او متكلف او مدع للوجد ممن يأتى من الحركات المصطنعة ما يشغل الجالسين برقمه وتمزيق ثيابه ففى رأيه ان ترك السماع عند وجود هؤلاء اولى ويقول ما نصه : " انه اذا حضر غير الجنس (اى غير الصوفية من العامة) من منكر السماع متزهده الظاهر مفلس من لطائف القلوب كان مستثقلا فى المجلس واشتغل القلب به ، وكذلك اذا حضر متكبر من اهل الدنيا يحتاج الى مراقبة والى مراعاته او متكلف متواجد من اهل التصوف يراى بالوجد والرقص وتمزيق الثياب فكل ذلك شوشات . فترك السماع عند فقد هذه الشروط اولى ففى هذه الشروط نظر للمستمع " (١) .

وهذا القول يتفق ايضا مع ما ذكره السهروردى من آداب الصوفية فى مجالس السماع (٢) .

ولاشك ان مجلس السماع اذا تم فى المكان والزمان المناسبين ولم يكن من بين الحضور من ليس من اهل السماع يساعد ذلك على جمع النفس وخلق جوا ملائما لاثارة الوجد واثمار السماع فتلك المؤثرات الخارجية لها دور كبير فى نفوس السامعين ولذا يجب مراعاتها .

(١) الغزالى : احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٩٨ .

(٢) انظر السهروردى ، آداب المريدين ، ص ١٠٤ ، ص ١٠٥ .

الادب الثانى :

ومن آداب السماع التى يرى صوفينا ضرورة الالتزام بها فى مجالس السماع الا يكون من بين الحاضرين من يمكن ان يضره السماع او يسبب له اذى فيجب على الشيخ ان يشغله عن المجلس بان يطلب منه عمل شئ او تأدية خدمة حتى يعرفه عن المجلس ولا ينشغل بالسماع ويقول الغزالي مانعه " ومن يستضر بالسماع احد ثلاثة هم :

(١) ان يكون قد انكسر شهوته وامنت غائلته وانفتحت بصيرته واستولى على قلبه حب الله تعالى وصفاته ومسا يجوز عليه وما يستحيل ، فاذا انفتح له باب السماع انزل المسموع فى حق الله تعالى وما يجوز وما لا يجوز فيكون ضرره من تلك الخواطر - التى هى كفر - اعظم من نفع السماع (١).

وقد قال سهل بن عبد الله التستري فى ذلك " كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة باطل " (٢) فلا يصح السماع لمثل هذا الشخص ويجب ابعاده من مجلس السماع حتى لا يقع فى المحذور .

(٢) كما لا يعلج السماع ايضا لمن لا يزال فى قلبه حب الثناء ويقول الغزالي : " ولا يعلج السماع لمن قلبه ملوث بحب الدنيا وحب المحمدة والثناء " (٣).

(١) احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٩٩ .

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة

(٣) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

ولذلك قال الصوفية : السماع لقوم كالغذاء ، ولقوم كالداء ، ولقوم كالدواء ، ولقوم مروحة" (١) وقال الشيخ ابو عبد الرحمن السلمى الصوفى النيسابورى (٣٢٥ هـ - ٤١٢ هـ) " الوجد قد يكون زيادة لقوم ، ونقصا لقوم وهو كالسلاح يملح للجهاد فى سبيل الله ولقتل اولياء الله ، وكذلك الشمس تملح شيئا وتفسد شيئا آخر .

ويقول السهروردى البغدادى عندما سئل عن التكلف فى السماع فقال : هو على ضربين تكلف من المستمع لطلب الجاه او منفعة دنيوية وذلك تلبس وخيانة . وتكلف منه (اى السامع) لطلب الحقيقة كمن يطلب الوجد بمنزله التواجد وهو منزلة التباكى من البكاء" (٢) ففى رأى السهروردى ان التكلف فى السماع على ضربين اما تكلف لطلب الجاه والمنفعة الدنيوية واما تكلف لامطناع الوجد ومحاولة التواجد كالتباكى او امطناع البكاء الذى قد يودى الى البكاء الفعلى والاول مذموم والثانى محمود .

ويقول عبد الوهاب الشعرانى : " الخلل فى حـال السامع لكونه كاذبا فى حاله بان يتحرك صاحب النفس بالشعور والاحساس فيكون مسخرة للشيطان وملعبه للوسواس مردودا عند الله وعند الناس" (٣) .

(١) السهروردى : آداب المريدين ، تحقيق فهيم شلتوت

ص ١٠٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٠٩ .

(٣) كشف القناع عن وجه السماع ، مخطوطة بالمكتبة الازهرية

رقم (٩١٧ خاص - ٣٣٤٤٤ عام) تصوف حلیم ك ٢١٤ .

كما ان محيي الدين بن عربي دعى الى منع الذين يعجزون عن تلقى تجربة الاحوال الصوفية العالية (١) .

(٣) ايضا لا يعلج السماع لمن يسمع لاجل التلذذ فسماعه هذا يشغله عن العبادة ولا يؤدي به الى الوجد فالسماع كما يقول شيخنا مزلة يجب حفظ الفعفاء عنه (٢) فمجلس السماع لا يعقد للهو وهذا القول للغزالي يتفق مع ما قاله السهروردي من انه لا يجوز ان يحضر مجلس السماع من يتبسم او يتلهى فهم لا يسمعون للتطاييب والتلهى (٣) .

ولا ريب ان من جوز السماع من الصوفية يجمعون على ترك اللهو فى السماع فمن يطلب اللهو والتلذذ بالانغماس فليطلبه بعيدا عن مجالس السماع لانها لم تخصص للترفيه والاستجمام وانما لاثارة الوجد وجمعية الباطن وترقيق القلب واستجلاب الاحوال الشريفة .

الادب الثالث :

ان يكون السامع منتبها كل الانتباه الى ما يسمع من القوال هاغيا فى هدوء وسكينة حاضر القلب لا يشغله شغل من داخل نفسه كأن يتفكر فى موضوع يشغله عن السماع او شواغل خارجية كالنظر الى وجوه الحاضرين او مراقبة حركاتهم وما يظهر عليهم من احوال الوجد فيغفل عن نفسه ويغفل عما حوله ويركز كل اهتمامه فى السماع ومراعاة قلبه ومراقبة ما يفتح الله تعالى له من رحمته فى سره

(١) انظر ابن عربي ، رسالة فى ادب الشيخ والمريد ، مخطوطة بالازهر الشريف يحمل رقم (١٠٧٠ خاص - ٣٣٥٨٠ عام) مجاميع تصوف ل ١٩ ط .

(٢) احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٩٩ .

متحفظا من حركة تشوش على اصحابه بل عليه ان يكون ساكن
الظاهر هادئ لا يأتى بحركات كثيرة لاسيما التنحنح
والتثائب . ويجلس مطرقا رأسه متفكرا مستغرقا لقلبه
متماسكا من التعفيق والرقص وسائر الحركات ، وخاصة
الحركات المتكلفة الممطوعة التى تدل على المراعاة اكثر
من ان تكون تعبيرا عن الوجد . ويجدر به الا يتكلم
فان غلبه الوجد وحركه بغير اختيار فهو فى هذه الحالة
معذور غير ملوم ، لانه يكون غير متحكم فى نفسه واذا عاد
مرة ثانية الى وعيه وتحكم فى نفسه فعليه ان يلزم الصمت
والسكينة ، صادقا دون رياء (١) .

ويذهب الغزالي الى ان السامع اذا التزم الصمت
والسكون فان ذلك لا يبدل على عدم وجده فلا ينبغى على
السامع ان يخشى ان يقال عنه انه قاس القلب عديم الصفاء
وانما يجب عليه مراعاة حاله وصدق مشاعره وعدم التكلف
ومراقبة سره دون مراعاة لكلام الغير ، ويخلص قلبه لله .

ويقول الغزالي " فان قلت الافضل هو الذى لا يحركه
السمع ولا يؤثر فى ظاهره او الذى يطهر عليه ، فاعلم ان عدم
الظهور تارة يكون لضعف الوارد من الوجد فهو نقصان
وتارة يكون مع قوة الوجد فى الباطن ولكن لا يظهر لكمال
القوة على ضبط الجوارح ، فهو كمال . وتارة يكون لكون
حال الوجد ملازما ومصاحبا فى الاحوال كلها فلا يتبين
للسمع مزيد تأثير وهو غاية الكمال " (٢) .

(١) الغزالي ، احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٩٩ .

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

وبذلك يكون اهم آداب السماع ان يكون السامع صادق
مع نفسه وصادق مع الله وان يكون بعيدا عن الرياء والتكلف
فاذا صدرت عنه حركة او لم تصدر فان ذلك يكون تبعا لحاله
فقد يكون لفهف وجده او لقوته غير انه فى كل الاحيان يجب
ان يكون صادقا ومتزنا .

وقد سئل بعض مشايخ الصوفية عن شرب القلوب من
السماع وشرب الارواح منه وشرب النفوس فقال : شرب القلوب
الحكم ، وشرب الارواح النغم ، وشرب النفوس ذكر ما يوافق
طبعها من الحظوظ^(١) .

ويقول السهروردى " ليس من الاداب استدعاء الحال
والتكلف للقيام الا عن غلبة حال ترد فتزعم او يكون على
سبيل مساعدة لصادق ... وترك ذلك اولى"^(٢) .

ويذهب الغزالى الى ان صاحب الحال فى اغلب الاحوال
لا يدوم وجده وانما يكون حاله نفسية مؤقتة . ولا يدوم الوجد
الا للانسان المراقب لربه المرابط للحق الملازم لعيون
الشهود^(٣) ويقول ما نعه : " ولا يبعد ان تكون الاشارة

(١) السهروردى : آداب المريدين تحقيق ابى النجيب محمد

شلتوت ، ص ١٠٨ .

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٣) الوجد شعور مؤقت يشعر به الصوفى وقلما دام مع

صاحبه شأنه شأن الاحوال الصوفية الاخرى كالقبض

والبسط والانس والخوف والرجاء وغيرها من الاحوال

والحال عند الصوفية هو معنى يرد على القلب من غير

تعمد منهم ولا اجتلاب ولا اكتساب لهم من طرب او حزن

او شوق او انزعاج او هيبة فالاحوال مواهب والمقامات

====

بقول الصديق رضى الله عنه كنا كما كنتم ثم قست قلوبنا
معناه قويت قلوبنا واشتدت فصارت تطبيق ملازمة الوجد فى
كل الاحوال فنحن فى سماع معانى القرآن على الدوام فلا
يكون القرآن جديد فى حقنا طارئا علينا حتى نتأثر به
فاذا قوة الوجد تحرك قوة العقل والتماسك بضبط الظاهر^(١)

فالسامع الذى يكثّر من الحركات الانفعالية فيسر
المضبوطة عند السماع كأن يضرب بنفسه على الارض او يصفق
او يكثّر من الصياح لا يكون اشدّ وجدا من السامع الذى
يجلس فى سكون فهذا الاخير قديكون اعظم وجدا الا انه اكثّر
تحكما فى نفسه واكثّر ضبطا لانفعاله ولذلك يقول الغزالي
" فلا تظن ان الذى يضرب بنفسه على الارض آثم وجدا من
الساکن بافطرابه بل رب ساكن اثم وجدا من المضطرب"^(٢).

وقد حكى عن "الجنيد" انه كان يتحرك فى السماع فى
بداية سيره فى طريق التصوف ثم صار لا يتحرك بعد ذلك
ف قيل له ما سبب ذلك فقال : " وترى الجبال تحسبها

==== مكاسب . والمقامات تأتى من عين الجود والمقامات
تحمل ببذل المجهود . وصاحب المقام ممكن فى مقامه
وصاحب الحال مترق عن حاله ، انظر الرسالة القشيرية
ص ٥٤ ، وقيل الحال هو معنى يرد على القلب من غير
تعهد منه وشرطه النزول وتعقبه المثل فمن اعقبه
المثل قال بدوامه ومن لم يعقبه المثل قال بعدم دوامه
وقيل ايضا الحال تغير الاوصاف على العبد (التعريفات
للجرجاني ، ص ٣٣٤) وانظر ايضا : السهروردي : آداب
المريدين ، ص ١٠٥ .

(١) الغزالي : الاحياء ، ج ٢ ، ص ٢٩٩ .

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

جامدة وهى تمر مر السحاب منع الله الذى أتقن كل شيء (١)
وهذا يعنى ان قلبه هاشم وجائل فى الملكوت بينما جوارحه
متأدبه وساكنة فى الظاهر.

وكبار الصوفية يعتبرون ان شدة الانفعال وكثرة
الحركة اثناء السماع لضعف الحال وان اصحاب الهمم القوية
والعزائم الراسخة لا يفتربون من السماع ولكنهم يسيطرون
على مشاعرهم ويتحكمون فى انفعالاتهم فيشعرون بالوجد
الا انهم لا يأتون بحركة لقوتهم .

ومن ذلك ما قاله الصوفى ابوالحسن محمد بن احمد
وكان بالبصرة " صحبت سهل بن عبدالله التستري ستين سنة
فما رأيت تغيير عند شيء كان يسمعه من الذكر او القرآن
فلما كان فى اخر عمره قرأ رجل بين يديه " فاليوم
لا يؤخذ منكم فدية " (٢) . فرأيت قد ارتعد وكاد يسقط
فلما عاد الى حاله سألته عن ذلك فقال نعم يا حبيبى قد
ضعفنا " (٣) ويحكى ايضا عن سهل انه سمع قول الله تعالى
" الملك يومئذ الحق للرحمن " (٤) فاضرب فساله ابن سالم
وكان من اصحابه فقال قد ضعفت فقليل له فان كان هذا من
الضعف فما قوة الحال فقال : ان لا يرد عليه وارد الا وهو
يلتقيه بقوة حاله فلا تغيره الواردات وان كانت قوية " (٥) .

(١) الغزالي ، الاحياء ، ج ٢ ، ص ٢٩٩ ، سورة النمل ، آية ٨٨ .

(٢) سورة الحديد ، آية ١٥

(٣) تعريفه ، المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٤) سورة العرفان ، آية ٢٦ .

(٥) الاحياء ، ج ٢ ، ص ٣٠٠ .

وقال الجنيد " لا بضر نقصان الوجد مع فعل العلم وفعل العلم آتم من فعل الوجد" (١).

ويرى الغزالي ان سبب القدرة على ضبط الظاهر مع وجود الوجد استواء الاحوال بملازمة الشهود فكلمة كان شهود السامع قويا ووجده صادقا كلما خمدت بشرتيه وزاد سكونه .

ويذهب امامنا الى ان من الصوفية من ترك السماع في كبره وكان لا يحضره الا نادرا لمساعدة اخ من الاخوان وادخلا للسرور على قلبه وربما حضر مجلس السماع ليعرف القوم كمال قوته فيقتدون به ويعلمون ان الكمال ليس بالوجد الظاهر فيتعلمون منه ضبط الظاهر ولا يلجأون الى التكلف في اظهار الوجد وبعضهم نقل عنه ترك السماع لانه لم يكن له خط روحاني في السماع ولا كان من اهل اللهو فتركه حتى لا يكون مشغولا بما لا يعنيه (٢).

الادب الرابع :

ومن آداب السماع ايضا عند شيخنا الا يقوم السامع من مجلسه ولا يرفع صوته بالبكاء طالما أنه قادر على ضبط نفسه وهذا لا يعنى ان البكاء او الحركة التي تشبه الرقص غير مباح في السماع فهو مباح بشرط الا يقعد به المراءة . كما يجوز التباكي استجلابا للحنن .

واما تمزيق الثياب فهو غير مباح فلا يجب على السامع تمزيق ثيابه من شدة وجده وانفعاله بل عليه ان

(١) الاحياء ، ج ٢ ، ص ٣٠٠ .

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة

يضبط نفسه ويتحكم فى انفعالاته اما اذا حدث ذلك دون ارادة منه فلا بأس فخرج السامع عن وعيه امر غير مستبعد فقد يحدث له وجد شديد جارف يفقده وعيه وفى هذه الحالة قد يمزق ثيابه او يأتى من الاعمال ما لا ارادة له فيه ولا اختيار ويقول الغزالي ما نعه : " اما تمزيق الثياب فلا رخصة فيه الا عند خروج الامر عن الاختيار" (١) .

ولذلك يذهب الشيخ الرئيس الى ان المستمع يجب ان يكون صادق الحال خال الفكر والقلب عما سوى الله وقد ماتت نفسه عن الشهوة والهوى وتخلص من كثافة المادة التى تحجبها عن الله او كما يقول الشيخ الرئيس ان تكون نفسه سليمة على الفطرة لم تغلظها مباشرة الامور الارضية الفانية اذا سمعت ذكرا روحانيا بغشاها وجد مبرح مع لذة مفرحة (٢)

ولا ريب ان صدق الحال مطلب عام للصوفية جميعا ليس فى السماع والذكر فحسب بل فى سلوك الطريق الصوفى فالصوفية جميعا يهاجمون المدعين للطريق لما يأتونه من التصرفات التى تسوء الى التصوف خاصة والاسلام عامة ولان الصوفى يجب ان يكون متحققا بمقام الصدق فيكون صادق مع نفسه وصادق مع الله ومع الناس فى كل اقواله وافعاله ويتضح هذا من قول محبى الدين بن عربى اذ يقول : " فمن شروطهم عدم المراعاة وحفظ آداب الشريعة دقيقها وجليلها اذا علمها وله ان يسأل اذا لم يعلم عن كل حالة يكون عليها ما حكمها فى الشرع ، فان الرجل اذا خان فى آداب الشريعة سهل عليه ان يخون فى الاسرار الالهية والله تعالى لا يهب اسراره الا الامناء" (٣) .

(١) الغزالي : احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٣٠١ .

(٢) ابن سينا : الاشارات والتنبيهات ، ج ٤ ، ص ٨٢٥ .

(٣) ابن عربى : رسالة آداب الشيخ والمريد وانظرا بوا اسماعيل

ويقول الامام القشيري " ان الحركة تأخذ من كـل متحرك وتنقص من حاله مريدا كان او شيخا الا ان تـكـون بـا شـارة من الوقت او غلبة تأخذه عن التميز فان كان مريدا أشار عليه الشيخ بالحركة فتحرك على اشارته (اي لاجلها) فلا بأس اذا كان الشيخ ممن له حكم على امثاله . (١)

واما اذا اشار عليه الفقراء بالمساعدة في الحركة فيساعدهم في القيام وفي اداء ما لا يجد منه بدا مـمـا يـراعى عن الاستيحاش لقلوبهم . ثم ان صدقه في حاله يمنع قلوب الفقراء من سوالهم عند المساعدة معهم" (٢) .

الادب الخامس :

ومن اداب الصحبة في مجلس السماع موافقة القـوم فيما يقومون به من اعمال فاذا قام واحد منهم في وجد صادق من غير رياء وقامت معه الجماعة فيجب ان يقوم جميع الحاضرين فان ذلك من حسن الصحبة وادابها .

وكذلك اذا جرت عادة طائفة بتنحية العمامة على موافقة صاحب الوجد اذا سقطت عمامته فعلى كل سامع فـى الجماعة ان يخلع عمامته . كذلك اذا سقط ثوبه او خلعه فعليهم ان يفعلوا مثل ما فعل .

ويقول الغزالي ما نعه " موافقة القوم في القيام اذا قام واحد منهم في وجد صادق من غير رياء وتكلف او قام باختيار من غير اظهار وجد وقامت له الجماعة فلا بد من موافقة فذلك من آداب الصحبة ، وكذلك اذا جرت عادة طائفة بتنحية العمامة على موافقة صاحب الوجد اذا سقطت عمامته او خلع الثياب او اذا سقط عنه ثوبه بالتمزيق

(١) القشيري ، الرسالة ، ص ١٥٧ .

فالموافقة فى هذه الامور من حسن الصحبة والعشرة
اذ المخالفة موحشة . ولكل قوم رسم ، ولابد من مخالفة
الناس باخلاقتهم ... لاسيما اذا كانت اخلاقا فيها حسن
العشرة والمجاملة وتطبيب القلب" (١) .

وللصوفية تقليد خاص فى السماع فاذا سقط ثوب او ما
يسميه الصوفية الخرق (٢) من السامع الذى قام يتواجد، فان
لهم سلوكا خاصا فى التعامل معها يقول الامام القشيري فى
ذلك " واما طرح الخرقة فحق المريد ان لا يرجع فى شئ
خرج منه البته " اى من حق المريد ان يستعيد ما سقط منه ،
الا أن يشير عليه شيخ بالرجوع فيه فيأخذه ... ثم يخرج
عنه بعده من غير ان يستوحش قلب ذلك الشيخ " (٣) بمعنى
اذا سقط من السامع ثوبا له ان يسترده بعد السماع الا اذا اشار
عليه الشيخ بتركه وله ان يدفع ما يقابله من المال ويأخذه

واذا وقع ذلك بين قوم من عاداتهم طرح الخرقة، وعلم
انهم يرجعون فيها فان لم يكن فيهم شيخ تجب حشمته وحرمته
وكان طريق هذا المريد ان لا يعود فى الخرقة (اى الا يأخذها
بعد وقوعها) فلاحسن له ان يساعدهم فى الطرح . ثم يؤثر به
القول اذا رجعواهم فيها (اى فى خرقتهم) ولو لم يطرح
فانه يجوز اذا علم من عادة القوم انهم يعودون فيمـا
طرحوا فان القبيح انما هو سنتهم فى العود الى الخرق لافى
مخالفته لهم ، على ان الاولى الطرح على الموافقة ثم ترك
الرجوع فيه (٤) . اى يمكن للقول ان يأخذ الخرقة اذا وافق

(١) الغزالي : احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٣٠١ .

(٢) الخرق : جمع خرقة لنوع مخصوص من الثياب يستعمله
اهل الطريق .

(٣) الرسالة القشيرية ، ج ٢ ، ص ٧٤٧ .

(٤) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

أهل مجلس السماع والاولى عدم الرجوع الى اخذ الخرقه بعد طرحها .

اما السهروردى (٤٠٩ هـ - ٥٦٣ هـ) فيفصل القول فى حكم الخرقه التى تقع من السامع فى مجلس السماع فيقول: " وأما حكم الخرق التى تقع فى السماع فما كان منها على طريق مساعدة فهى للجماعة . وما كان منها لقول قوال وانشاد منشد فان لم يكن هناك جماعة فانها للقوال خاصة . وان كان هناك جماعة فقد اختلفت اقاويل المشايخ فيها ، فذهب بعضهم الى انها للقوال لانه لم وجد (اى السامع) الفائدة فى سره من جهته (اى القوال) خلع عليه بدلا عما اتحفه به ، وذهب بعضهم الى انها للجماعة والقوال فيها كأحدهم لان بركة حضور الجماعة لا تقتصر على قول القوال ومنهم من قال : ان كان القوال من جملة القوم فهو كأحدهم وليس له استبداد بشئ منها . وان كان اجنبيا فما كان منها لها قيمة فيؤثر هو بها ، وما كان من خريقات الفقراء فهم اولى بها ومنهم من قال ان كان القوال اجيرا فليس له منها شئ وان كان متبرعا فله ما يصلح له منها ، واذا قلنا انها لهم فحكمها انهم لا يشتغلون بها ما داموا فى السماع فاذا انقضى وقته جمعوها فى الوسط ، ثم ان كان هناك محب لهم فحكمه ان يفديها بما يوجب وقته (اى يدفع بدلا منها ما يستطيع دفعه) من غير معارضة فيها ولا مناداة عليها فان ذلك استخفاف بحقها وحقهم . ثم ان كان هناك شيخ له حكم فالحكم فيها اليه من تخريق (اى تمزيقها الى خسرق صغير) او تبديل ورد على اصحابها " (١) اى اذا حكم الشيخ

(١) ابي النجيب السهروردى ، آداب المريدين ، ص ١١٢ .

بان ترد الخرق لأصحابها فترد.

وقال اهل الشام : الفقير اولى بخرقته وانكسر الجمهور منهم ذلك ومنهم من قال ما وقع منها (اى الخرق) على سبيل المساعدة (اى ليس عن وجد حقيقى بل لمساعدة صاحب الوجد) او مشوبا بالتكلف فالرد اولى " اى ترد خرقة المتكلف والذي لم يشعر بالوجد . (١)

واكثر المشايخ يكرهون طرح الخرقة على سبيل المساعدة لما فيه من التكلف المبين للحقيقة وان لم يكن هناك شيخ له حكم يمضون فيه حكم الوقت ولا يآخرون فى ذلك .

ويكرهون (اى الصوفية) تخريق المرقعات الا ان يكون تبركا . وما كان منها من خرق الفقراء ، فما كان يصلح منها للرقاع فتخريقه اولى ويصيب الكل نصيبا ولا يبقى البعض محروما ويفرق على الحاضرين دون الغيب (غيـر الحاضرين) لان الغنيمة لمن شهد الواقعة واذا حضر معهم غيرهم فالمحبون منهم يعطون من الخرق " (٢) .

اما ابن عربى فهو يفضل الا يحضر مجلس السماع الا الصوفية وان يكون القوال من بينهم الا اذا افتقدت الجماعة من هو حسن الصوت ويعقدون مجلس السماع فى زاوية ثم يجلسون برئاسة شيخ الطريقة وهم يرتدون ملابسهم المعتادة ثم يقف

(١) ابى النجيب السهروردى ، آداب المريدين ، ص ١١٢ ، يقول

ابن الحوزى رأيت شيخا من الصوفية يقول خرقت خرقة فى بلدنا فأصاب رجل منها خريقة فعملها كنفا فباعه

بخمسة دنانير ، انظر تلبيس ابليس ، ص ٢٦٣ .

(٢) السهروردى ، آداب المريدين ، ص ١١٢ .

القول لينشد واذا لم يكن من الجماعة فيجب منه ما يقوى عزمه من العطاء وبشجعه على التحمس للانشاد حتى لا تفرهم السامعين ويقول ابن عربى ما نعه "ويمكن ان يكون القول منهم. ومن له نية حسنة فيهم. فهو حسن وان كان القول من العامة، فمن شرطهم ان يجزلوا له العطاء ويرغدوا له فى العيش ويباسطوه حتى يمسكوا من قلبه محبة الجماعة والطائفة، فان النفوس مجبولة على حب من احسن اليها" (١).

فاذا سرت الاحوال فى نفوس السامعين تواجدوا عند السماع لاستدعاء الاحوال والواردات الالهية بعد قطع العلائق والحجب التى تقطعهم عن سبيل الله فالتواجد باختصار السامع واراادته" (٢).

وهو يحدثه زيادة فى الوجد واطهارا لما يوجد فى باطنه وتعبيرا عما يكنه داخله من شرور، حتى اذا غلب عليه هذا الشوق ربما صاح وبكى باستغاثات ينادى بها الله تعالى. فهذا الطريق الشريف مقاما يخرج فيه المريد على ان يسمع من الحق، ولا يرى ان احدا فى الوجود يخاطبه غير الله تعالى فهو متمثل لكل ما يؤمر به. فهذا المقام هو للنفس موت عن ارادتها، وهو الوجد الروحى (٣).

-
- (١) ابن عربى : رسالة فى آداب الشيخ والمريد ل ١٩ ظ مخطوط بالازهر تحمل رقم (١٠٧٠ خاص - ٣٣٥٨٠ عام) مجاميع حلیم. وانظر ايضا الاستاذة سهام عبدالمجيد، المعرفة عند ابن عربى من ص ٢٣٣ الى ص ٢٣٦ .
- (٢) ابن عربى : رسالة فى آداب الشيخ والمريد ل ١٩ ظ .
- (٣) انظر المرجع السابق، وانظر المواقع لابن عربى ايضا، ص ١٦٤، ١٦٥.

ويرى ابن عربي في الوجد البدني وهو ثمرة الجذب أنه يولد في الشخص حركات مفترية وتسقط عنه ثيابه فينقطع القوال عن الانشاد ويأخذ الثوب الذي سقط من المجدوب ويتنازع الحاضرون في الاستيلاء عليه تباركا به كأثر ثمين وهبه الله لهذا المجدوب من النعم والالطاف .

وابن عربي ينكر ذلك التصرف حيث ان له نظرية فلسفية خاصة فهو يرى في التصفيق الايقاعي والرقص وتمزيق الثياب في حالة الوجد يرى فيها جميعا مظاهر للبعد عن الله وليست من علامات الاتحاد به، وانما مردها الى اغراء الشيطان ووساوسه^(١)، ومعروف ان ابن عربي من الموفية القائلين بوحدة الوجود وكون الموفي في حال الغناء يفنى عن نفسه ويفنى عما حوله ولا يشهد الا الله فان هذا جائز شرعا اما قوله ان الله والعالم واحد او انه هو والله واحد فهذا شطح خارج عن ظاهر الشرع غير جائز لان لا حلول ولا اتحاد في الاسلام واذا كان الموفي في حال الغناء يبقى بربه ويتعمل به فانه اتصال روحي محض يستشعره الموفي اما الاتحاد بالله فان الموفية الملتزمين بالكتساب والسنة كالغزالي وغيره يرفضونه تماما . غير ان ابن عربي يرى ان المتحد بالله في حال الغناء لا يأتى حركة ولا يصفق ولا يمزق ثيابه واذا فعل ذلك فيكون من الشيطان وليس من الله لان الله لا يهب اسراره الا للامناء من عباده^(٢)

وقد نقد ابن الجوزي البغدادي المتوفى ٥٩٧ هـ وغيره مسالك الموفية في الوجد وقالوا ان التواجد الذي يحدثه المتواجدون من قوة صياحهم وتخبطهم فظاهر انه متعمل

(١) ابن عربي ، رسالة النجاة ، ل ٢ ، ج

(٢) الغناء عند اصحاب "وحدة الوجود" حال يتحقق فيها الموفي من اتحاد موجود بالفعل كان قد حجب عنه اشتعاله بانيه وهو

(اى مصطنع) والشيطان معين عليه وانه نقص حتى وان كان صاحبه صادق الحال وذلك من جهتين :

احدهما : ان المتواجد لو كان قوى العلم لامسك
(اى تماسك وامتنع من التواجد بالحركات والصياح) .

والثانى : انه قد خالف به طريق الصحابة والتابعين
ويكفى هذا نقضا^(١) ، كما انتقد ابن الجوزى
محمد بن طاهر وغيره فى قوله ان الخرقه اذا طرحت صارت
ملكاً لمن طرحت بسببه . واحتجاه بحديث جرير الذى قال فيه
" جاء قوم مجتابى النمار فحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم
على الصدقة فجاء رجل من الانصار بصرة فتتابع الناس حتى
رايت كومين من ثياب وطعام "^(٢) قال والدليل على ان الجماعة
اذا قدموا عند تفريق الخرقه (اى توزيع اجزائها الممزقة
على الحاضرين) اسهم لهم حديث ابي موسى " قدم على رسول
الله صلى الله عليه وسلم بغنيمه وسلب فاسهم لنا "^(٣) .

ويعترض ابن الجوزى على استدلال الصوفية وخاصة محمد
ابن طاهر بما حدث من الرسول من انه (ص) طلب صدقة لقوم
فقراء فتتابع المسلمون المتمدقون بوضع صدقاتهم حتى
صارا كومين من الملابس والطعام بان الصوفية حينما يرمون
الملابس او يطرحونها اثناء السماع ويتقاسمها اهل السماع
ويستأثر القوال بالجديد السليم منها او يدفع صاحبه شمله
الى القوال . واحتجاهم ايضا بتوزيع الرسول الغنائم
على المسلمين .

(١) انظر ابن الجوزى البغدادى : تلخيص ابليس ، من ص ٢٤١ : ٢٦٣

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٣) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

يرى ابن الجوزى البغدادى فى احتجاج الصوفية
بامثال هذه الاحاديث على مايقومون به من رمى الخرق فى
مجالس السماع وتقطيعها وتوزيعها على الحاضرين والقوال
او المنشد فيه تلاعب بالشرع فقال ما نعه " لقد تلاعب
هذا الرجل (ويعنى محمد بن طاهر) بالشرعية واستخرج بسوء
فهمه ما يظنه يوافق مذهب المتأخرين من الصوفية . فانا
ما عرفنا هذا فى اوائلهم . وبيان فساد استخراجهم ان هذا
الذى خرق الثوب ورمى به ان كان حاضرا (اى واعيا لما
يفعل) فما جاز له تخريبه وان كان غائبا (اى فى حالة
فناء) فليس له تصرف جائز شرعا ، لاهبة ولا تمليكا . وكذلك
يزعمون بان ثوبه كان كالشئ يقع من الانسان ولا يدرى
به فلا يجوز لاحد ان يملكه . وان كان رماه فى حال حضوره
لا على احد فلا وجه لتملكه ، ولو رماه على المغنى لـم
يملكه لان التملك لا يكون الا بعقد شرعى . والرمى ليس
بعقد ثم نقدر انه ملك للمغنى . فما وجه تصرف الباقيين
فيه . ثم اذا تعرفوا فيه خرقوه خرقا وذلك لا يجوز
لوجهين : احدهما انه تصرف فيما لا يملكونه ؛ والثانى
انه اضاعة للمال" (١) .

وشبه ابن الجوزى احكام الصوفية فى الملايس
او " الخرق " التى تسقط من المتواجدين اثناء السماع
بالاحكام التى وضعت فى الجاهلية مثل احكام البهيمة
والسائبة وغيرها من الاحكام وان هذا مذهب خارج عن اجماع
المسلمين (٢) .

(١) انظر : ابن الجوزى ، تلبيس ابليس ، ص ٢٦٢ .

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة . (البحيره هى الناقة التى تشق
اذنها والسائبة هى التى لا ينتفع بها وكان اهل الجاهلية اذا
نتجت الناقة خمسة ابطن اخرها ذكر شقوا اذنها وتركوها سائبة

وقد قال ابن طاهر " أجمع مشايخنا على ان الخرقعة
المخرقة وما انبعث من الخرق المحاح الموافقة لها ان ذلك
كله يكون بحكم الجمع يفعلون فيه ما يراه المشايخ^(١) ،
والحق ان هذا قول اغلب الموفية الذين يبيحون السماع
واحتجوا بقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه " الغنيمة لمن
شهد الواقعة "^(٢) وخالفهم الشيخ ابو اسماعيل الانصارى
وغيره فجعل الخرقعة على ضربين ما كان سليما دفع الى
القبول وما كان مجروحا قسم على الجميع ، واحتج بحديث
سلمه بن الاكوع " من قتل الرجل له سلبه اجمع "^(٣) فالقتل
(ويعنى هنا الوجد والفناء) انما وجد من جهة القوال
(اى بسبب ما انشد القوال) فالسلب له .

وقال ابن الجوزى تعليقا على ذلك ما نصه " انظروا
اخوانى عصمنا الله واياكم من تلبيس ابليس الى تلاعب
هؤلاء الجهلة بالشريعة واجماع مشايخهم الذى لا يساوى
اجماعهم " بكرة " فان مشايخ الفقهاء اجمعوا على ان
الموهوب لمن وهب له سواء كان مخرقا او سليما ولا يجوز
لغيره التصرف فيه ثم ان سلب القتل كل ما عليه (اى كسل
ما عليه من ملابس) فما بالهم جعلوه ما رمى به . ثم ينبغى
ان يكون الامر على عكس ما قاله الانصارى لان المجروح من
الثياب ما كان بسبب الوجد فينبغى ان يكون المجروح للمفنى
دون الصحيح وكل قولهم هذا محال وهذيان "^(٤) .

ويرى ابن طاهر ان الذى يطرح الخرقعة (اى تقع منه
فى السماع او يرمى بها اثناء تواجده) لا يجوز ان يشتريها

(١) انظر، ابن الجوزى ، تلبيس ابليس ، ص ٢٦٢ .

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٣) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٤) المرجع السابق ، ص ٢٦٣ .

من الجمع واستدل على ذلك بحديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه (لا تعودن فى صدقتك) (١) .

اما ابن الجوزى فينتقد ابن طاهر فى احتجاجه بحديث عمر رضى الله عنه بقوله " أنظروا الى بعد هذا الرجل من فهم معانى الاحاديث فان الخرقه المطروحة باقية على ملك صاحبها فلا يحتاج الى ان يشتريها " (٢) .

وقد اطال ابن الجوزى فى نقد مسالك الصوفية فى تقطيعهم الشباب خرقه وقد حاول الغزالى الرد على من يعترض على مسالك الصوفية فى مجالس السماع وعلى ما تعارفوا عليه من تقليد خاصة (بالخرق) واعتبار ذلك بدعة فى الدين فقال ما نعه " وقول القائل بان ذلك بدعه لم يكن فى الصحابه ، فليس كل ما يحكم بلباحته منقولاً عن الصحابة رضى الله عنهم . وانما المحذور ارتكاب بدعة تراغم المأثور (اى تخالفه) ولم ينقل النهى من شىء من هذا . . . ولكن اذا لم يثبت فيه نهى عام فلا نرى به بأسا كما فى البلاد التى جرت العادة فيها باكرام الداخل بالقيام . فالمقعود منه الاحترام وتطيب القلب وكذلك سائر انواع المساعدات اذا قصد بها تطيب القلب (٣) ولم يكن من عادة العرب القيام عند دخول الداخل .

وبالنسبة للرقص فى السماع والاعتراض عليه فيرى الغزالى ان الرقص وان كان مقرونا باللهو وتنفر منه الطباع . وقد سيطر على الاوهام انه مخالف للدين وينكره

(١) ابن الجوزى ، تلبيس ابليس ، ص ٢٦٣ .

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٣) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

أهل الجد من ذوى الدين فان رجال الدين مهما بلغ بهم
الجد لن يكونوا جادين اكثر من رسول الله (ص) وقد رأى رقص
الحبشة فى المسجد ولم ينكر رقصهم لانه كان فى يوم عيد
واذا كان الرقص من اللهو واللعب فاللهو واللعب مباح
ويقول امامنا ما نعه " من الادب ان لا يقوم للرقص مع
القوم ان كان يستثقل رقصه ولا يشوش عليهم احوالهم اذ
الرقص من غير اظهار التواجد مباح. والتواجد هو الذى
يلوح للجميع منه اثر التكلف ومن يقوم عن صدق لا تستثقله
الطباع. فقلوب الحاضرين اذا كانوا من ارباب القلوب محك
للمدق والتكلف وقد سئل بعضهم عن الوجد الصحيح فقال صحتة
قبول قلوب الحاضرين له اذا كانوا اشكالا غير اضداد فان
قلت : ما بال الطباع تنفر من الرقص ويسبق الى الاوهام
انه باطل ولهو مخالف للدين فلا يراه ذو جد فى الدين
الا وينكره فاعلم ان الجد لا يزيد على جد رسول الله (ص)
وقد رأى الحبشة يرفنون فى المسجد وما انكره لما كان
فى وقت لائق به وهو العيد من شخص لائق به وهم الحبشة ومن
اشبههم وهو مكروه لذوى المناسبات لانه لا يليق بهم وما كره
لكونه غير لائق بمنصب ذى المناسبات فلا يجوز ان يوصف
بالتحريم" (١).

ويضرب امامنا على ذلك مثلا يقول فيه : " فمن سأل
فقيرا شيئا فاعطاه رغيفا كان ذلك طاعة مستحسنة. ولو
سأل ملكا فاعطاه رغيفا او رغيفين لكان ذلك منكرا عند
الناس كافة ومكتوبا فى تواريخ الاخبار من جملة مساوئة
ويعيره به اعقابه واشيائه. ومع هذا فلا يجوز ان يقال ما
فعله حرام. لانه من حيث انه اعطى خبزا للفقير حسن ومن
حيث انه بالاضافة الى منصبه كالمنع بالاضافة الى الفقير

(١) الغزالي ، احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٣٠٢ .

مستقبله. فكذلك الرقص وما يجرى مجراه من المباحات ومباحات العوام سيئات الابرار وحسنات الابرار سيئات المقربين ولكن هذا من حيث الالتفات الى المناصب واما اذا نظر اليه في نفسه وجب الحكم انه هو في نفسه لاتحريم فيه والله اعلم^(١).

نلاحظ ان ما سبق من الاداب يخص السامعين وسنتناول فيما يلي الاداب الخاصة بالمشهد او القوال والقهاشد التي ينشدونها واحب ان اضيف الى الاداب السابقة ما ذكره السهروردي في آداب المريدين من ضرورة ان يتعلم المريد آداب السماع على يد شيخ يقصده ليؤدبه فيه وانه يكره للشبان القيام في حفرة المشايخ واطهار الحال. وانه لا رخصة للاحداث في القيام والتحرك وان اكثر المشايخ يكرهون حضورهم مجلس السماع ، واذا كان الوقت^(٢) جدا فلا يجوز للمتكلف المداخلة والمزاحمة من طريق الموافقة والمساعدة أيضا وان الانصات من آداب الحفرة^(٣).

اما بالنسبة للقوال او المسمع فان محيي الدين بن عربي يقول انه حر فيما ينشد فلا يجب ان يقترح عليه السامعون شيئا بعينه اما اذا ظهر لهم منه في اثناء المجلس سأمه او كسل اى ليس في اختياره الحمية المطلوبة اسكتوه وارجوا سره واشتغلوا بنفوسهم . فان كان في الجماعة من ينوب عنه ، والاخذوا في الذكر بصوت واحد

(١) الفزالي ، احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٣٠٢ .

(٢) الوقت: عبارة عن حالك في زمان الحال لا تعلق له بالماضي ولا بالمستقبل .

(٣) السهروردي : آداب المريدين ، ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

وطريقة واحدة وعلى نفس الايقاع ، وهى أحسن عندهم وعند المحققين من قول القوال (١) .

ويشترط الصوفية فى المنشد او المبنى ان يكون رجلا ولا يحل السماع من امرأة لانه لا يحل النظر اليها ولا سماع جمال صوتها فى قراءة القرآن او ترتيله او انشاد الموشحات والافانى وان يكون حسن الصوت بليغ العبارة وان ينشـد بنشاط وخشوع دون اظهار ملل ولا سامة ويفضل ان ينشـد الاغانى الدينية ويكره سماع الغزل والافانى وان يبـدأ المجلس بالقرآن ويختم به (٢) ويفضل ان يكون من الصوفية .

بعد ان تفهمنا السماع ، ووقفنا على معناه وعرفنا أثره فى النفوس ، ودوره فى اشارة الوجد وكوامن النفس واتخاذ الصوفية له كوسيلة عملية لترقيق القلب وعرفنا كيف يعقد الصوفية مجالس السماع وانهم يتفاوتون فى التماثر به مما ادى الى اختلاف مقامات السامعين ، وبعد ان عرفنا الاداب التى يلتزم بها الصوفية فى مجالس السماع حتى يثمر ويحقق الهدف منه . وتبيننا ان الصوفية الكمل لا تؤثر فيهم النغمات والالحان وانهم يفضلون سماع القرآن الكريم وبعد ان وقفنا على تحليل الغزالي لطرب السامع المبتدىء بالالحان والقصاصد . مبينا اسباب تأثره بها .

(١) محب الدين بن عربى : رسالة فى اداب الشيخ المريد ل ١٩ و مخطوط بالازهر رقم ١٠٧٠ خاص - ٣٣٥٨٠ عام ، مجاميع حليم .

(٢) انظر المرجع السابق ، وانظر ايضا اداب المريدين للسهروردى ، ص ١٠٦ ، ١٠٧ ، والاشارات والتشبهات لابن سينا ، ج ٤ ، ص ٨٢٥ ورسالة كلمات الصوفية ايضا ل ٢١٧٠ /

علينا ان نتبين معا حكم الشرع فى الغناء ومجالس
السماع الموصى وهذا ما سنتعرض له فى الفصول التالية
ونتبين رأى الذين مالوا الى تحريم السماع وادلتهم
ورأى من اباحوه وادلتهم وموقف الغزالي من السماع ومن
المنكرين له . وسنبداً قبل ذلك فى تناول سماع
القرآن الكريم ورأى الصوفية فيه . وهو سماع الكمل
من القسوم .

الفصل الثاني

سماع القرآن الكريم

(١) تأثر اصحاب القلوب المافية بسماع القرآن

(٢) لماذا يكون تأثر السامعين اقوى بسماع
القصائد ؟

العمل الثانى

سماع القرآن الكريم

لاشك ان سماع القرآن الكريم له مكانة خاصة ومنزلة رفيعة وقد أمرنا الحق سبحانه بسماع القرآن والانصات له فى قوله تعالى : " واذا قرئ القرآن فاستمعوا لــــه وأنصتوا لعلكم ترحمون" (١) ، وقوله تعالى : " فاقروا ما تيسر من القرآن" (٢) وذلك لان من يستمع الى تلاوة القرآن فى تدبر وخشوع يؤثر فى قلبه ويهديه الى سواء السبيل وهو رحمة وبركة وهو كما قال الحق سبحانه وتعالى — " ان هذا القرآن يهdy للتى هى اقوم وبشر المؤمنين" (٣) .

وقد وصف الله من يستمعون القرآن ولا يتدبرون آياته وما تحمله من المعانى الجليلة التى يخشع لها القلوب وتطمأن النفس وتقر العين ويزداد الايمان بأنهم اصحاب قلوب مغلقة ، عليها اقفالها وذلك فى قوله تعالى: " افلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها" (٤) لان للقرآن وقع عظيم فى النفوس ويزيد المؤمنين ايمانا على ايمانهم وقد

-
- (١) سورة الاعراف ، آية ٢٠٤ .
 - (٢) سورة المزمل ، اية ٢٠ .
 - (٣) سورة الاسراء ، آية ٩ .
 - (٤) سورة محمد ، آية ٢٤ .

قال عنه الحق تبارك وتعالى : " لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله " (١) .

وقد اعتبره الصوفية سماع الكمل من القوم الذين يسمعون القول فيتبعون احسنه . فهو سماع ربانى .

وبعد إذ، حدثنا الغزالي فيما سبق من سماع الكـلام الموزون من قصائد الشعراء على اختلاف موضوعاتها والناشيد الدينية التى يتغنى بها على نغمات الآلات الموسيقية المباحة سيوضح موقف من مالوا الى تحريم السماع ومن قالوا بحله وليفصح عن رأيه الخاص مبينا مواطن التحريم ومواطن الاباحة فى السماع . بقدر ان نعرف رأيه فى سماع القرآن الكريم .

(١) تأثير أصحاب القلوب الصافية بسماع القرآن الكريم:

يرى شيخنا ان الوجد الحق هو ما ينشأ من فرط حب الله تعالى ومدق ارادة السامع وقوة شوقه الى لقاء ربه وان السامعين من ذوى النفوس الطاهرة والقلوب الصافية والاحوال العادقة يتأثرون بسماع القرآن فيحدث لهم وجد عند سماعهم كلام الله ويدل على ذلك قوله تعالى " تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله " (٢)، وقوله تعالى " انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم " (٣)، وقوله تعالى : " لو

(١) سورة الحشر ، آية ٢١ .

(٢) سورة الزمر ، آية ٢٣ .

(٣) سورة الانفال ، آية ٢ .

أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيتك خاشعا متصدعا من خشية الله" (١).

هذه الايات الكريمة تدل في رأى شيخنا دلالة واضحة على مدى تأثير كلام الله تعالى على عباده الخاشعيين المتقين الذين تقشعر أبدانهم اجلالا وخشية من الله لما يسمعون من عظيم كلماته تعالى التى تهز اعماقهم وتشرح صدورهم وتأثر في ابدانهم فينفعلون بها ظاهرا وباطنا فهي تؤثر في القلوب والارواح كما تؤثر في ذات الوقت في الجلود والابدان فالصوفية بلاشك يتأثرون بسماع القرآن الكريم .

وهذا النوع من السماع يقول عنه ابن القيم " هو سماع الايات لا سماع الابيات ، وسماع القرآن لا سماع الشيطان وسماع كلام رب الارض والسما لا سماع قصائد الشعراء، وسماع المرشد لا سماع القصائد ، وسماع الانبياء والمرسلين لا سماع المغنيين والمطربين" (٢).

ويقول فيه السهروردي " ان الحظوظ العاجلة والاقسام الدنياوية التى هي مناط الهوى ومثار الردى بمثابة الحطب الذى تزداد النارية له تأججا ويزداد القلب به تحرجا فرفضوا الدنيا وزهدوا فيها (اي الصوفية) فلما انقطعت من نار النفس احطابها فترت نيرانها وقل دخانها شهدت بواطنهم وقلوبهم مصادر العلوم فهيكوا مواردها بصفاء الفهم فلما شهدوا سمعوا قال تعالى : " ان فى ذلك

(١) سورة الحشر ، آية ٢١ .

(٢) ابن القيم الجوزية ، مدارج السالكين ، طبعة اولى ، ج١ ، ص ٢٧٤ .

لذكرى لمن كان له قلب او ألقى السمع وهو شهيد" (١) .

وقال سهل بن عبدالله التستري " القلب رقيق تؤثر فيه الخطرات المذمومة ، وأثر القليل عليه كثير . قال تعالى : " ومن يعيش من ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين" (٢) ، فالقلب عمال لا يفتر والنفس يقظانه لا ترقد فان كان العبد مستمعا الى الله تعالى والا فهو مستمع الى الشيطان والنفس" (٣) وهو يعنى بذلك ان سماع القرآن الكريم يكون له فى قلوب المحبين لله تأثيرا محمودا واما استماع الاشعار فانه قد يؤدى الى الخواطر شيطانية مذمومة ، والغزالي بعد ان يثبت اهمية سماع القرآن عند الصوفية وتواجدهم لسماعه يرد على من يتعجب ، ان الصوفية يفعلون بسماع الغناء وهو كلام الشعراء ويحدث لهم به وجد ولا يفعلون بسماع القرآن الكريم وهو كلام الله ولو كانوا صادقين لكان كلام الله اولى باشارة وجدهم ممن الغناء . فدل ذلك على ان احوالهم باطله وانها من غرور الشيطان .

ومن ذلك ما قاله ابن الجوزي البغدادي حيث يقول:
" وقد نشب السماع بقلوب خلق منهم فأثروه على قراءة القرآن وركت قلوبهم عنده بما لا ترق عند القرآن ومما ذاك الا لتمكن هوى باطن تمكن منه وغلبة طبع ، وهم

(١) عوارف المعارف بهامش احياء علوم الدين للغزالي

سورة ق ، آية ٣٧ .

(٢) سورة الزخرف ، آية ٣٦ .

(٣) عوارف المعارف للسهروردي بهامش احياء علوم الدين

للغزالي ، ج ١ ، ص ٢٣٦ .

يظنون غير هذا " (١) .

ويرد الغزالي على ذلك بقوله بان الذى يهيج شوقه
بسماع القرآن فهو حب الخلق وعشق المخلوق فيلزم من محب
الله المشتاق الى مطالعة جماله وجلاله صاحب الوجد الحق
أن يحرك سماع القرآن شوقه ، بل على حد تعبير الغزالي
يهيج هذا الشوق ويشعل ناره .

وفى رأى شيخنا ان الوجد والخشوع عند سماع القرآن
هو وجد من قبيل الاحوال وان لم يكن من قبيل المكاشفات

(١) انظر تلبيس ابليس ، ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، (١) يقول ابن
الجوزى البغدادي ان ابانصر السراج الطوسي حكى
عن ابي الحسن الدارج انه قصد يوسف بن الحسين
الرازي من بغداد فلما دخل الى الري سأل عن منزله وكان
كل من يسأله عليه يقول له ماذا تفعل بذلك الزنديق
حتى ضيقوا صدره وعزم على الانصراف وبات ليلتها فى
المسجد وفى الصباح اهتدى الى مسجده ووجده جالس
فى المحراب وبين يديه مصحف يقرأ فيه فسلم عليه
وطلب منه الشيخ ان يقول شيئاً فقال : رأيتك تبني
دائماً فى قطيعتى ولو كنت ا حزم لهدمت
ما تبني فاطبق المصحف وبكى حتى ابنت لحينه
وشبه حتى رحمه الله من كثرة البكاء - ثم
قال : يا بنى تلوم اهل الري على قولهم يوسف بن
الحسين زنديق ومن وقت الصلاة هو ذا اقرأ القرآن
لم تقطر من عينى قطرة وقد قامت على القيام
بهذا البيت ، المرجع السابق ، ص ٢٤٨ .

غير أنه قد يصير سببا للمكاشفات والتنبيهات ويستشهد على صحة رأيه هذا بقول الرسول صلى الله عليه وسلم " زينوا القرآن بأصواتكم" ^(١) أى ان قارئ القرآن يجب ان يكون حسن الصوت حتى لا ينفر السامعين. وقوله صلى الله عليه وسلم عن ابي موسى الاشعري " لقد أوتى زمزما من مزامير آل داود عليه السلام" ^(٢).

ولاشك ان حسن الصوت وخشوعه عند قراءة القرآن تبعث على الانصات فاذا انعت المستمع وكان قوى الايمان بعثه ذلك على التفكير والوجد لما يكون لمعاني الايات الكريمة من اثر فى نفسه فاصحاب القلوب الطاهرة والنفوس الصافية يظهر عليهم الوجد عند سماع القرآن الكريم ولا ادل على ذلك كما يرى شيخنا من قول الرسول صلى الله عليه وسلم " شيبتنى هود واخواتها" ^(٣) ، وهذا الحديث يدل على ان القرآن الكريم يبعث على الوجد ويؤدى الى الخوف من الله والحزن على التقصير فى حقه والخوف والحزن يؤديان الى الشيب .

ويورد الغزالي ادلة على ان الرسول عليه افضل الصلوة والسلام قد حدث له وجد من سماع القرآن الكريم. ومن ذلك ما رواه ابن مسعود رضى الله عنه من انه قرأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة النساء فلما انتهت الى قوله تعالى " فكيف اذا جئنا من كل امة بشهيد

(١) الدارمى صلاة ١٧١ فضائل القرآن ٣٤ .

(٢) سبق تخرجه .

(٣) رواه الترمذى من حديث ابي حنيفة وله وللحكم من حديث ابن عباس . قال الترمذى حسن ، وقال الحكم صحيح على شرط البخارى .

وجئنا بك على هؤلاء شهيدا" (١) قال حسبك وكانت عيننا
تزرعان الدموع .

وقد روى أيضا ان الرسول صلى الله عليه وسلم قرأ
قرأ هذه الآية او قرأ عنده قول الله تعالى : " ان لدينا
أنكالا وجيما وطعاما ذا غصة وعذابا اليما" (٢) ، فبكى (٣) .

وروى ان الرسول صلى الله عليه وسلم قرأ قوله تعالى
" ان تعذبهم فانهم عبادك " (٤) ، فبكى . ويقول الامام
الغزالي انه صلى الله عليه وسلم كان اذا مر بآية من
آيات الرحمة دعا ربه واستبشر (٥) وفي رأى الغزالي
ان الاستبشار وجد وان الرسول كان يحدث له حال من البسط
والبهجة والاستبشار عندما يسمع آيات القرآن التي ذكرت
فيها رحمة الله وعفوه تعالى .

والغزالي يرى ان الحق سبحانه يمتدح اهل الوجد
ويثنى عليهم في قوله تعالى : " واذا سمعوا ما انزل الى

(١) سورة النساء ، آية ٤١ .

(٢) سورة المزمل ، آية ١٢ .

(٣) حديث انه قرأ عند الرسول " ان لدينا أنكالا... .

ذكره ابن عدى فى الكامل والبيهقى فى الشعب من

طريقه من حديث ابى حرب ابن ابى الاسود مرسلا .

انظر الغزالي ، الاحياء ، ج ٢ ، ص ٢٩٤ .

(٤) سورة المائدة ، آية ١١٨ .

(٥) انظر المرجع السابق ، نفس الصفحة .

الرسول ترى آمينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق" (١)

وينتهي الغزالي من تلك الامثلة وغيرها الى ان الرسول عليه السلام كان يحدث له وجد عند سماع القرآن الكريم وكذلك الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين لهم باحسان كانوا ايضا فيما يرى الغزالي يتواجدون عند سماع القرآن الكريم فيقول " ومنهم من معق عند سماع القرآن ومنهم من بكى ومنهم من غشى اليه ومنهم من مات في غشيته . وروى ان زرارة بن اوفى وكان من التابعين كان يوم الناس بالرقعة فقرأ : " فاذا نقر في الناقور (٢) فصعق ومات في محرابه رحمه الله " (٣) .

ويروى الغزالي ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمع رجلا يقرأ قول الحق تبارك وتعالى : " ان عذاب ربك لواقع " (٤) وخر مغشيا عليه فحمل فلم يزل مريضا فمضى بيته شهرا " (٥) .

ويذهب امامنا الى ان الامام الشافعي رحمه الله سمع قارئا يقرأ " هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون " (٦) فغشى عليه من شدة الوجد .

-
- (١) سورة المائدة ، آية ٨٣ .
 - (٢) سورة المدثر ، آية ٨ .
 - (٣) احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٩٤ .
 - (٤) سورة الطور ، آية ٧ .
 - (٥) المرجع السابق ، نفس الصفحة .
 - (٦) سورة المرسلات ، آية ٣٥ .

والحق أن الامام الغزالي يسوق الكثير من هذه الامثلة التي يستدل منها على ان الصحابة والتابعين كان يحدث لهم وجد من سماع القرآن الكريم (١).

وبوضع امامنا اثر سماع القرآن الكريم على الصوفية وما يحدثه سماع كلام الله فيهم من وجد فيروى ان الشبلى كان في مسجده ليلة من رمضان وهو يصلى خلف امام فقرأ الامام قول الحق تبارك وتعالى " ولئن شئنا لنذهبن بالذى اوحينا اليك" (٢) فزقق " الشبلى" زعقة ظن الناس انه قد طارت روحه واحمر وجهه وارتعدت فرائسه وكان يقول بمثل هذا يخاطب الاحباب ويردد ذلك مرارا (٣).

كما روى الجنيد انه دخل على سري السقطى فرأيت بين يديه رجلا قد غشى عليه فقال لى هذا رجل قد سمع اية من القرآن فغشى عليه فقلت أقرءوا عليه تلك الآية بعينها حتى يفيق فأفاق . فقال من اين قلت هذا فقلت رأيت يعقوب عليه السلام كان عماء من اجل مخلوق فبمخلوق ابهر ولو كان عماء من اجل الحق ما ابهر بمخلوق . فاستحسن ذلك وأشار الى قول الشاعر :

وكأس شربت على لذة

وأخرى تداويت منها بها (٤)

(١) انظر احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٩٣ وما بعدها .

(٢) سورة الاسراء ، آية ٨٦ .

(٣) الغزالي ، الاحياء ، ج ٢ ، ص ٢٩٤ .

(٤) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

ويفيض الغزالي في ذكر ما روى عن تواجد كبريائى الصوفية عند سماع القرآن الكريم^(١)، فاصحاب القلوب المطمئنة الصافية لا يخلون عن وجد عند سماع القرآن.

ويذهب الامام الغزالي الى ان من يسمع القرآن ولا يؤثر فيه فمثله كمثل الذى ينسحق بما لا يسمع الا دماء ونداء صم بهم ممن فهم لا يعقلون^(٢) قال تعالى " ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب او نغى السمع وهو شهيد"^(٣).

وقال الشافعى موعظة القرآن لمن قلبه حاضر مع الله لا يغفل عنه طرفه عين^(٤).

وقد ذهب الى مثل هذا القول الصوفى يحيى بن معاذ الرازى حيث قال: " القلب قلبان . قلب قد احتشى باشغال الدنيا حتى اذا حضر امر من امور الآخرة لا يدري صاحبه ما يصنع من شغل قلبه بالدنيا وقلب قد احتشى باحوال الآخرة حتى اذا حضر امر من امور الدنيا لا يدري صاحبه ماذا يصنع لذهاب قلبه فى الآخرة"^(٥).

وقال السهروردى: " اصحاب التمكين يجمع لهم بين المشاهدة والفهم ، فموضوع الفهم محل المحادثة والمكالمة

(١) لمعرفة المزيد من تلك الرويات انظر احياء علوم الدين

ج ٢ ، ص ٢٩٤ ، ٢٩٥ .

(٢) سورة البقرة ، آية ١٧١ .

(٣) سورة ق ، آية ٣٧ .

(٤) السهروردى ، عوارف المعارف على هامش احياء علوم

الدين للغزالي ، ج ١ ، ص ٢٣٦ .

(٥) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

وهو سمع القلب ، وموضوع المشاهدة بصر القلب ، وللسمع
حكمة وفائدة ، وللبصر حكمة وفائدة ، فمن هو فى سكر
الحال يغيب سمعه فى بصره ، ومن هو فى حال المحـــــــو
والتمكين لا يغيب سمعه فى بصره ، لتملكه ناصية الحال .
ويفهم بالوعاء الوجودى المستعد لفهم المقال لان الفهم
مورد الالهام ، والسماع والالهام يستدعيان وعاء وجوديا
وهذا الوجود موهوب منشأ انشاء ثانيا للمتمكن فى مقام
الصحو وهو غير الوجود الذى يتلاشى عند لمعان نـــــــور
المشاهدة لمن جاز على ممر الفناء الى مقر البقاء (١) .

وقد ذكر القرطبي ان سماع رسول الله (ص) واصحابه
انما كان القرآن فاياه يتدارسون وفيه يتفاوضون ومعانيه
يتفهمون ويستعذبونه فى صلاتهم ، ويأمنون به فى خلواتهم
ويتمثلون به فى مجاولاتهم ، ويلجئون اليه فى جميع حالاتهم
فاذا سمعوه انصتوا كما امروا واذا قرووه تدبروا واعتبروا
فأحلوا جلالة ، وحرموا حرامه واقتبسوا احكامه يتخلقون
باخلاقه ويعملون على وفاقه علما منهم بانه طريق النجاة
ونيل الدرجات وتلاوته افضل العبادات ، واجل القربــــات
فانه حبل الله المتين ، والصراط المستقيم ، الذى
لا تزيف به الاهواء ولا تشبع منه العلماء . من قال به
صدق ، ومن عمل به اجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعى اليه
دعا الى صراط المستقيم . (٢)

ومن ذلك يتضح ان القرآن هو خير كلام يسمع لانه كلام
الله ووجد الصوفية فى سماعه باعشا على الوجد والتأمل
والتفكر فى الله .

(١) السهروردى : عوارف المعارف على هامش الاحياء ، ج١ ، ص ٢٣٨

(٢) انظر . محمد ابوالهدى العبادى المكنى بابى البركات ، روض

الاسماع فى احكام الذكر والسماع ، ص ٦٣ .

نخلص من ذلك الى ان الغزالي وغيره من الصوفية يذهب الى ان سماع القرآن الكريم يبعث على الوجد. وينتقد ابن الجوزي البغدادي هذا القول وينكر على من يسمي القرآن ويعشق او يزعم ويروي العديد من الاقوال التي اسندها الى اصحابها والتي يذهبون فيها الى انكار الوجد عن طريق سماع القرآن الكريم ومن اقواله في ذلك " اعلم وفكك الله ان قلوب الصحابة كانت اصفى القلوب وما كانوا يزدون عند الوجد على البكاء والخشوع فجرى من بعض غرائبهم نحو ما انكرناه فبالغ رسول الله صلى الله عليه وسلم في الانكار عليه" (١).

من أنس قال : وعظ رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فاذا رجل قد صفق فقال النبي صلى الله عليه وسلم من ذا الملبس علينا ديننا اذا كان صادقا فقد شهر نفسه وان كان كاذبا لمحقه الله" (٢).

ونقل عن مالك ابن أنس ايضا انه ذكر عنده هؤلاء الذين يمعقون عند القراءة (اي قراءة القرآن) فقال أنس : لقد رأيتنا وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم حتى سمعنا للقوم حنينا حين اخذتهم الموعظة وما سقسط منه أحد" (٣).

ويقول ابن الجوزي البغدادي : " وهذا حديث العرياض بن ساريه : وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب . قال ابوبكر

(١) ابن الجوزي البغدادي ، تلبيس ابليس ، ص ٢٥٢ .

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٣) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

الاجرى ولم يقل صرخنا ولا ضربنا صدورنا كما يفعل كثير من الجهال الذين يتلاعب بهم الشيطان" (١).

وروى عن أنس أيضا ان قتادة قال له : " ان اناسا اذا قرئ عليهم القرآن يمعقون فقال . ذاك فعل الخوارج" (٢).

ويكثر ابن الجوزى البغدادي من ذكر مثل هذه الرويات التي ينكر فيها اصحابها على من يتواجد عند سماع القرآن بان يزمق او يمعق او يغمى عليه او يحدث اى شئ من هذا القبيل ويقول ان الرسول والصحابة على صفاء قلوبهم كانوا لا يذيدون فى وجدهم عند سماع القرآن على البكاء وان تقشعر جلودهم (٣).

والغزالي يعتبر سماع القرآن الكريم هو سماع الكمل من اهل التصوف اما المريد المبتدىء فان الغناء يكون اشد تهيجا لوجده واثارة لقلبه وهذا ما سنتبينه من عرض وجهة نظره فى تحليل ذلك .

(٢) لماذا يكون تأثر السامعين ألوى بسماع اللطائف ؟

يوضح لنا الغزالي الاسباب التي من اجلها يعتبر الغناء اشد تهيجا للوجد من القرآن الكريم فيقول " فان قلت فان كان سماع القرآن مفيدا للوجد فما بالهــم

(١) انظر : تلبيس ابليس ، ص ٢٥٣ .

(٢) انظر باب التغنى بالقرآن . الدرامى ص ١٧١ ، وفنائل القرآن ، ص ٣٤ .

(٣) تلبيس ابليس ، ص ٢٥٠ الى ٢٦٠ .

(اى الصوفية) يجتمعون على سماع الغناء من القواليين دون القارئين ؟ فكان ينبغى ان يكون اجتماعهم وتواجدهم فى خلق القرآن لا خلق المغنيين . وكان ينبغى ان يطلب عند كل اجتماع فى كل دعوة كقارىء لا قوال . فان كلام الله تعالى افضل من الغناء لا محالة . فاعلم ان الغناء اشد تهيجا للوجد من القرآن من سبعة أوجه " (١) .

ويبدأ الغزالي فى سرد هذه الواجه كما يلى :

الوجه الاول :

يذهب الى ان آيات القرآن الكريم متنوعة ومتعددة الاغراض وليست جميعها تتناسب مع حال السامع بحيث تثير وجدّه فمن الايات ما يتحدث عن الموازين والمواريث او الطلاق او الحدود وهذه الايات الكريمة مع عظمتها وجلال قدرها اذا قرأت فى حضرة السامعين على اختلاف احوالهم فانها لا تتناسب معهم فمنهم التائب الندام ومنهم المشتاق العاشق ومنهم الحزين . فلا يحرك ما فى القلب الا ما يناسبه . واقوال القوال عادة تكون مناسبة لتلك الاحوال وبذلك يكون لها تأثيرا قويا على قلوب السامعين . واليك قول الغزالي فى ذلك : " ليست جميع ايات القرآن تناسب حال المستمع ولا تصلح لفهمه وتنزيله على ما هو ملائم له فمن استولى عليه حزن او شوق او ندم فمن اين يناسب حاله قوله تعالى : " يوميكُم الله فى اولادكم للذكر مثل حظ الانثيين " (٢) وقوله تعالى : " والذين يرمون المحصنات " (٣) .

(١) احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٩٥ .

(٢) سورة النساء ، آية ١١ .

(٣) سورة النور ، آية ٤ .

وكذلك جميع الايات التى فيها بيان احكام الميراث والطلاق والحدود وغيرها . وانما المحرك لما فى القلب ما يناسبه والابيات انما يفهمها الشعراء اعرابا بها عن احوال القلوب فلا يحتاج فى فهم الحال منها الى تكلف " (١) .

وهذا لا يعنى عند امامنا ان الايات القرآنية السالفة الذكر لا تشير وجد السامع على الاطلاق فهى قد تشير وجد من يستولى عليه حالة غالبة قاهرة لم تبقى فيه متسعاً لغيرها على ان يكون لديه يقظة وذكاء شاقب يتفطن به للمعانى البعيدة من الالفاظ الواردة فى الايات . فيحدث له الوجد عند سماعها مثل قوله تعالى : " يوصيكم الله فى اولادكم " (٢) فقد تذكره هذه الآية الكريمة بحالة الموت عند الوصية وان كل انسان لابد ان يخلف ماله وولده وهما محبوباه فى الدنيا فيترك احد المحبوبين للثانى ويهجرهما جميعاً فيغلب عليه الخوف والجزع . او يسمع هذه الآية عينها فتشير وجده عندما يخطر له رحمة الله على عباده وشفقته بان تولى تقسيم مواريتهم بنفسه سبحانه وتعالى نظراً لهم فى حياتهم وموتهم ، فيقول : اذا نظر لاولادنا بعد موتنا ، فلاشك بانه ينظر لنا ، فيهيح منه حال الرجاء ويورثه ذلك استبشاراً وسروراً . او يخطر له من قول الله تعالى : " للذكر مثل حظ الانثيين " (٣) . تفضيل الذكر على الانثى وان الفضل فى الآخرة لرجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله (٤) .

(١) احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٩٥ .

(٢) سورة النور ، آية ٤ .

(٣) سورة النساء ، آية ١١ .

(٤) احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٩٥ .

وامثال هذه الايات قد تحرك الوجد غير ان من يتحرك
وجده يمثل هذه الايات لابد في رأى امامنا ان يتوافر فيه
وصفان احدهما : حالة مستفرقة قاهرة . والاخر : تفتطن
بليغ وتيقظ بالغ كامل للتنبيه بالامور الغريبة على
المعاني البعيدة .

ويرى الغزالي ان هذه الامور عزيزة ولجل ذلك يفرع
السامع الى الغناء الذى هو الفاها مناسبة للاحوال فتشير
الوجد (١).

وقد قال الجنيد فى سماع القرآن وسماع الالحان ما
يشبه ذلك فقد ذهب الجنيد الى ان الاشعار من صنع الانسان
وضعها حسب احواله المتعددة ولذلك فان للنفس فيها حظ
اما القرآن فهو حق نزل من عند حق ، لا يليق بصفات الخلق
ولذلك فهو لا يطرب فى الدنيا واذا سمعوه فى الآخرة مسن
قائله اطربهم ولذلك لا يطرب له الا العلماء المقربون (٢).

وهذا يتفق مع رأى الصوفية وهو ان خاصة القوم هم
الذين يتأثرون بالقرآن لا بسماع الالحان ومن ذلك ما قاله
ابن القيم الجوزية من ان سماع القرآن هو سماع الانبياء
والمرسلين لا سماع المغنيين والمطربين (٣).

-
- (١) انظر احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٩٥ .
(٢) محمد بن ابي الهدى المكنى بابى البركات ، روض
الاسماع فى احكام الذكر والسماع ، ص ٦٤ .
(٣) ابن القيم ، مدارج السالكين ، طبعة اولى ،
ج ١ ، ص ٢٧٤ .

ويؤيد الغزالي ما ذهب اليه بما حدث لابي الحسن
النورى عندما كان فى مجلس مع جماعة فجرت بينهم مناقشة
حول مسألة فى العلم واهوالحسن كان ساكنا ثم رفع رأسه
وأنشد :

رب ورقاء هتوف فى الضحى
ذات شجو صدحت فى فنى
ذكرت الفا ودهرا صالحا
وبكت حزنا فهاجت حزنى
فبكائى ربما أرقها
وبكاها ربما أرقنى
ولقد أشكو فما أفهمها
ولقد تشكو فما تفهمنى
غير أنى بالجوى اعرفها
وهى ايضا بالجوى تعرفنى

فعندما سمع القوم هذه الابيات قاموا وتواجهوا
عليها واشارت وجدانهم بينما لم يحدث لهم ذلك من العلم
الذى خاضوا فيه وان كان العلم جدا وحقا (١).

الوجه الثانى :

وفيه يدلى الغزالي بسبب اخر يجعل السماع عن طريق
القصاص والاغاني اشد استشارة للوجد من سماع القرآن
الكريم وذلك ان القرآن محفوظ للكثيرين من الناس
ويسمعونه دائما ، ويتكرر سماعه فالفته الاسماع والقلوب
وهذه اللفة جعلته اقل تأثيرا فى استشارة الوجد فالانسان
عندما يسمع شيئا جديدا يثير وجدده وينفعل به غير ان هذا
الشيء اذا تكرر سماعه مرات ومرات الفته الاسماع والقلوب

(١) الغزالي ، الاحياء ، ج ٢ ، ص ٢٩٦ .

وصار تأثيره اضعف فى كل مرة والقرآن هو هو دائماً لا يتجدد سورة وآياته وانما يظل كما هو دون تغيير او تبديل آياته محفوظة مألوفة للاسماع لكثرة تردها اما القصائد التى ينشدها القوالون يمكن ان تحمل فى كل مرة كلمات جديدة تعبر عن نفس المعنى وفى كل مرة يكون لها أثر متجدد فى القلوب فتتواجد لسماعها . ويقول الغزالي فى ذلك ما نعه " ان القرآن محفوظ للاكثرين ومتكرر على الاسماع والقلوب وكل ما سمع اولاً ، عظم اثره فى القلوب وفى الكرة الثانية ، يهف أثره وفى الثالثة ، يكاد يسقط أثره . ولو كلف صاحب الوجد الغالب ان يحضر وجده على بيت واحد على الدوام فى مرات متقاربة فى الزمان فى يوم او اسبوع لم يمكنه ولو ابدل بيت اخر لتجدد له اثر فى قلبه وان كان معرباً عن عين ذلك المعنى ولكن كون النظم واللفظ غريباً فى كل وقت ودعوة ، فان القرآن محصور لا يمكن الزيادة عليه وكله محفوظ متكرر" (١) .

واشار الغزالي الى قول الصديق رضى الله عنه عندما رأى الاعراب يقدمون فيستمعون القرآن ويبكون فقال " كنا كما كنتم ولكن قست قلوبنا " ويقول الغزالي " ولا تظن ان قلب الصديق رضى الله عنه كان اقصى من قلوب الاجلاف من العرب او كان اخلى من حب الله تعالى وحسب كلامه من قلوبهم ولكن التكرار على قلبه اقتضى المرون عليه وقله التأثر به لما جعل له من الانس بكثرة استماعه اذ يحال فى العادات ان يسمع السامع اية لم يسمعها من قبل فيبكي ثم يداوم على البكاء عليها عشرين سنة ثم يرددها ويبكى" (٢) .

(١) الغزالي ، احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٩٦ .

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

ولاشك ان كل غريب جديد وكل جديد له لذة وله موقع من النفس وتأثير فى القلب ويرى الغزالي ان تلك هى الحكمة التى من اجلها منع عمر بن الخطاب رضى الله عنه الناس من كثرة الطواف بالكعبة وقال : قد خشيت ان يتهاون الناس بهذا البيت اى يأنسوا به (١) .

ولا أدل على ذلك من ان من يقدم حاجا ويرى البيت الحرام يبكى لرؤيته ويحدث ذلك فى قلبه خشية وفى نفسه تأثيرا عظيما وربما غشى عليه لفرط تأثره ، غير انه اذا اقام بمكة والفارسية البيت لا يحدث له نفس الانفعال الذى حدث عند رؤيته لأول مرة (٢) .

وهذا كما يرى امامنا شأن المغنى الذى يستطيع ان يتغنى بابيات غريبة على الاسماع فى كل مرة يقول فيها . ولكن مقرئ القرآن لا يقدر ان يأتى بايات قرآنية غريبة فى كل وقت (٣) .

الوجه الثالث :

كما يذهب الغزالي الى ان الشعر كلام موزون وله موسيقى خاصة اذا تغنى به المغنى بالحان جميلة وموت طيب كان لذلك تأثيره العظيم فى النفس فيؤدى الى وجد السامع ويكون تأثيره قويا .

(١) الغزالي ، احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٩٦ .

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٣) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

والقرآن يقرأ بصوت طيب ولكنه غير موزون لان الوزن يوجد فى الشعر دون الايات . وبذلك تكون درجة تأثير السامع بالابيات الموزونة وشدة طربه بها.ويقول امامنا فى ذلك ما نعه " ان لوزن الكلام بذوق الشعر تأثيرا فى النفس فليس الصوت والوزن الطيب كالصوت الطيب الذى ليس بموزون وانما يوجد الوزن فى الشعر دون الايات ، ولو حرف المغنى البيت الذى ينشده او لحن فيه او مال على حد تلك الطريقة فى اللحن لاضرب قلب المستمع وبطل وجده وسماعه ونفر طبعه لعدم المناسبة ، واذا نفر الطبع اضرب القلب وتشوش ، فالوزن اذن مؤثر فلذلك طاب الشعر(١)

الوجه الرابع :

ان الغناء يستخدم فيه الحان مختلفة او طــــرق متعددة للاداء والتي يكون منها مد المقصور ، وقصــــر الممدود والوقف والقطع الوصل وغيرها من النغمات وطريقة الاداء التى يستوجبها اللحن ، حتى يكون مؤثرا فى النفوس . اما القرآن الكريم فلا يجوز لقارئه ان يفعل ذلك ، فهو ملتزم باحكام التلاوة والترتيل ، وعلى ذلك يفتقد السامع احد المؤثرات التى تشير وجده وهو الالحان والنغمات العذبة . ويقول الغزالي ما نعه : " ان الشعر الموزون يختلف تأثيره فى النفس بالالحان التى تسمى الطرق والديساتانات ، وانما اختلاف تلك بمد المقصور، وقصر الممدود ، والوقوف فى اثناء الكلمات والقطع والوصل فى بعضها ، وهذا التصرف جائز فى الشعر ولا يجوز فى القرآن الا التلاوة كما انزل فقصره ومدّه والوقف والوصل والقطع

(١) الغزالي ، احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٩٦ .

فيه على خلاف ما تقتضيه التلاوة حرام او مكروه . واذا رتل القرآن كما انزل سقط عنه الاثر الذى سببه وزن الالحان (١) .

الوجه الخامس :

ان الاغاني الملحنة الموزونة تغنى على نغمات الالات الموسيقية التى تساعد بدورها فى جعلها مؤثرة مما يساعد على استشارة الوجد الذى لا يستشار الا بدافع قوى فالكلام الموزون مع اللحن والصوت الحسن ومصاحبة الالات الموسيقية له فانها مجتمعة يكون لها قوة تأثير والقرآن الكريم لا يمكن ان يصاحب بمثل هذه القرائن لان كلام الله اجل واعظم من ان يمزج بهذا اللهو . فلا يجوز ان يختلص الحق المحض بما هو للهو عند العامة . فينبغى ان يكون للقرآن وقاره وجلاله . ولذلك فان الصوفية يستخدمون فى مجالس السماع الانشاد الدينى مصحوبا بالالات الموسيقية كالدف وغيرها .

اما القرآن فله حرمة فلا يجوز ان يقرأ الا من انسان طاهر فى مجلس ساكن يسوده الخشوع والهدوء ولا يفى بحق حرمة القرآن الا المراقبون لاحوالهم ، ولذلك يستحسن الغناء فى مجالس السماع لانه لا يستحق كل هذه المراقبة والمراعاة ولانه يثير اصحاب الوجد الضعيف .

ويدعم الغزالي قوله بما وقع من الرسول (ص) عندما دخل بيت " الربيع بنت معوذ " وكان عندها جوار يغني فسمع احداهن تقول " وفيينا نبى يعلم ما فى غد " على وجه الغناء فقال صلى الله عليه وسلم " دعى هذا وقولنى ما كنت تقولين " وهذه شهادة بالنبوة فزجرها عنها وردّها

(١) الغزالي ، احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٩٦ .

الى الغناء الذى هو لهو لان هذا جد محض فلا يقرب بصورة
اللهو . فاذا يتعذر بسببه تقوية الاسباب التى بها يصير
السمع محركا للقلب فى الاحترام والعدول الى الغناء عن
القرآن . كما وجب على تلك الجارية العدول من شهادة
النبوة الى الغناء^(١) .

الوجه السادس :

ان المعنى او المنشد قد ينشد بيتا لا يوافق حال
السامع فلا يتقبله ويكره ان يسمعه وينهاه عنه ويطلب منه
ان يقول غيره ، فان كان حال تطلب ما يناسبها من الاقوال
ولو قرئ القرآن فى مجالس السماع وقرأ المقرئ آية
او آيات كريمة لا توافق حال السامع فلا يجوز ان يكره
سماعها ويطلب من المقرئ ان يقرأ غيرها مما يوافق حاله
ولتجنب الوقوع فى مثل هذا استحسن السامع من طريق الغناء
حيث ان كلام الشاعر يجوز تنزيله على غير مراده اما كلام
الله فيجب توقيره وميانه ولا يجوز الا على ما اراد الله
وليس ما اراد الانسان . ويقول الغزالي ما نعه : " لا يؤمن
ان لا يوافق المقرؤ الحال وتكرهه النفس فيتعرض به
لخطر كراهه كلام الله تعالى من حيث لا يجد سبيلا الى
دفعه ، فالاحتراز عن خطر ذلك حزم بالغ ، وحتم واجب
اذ لا يجد الخلاص عنه الا بتنزله على غير مراده ، ففيه
خطر الكراهه ، او خطر التأويل والخطأ لموافقة الحال
فيجب توقير كلام الله تعالى وميانه عن ذلك . وهذا ما
ينقدح لى فى علل انصراف الشيوخ الى سماع الغناء عن
سماع القرآن^(٢) .

(١) الغزالي ، الاحياء ، ج ٢ ، ص ٢٩٧ .

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

الوجه السابع :

وهذه الحجة قد ذكرها ابونصر السراج الطوسي واستند اليها الغزالي و اضافها الى حجه السابقة وهى ان القرآن الكريم كلام الله وصفه من صفاته وهو حق لا تطبيقه البشرية لانه غير مخلوق فلا تطبيقه الصفات المخلوقة ولو كشف للقلوب ذرة من معناه وهيبته لدهشت وتصدعت اما الالحان الطيبة فهي مناسبة للطباع الانسانية موافقة لحظوظ البشرية فاذا اجتمعت الالحان الجميلة بالاصوات العذبة بالشعر وما يحمله من الاشارات واللطائف انسجم بعضها مع البعض الاخر وكانت اقرب الى الحظوظ واخف على القلوب لمشاكله المخلوق للمخلوق . فكون الانسان يتنعم بالنعيمات الشجية والاصوات الطيبة والالحان فعليه ان يستخدمها فى سماعه لا مطناع الوجد . ويقول امامنا ما نصح : " وهنا وجه سابع ذكره ابونصر السراج الطوسي فقال القرآن كلام الله وصفة من صفاته وهو حق لا تطبيقه البشرية لانه غير مخلوق فلا تطبيقه الصفات المخلوقة . ولو كشف للقلوب ذرة من معناه وهيبته لتصدعت ودهشت وتحيرت والالحان الطيبة مناسبة للطباع ونسبتها نسبة الحظوظ لا نسبة الحقوق . والشعر نسبته نسبة الحظوظ فاذا علقت الالحان والاصوات بما فى الابيات من الاشارات واللطائف شاكل بعضها بعضا وكان اقرب الى الحظوظ . واخف على القلوب لمشاكله المخلوق للمخلوق" (١) .

والشعر والغناء يتفق مع طباع السامعين ويؤثر فى قلوبهم لانه مخلوق مثلهم فهو يناسبهم . واما القرآن

(١) الغزالي ، الاحياء ، ج ٢ ، ص ٢٩٧ .

فنظمه خارج من اساليب الكلام ومنهاجه وهو لذلك معجز
لا يدخل فى قوة البشر لعدم مشاكلته لطبعهم وهذا الرأى
قد ذهب اليه ايضا الجنيد وقد سبق ذكره .

وتعليقا على تلك الحجج التى اوردها الغزالى فى
علة سماع الصوفية وتواجدهم على القصائد والالحان اكثر من
تواجدهم لسماع القرآن اقول ان للصوفية فى السماع مقامات
قد سبق الحديث عنها فمنهم من يسمع بحاله وهذا يسقط ما
يسمع على احوال نفسه المتعددة من خوف او انس او رجاء
او شوق .. الى اخر ما ذكرنا من تلك الاحوال والسماع فى
هذا المقام يتاثر بسماع الالحان والقصائد فهى تملح له
وتناسب مقامه ودرجته وهو فى تلك الدرجة قد يجد فيها
ضالته المنشودة فيستجيب لها ويتاثر بها ايما تاثير فهى
ترقق قلبه وتبعث فيه الخشوع والخوف من الله وتزهده فى
الدنيا وتذكره بالآخرة وتقوى عزيمته ولا بأس فى ذلك
فما يساعد على تحقيق الخير فهو خير .

وهناك السماع الربانى وهو سماع الكمل من القوم
والذى قلنا ان اصحابه لا تؤثر فيهم النغمات وانما سماعهم
من الله وفى الله والله فهو لا فى مقام اعلى ودرجة
تعدت احوال النفس وحظوظها فهم يفضلون سماع القرآن على
سماع الالحان التى هى غالباً سماع السالك فى بداية الطريق
اما الكمل من القوم فلا يحتاجون اليها فى اشارة وجدهم
فهم يتدبرون القرآن الذى يهدى للتى هى اقوم . ولذلك
قال الجنيد : " كل مرید رأيتہ يميل الى السماع) ويعنى
سماع الغناء) فاعلم ان فيه باقية من البطالة " (١) .

(١) السهروردى ، آداب المريدين ، ص ١٠٧ .

او كما يقول الصوفية السماع لقوم كالغذاء ولقوم
كالدواء ولقوم كالداء ولقوم كالمروحة . (١)

هذا ولا شك ان الصوفية على اختلاف مقاماتهم سواء من
كان منهم في بداية الطريق او من بلغ منهم المقامات
العالية والدرجات الرفيعة في القرب من الله يحبون سماع
القرآن ويقرءون ما تيسر منه وينعتون اليه لانه يهدي
للتى هي اقوم ويتدبرونه لان قلوبهم عامرة بحب الله وحب
كلماته الصادقة ويعرفون له قدره وانما يستخدون السماع
بالغناء ترويحاً لقلوبهم وارواحهم من كثرة الجد واجلالا
وتعظيماً للقرآن من ان يفهمه اصحاب الاحوال على غير معناه .

(١) السهروردي : آداب المريدين ، ص ١١٠ .

الفصل الثالث

رأى من حرموا السماع وأدلتهم

الفصل الثالث

رأى من حرموا السماع وأدلتهم

اختلفت الآراء حول السماع ، هل هو حلال ام حرام ؟ ذهب فريق من العلماء الى ان سماع الغناء والالحان حلال لا حرمه فيه واستندوا فى ذلك على ادلة نقلية من الكتاب والسنة وأخرى عقلية . وذهب فريق آخر الى عدم تجويز السماع وانكروه واعتبروه مدخلا للشيطان يدخل منه الى نفس الانسان المؤمن فيصرفه عن جاد الامور الى اللهو ويبعده عن الله ويقربه الى الشهوات والنزوات .

وسنعرض لرأى اولائك وهؤلاء . ثم نقف معا على رأى الغزالي ، وسنبداً أولاً برأى من حرموا السماع ونقف على ما استندوا اليه من الادلة والحجج .

ولاشك ان هناك عوامل دعت المنكرين للسماع الى اتخاذ هذا الموقف ومن ذلك أنهم يرون ان الغناء فى ظاهره أقرب الى المجون واللهو منه الى الجد والوقار وان السامعين للغناء كثيراً ما يتمايلون ويتراقصون ويمسقون وهذا فى رأيهم ما لا يتفق مع هيبة الدين وجلال العبادات والاذكار ، وان مجالس السماع لم تكن تنعقد فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم فاعتبروه لذلك غير جائز ، فوصفوا السماع بأنه من مكاييد الشيطان ومماثله التى كاد بها من قل نصيبه من العلم والعقل والدين وماد بها قلوب الجاهلين والمبطلين وهو قرآن الشيطان والحجاب الكثيف عن الرحمن وهو رقيه اللوط والزنا وبه

منال العاشق الفاسق من معشوقه غاية المنى واتخذ لاجله القرآن مهجورا^(١).

كما يعيبون على الصوفية ما يصدر عنهم من انفعالات او حركات بدنية اثناء السماع وفي ذلك يقول ابن القيم الجوزية: " فلو رأيتهم عند ذياك السماع وقد خشعت منهم الاصوات وهذأت منهم الحركات وعكفت قلوبهم بكليتها عليه وانصبت انصبابه واحدة اليه فيتمايلون له ولا كتمايل النشوان ، وتكسروا في حركاتهم ورقصوا ، أرأيت تكسر المخانيث والنسوان ؟ ويحق لهم ذلك وقد خالط خمسه النفوس لفعل فيها أعظم ما يفعله حميا الكوؤس . فلغير الله ، بل للشيطان قلوب هناك تمزق واثواب تشق واموال في غير طاعة الله تنفق"^(٢).

وقال ابن الجوزي البغدادي^(٣): " اعلم ان سماع الغناء يجمع بين شيئين . احدهما انه يلهى القلب عن التفكير في عظمة الله سبحانه وتعالى ، والقيام بخدمته والثاني : انه يميل الى اللذات العاجلة التي تدعو الى

(١) ابن القيم الجوزية : حكم الاسلام في العناء . تحقيق ابو

حذيفة ابراهيم بن محمد ، ص ٧ .

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٣) هو الحافظ جمال الدين ابي الفرج عبدالرحمن بن الجوزي

البغدادي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ وهو مفكر موسوعي له

مصنفات عديدة في مختلف فروع العلم المعروفة

في عصره وهو من اعلام الاسلام المشهورين .

استفائها من جميع الشهوات الحسية يحث على الزنا
فبين الغناء والزنا تناسب من جهة ان الغناء لذة الروح
والزنا اكبر لذات النفس ولهذا جاء في الحديث الغناء
رقية الزنا" (١).

والغزالي يرد على تلك الاعتراضات وغيرها وهذا ما
سيأتى تفصيله بعد .

والحق أن امامنا وغيره من الصوفية السابقين عليه
واللاحقين له ممن أباحوا السماع كما تبين لنا فيما سبق
ينكرون اللهو في السماع ويحرمونه ويفضون آداب وقواعد
للسلوك يشترطون ان يلتزم بها المسموع والسماع على
السواء . تلك القواعد اذا روعيت في السماع جانبته اللهو
والعبث وجعلته اقرب الى الجد والخشوع والوقار .

ويرى السهروردي البغدادي ان هؤلاء العابثين
المدعين قد أساءوا الى السماع وتسببوا في انكساره
والهجوم عليه لما يمتنعونه من الحركات غير الملتزمة
والادعاء غير الصادق للوجد وغلبه الحال ويقول ما نعه
" وذلك اذا سمع ايقاعا موزونا يؤدي ما سمعه الى طبع
موزون فيتحرك بالطبع الموزون للصوت الموزون والايقاع
الموزون وينسبل حجاب نفسه المنبسط بانبساط الطبع
على وجه القلب ويستفزه النشاط المنبعث من الطبع فيقوم
ويرقص موزونا ممزوجا يتنعم ، وهو محرم عند أهل الحق

(١) تلبس ايليس ، الطبعة الثانية : ادارة الطباعة الميرية

١١٦٨ هـ ، ص ٢٢ اخرج الحديث ابوداود في سننه ٢٧٩ / ٧

واخرجه العرافي على الاحياء ٢/٢٨٣ - والسيوطي الجامع

الصغير ٢/٧٣ ، والقرطبي ١٤/٥٢ .

ويحسب ذلك طيبه لله تعالى . ولعمري هو طيبه للقلوب
ولكن قلب ملون بلون النفس ، ميال الى الهوى موافق
للردى لا يهتدى الى حسن النية فى الحركات ، ولا يعترف
شروط صحة الارادات ولمثل هذا الرقص قبل الرقص نقص
لانه رقص مصدره الطبع غير مقتن بنية سالحة . ويقول ايضا
" فكم من حركات موجبة للمقت ، وكم من نهضات تذهب رونق
الوقت ، فيكون انكار المنكر على المريد الطالب يمنعه
عن مثل هذه الحركات ويحذر مثل هذه المجالس وهذا انكار
صحيح " (١) .

وقد ذكر الغزالي جملة من علماء المسلمين الذين
أنكروا السماع ومالوا الى تحريمه فقال ما نعه : " ان القاضي
ابوالطيب الطبرى حكى عن الامام الشافعى ومالك وابى
حنيفة وسفيان وجماعة من العلماء الفاظا يستدل بها على
انهم رأوا تحريمه " (٢) .

واذا حاولنا تبين رأى الامام الشافعى فى السماع
نجد فى كتابه " آداب القضاء " يذكر ان الغناء لهو
مكروه يشبه الباطل ، ومن استكثر منه فهو سفيه ترد
شهادته " (٣) .

وقد حكى عن الشافعى أنه كان يكره الطقطقة
بالقضب ويبرى ان الضرب به من وضع الزنادقة ليشغلوا

(١) السهروردى : عوارف المعارف ، على هامش احياء

علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٣٨ .

(٢) الغزالي : احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٣٨ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٦٦ .

به الناس عن قراءة القرآن. وأن كبار اصحاب الشافعى (١)
ينكرون السماع ولم يجوزوا الغناء ولا الضرب بالقضيب (٢).

وعلى الرغم من ان الشافعى لم يقطع بتحريم الغناء
الا انه جعله مكروها فى العوام وفى ذلك يقول الامام
القشيرى : " واما الشافعى رحمة الله فانه لا يحرمه
ويجعله فى العوام مكروها ، حتى لو احترف الغناء او
اتصف على الدوام بسماعه على وجه التلوى ، ترد به
الشهادة ويجعله مما يسقط المروءة ولا يلحقه بالمحرمات (٣)

ويمكن ان نتبين من هذا النص ان الامام الشافعى
يرى فى انشغال المرء بسماع الغناء وانصرافه الى ذلك
بدلا من قراءة القرآن والتعبد لله ، كراهة . وان من
يحترف الغناء ، ومن اتصف على الدوام بسماعه طلبا للهو
والمتعة ، ترد شهادته . غير انه لا يلحق الغناء بالمحرمات

وقد قال اسماعيل بن عليه احد اصحاب الشافعى ما
نعه : " كنت اتمشى مع الشافعى رحمه الله تعالى وقضيت
الهجير فجزنا بموقع يقول فيه احد شيئا فقال : " مل بنا
اليه ، ثم قال : أيطربك هذا . قلت : لا . فقال ما لك حس (٤) .

(١) من اصحاب الشافعى الذين ينكرون السماع ابو الطيب الطبرى
وله مصنف فى ذم الغناء . ومنهم ايضا القاضى ابوبكر
محمد بن مظفر الشامى - انظر ابن الجوزى البغدادى : تلبيس
ابليس ، ص ٢٣٠ .

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٣) القشيرى : الرسالة . تحقيق د . عبد الحليم محمود ، ومحمد بن

شريف ، ج ٢ ، ص ٦٣٨ .

(٤) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

ومن ذلك النص يمكن أن نستشف ان الشافعى كسان يتذوق الالخان ويطرب لها، غير ان اصحابه واتباعه قد انكروا على من نسب اليه القول بحل السماع ومن هؤلاء القاضى ابوالطيب الطبرى والشيخ ابواسحق وابن الصباغ فقد قال ابواسحق فى كتابه "التنبيه" ولا تصح الاجارة او الجزاء على العمل على منفعة محرمة" وقال ايضا فى "المهذب" لا يجوز اخذ العوض عن المنافع المحرمة^(١)، وهو يعتبر الغناء ومنفعته محرما .

وقد لخص ابن القيم الجوزية رأى ابواسحق وهو كما نعلم شافعى المذهب فى النقاط التالية :

- (١) ان منفعة الغناء بمجرد منفعة محرمة .
- (٢) ان الاستأجار عليه باطل .
- (٣) ان أكل المال به أكل مال بالباطل بمنزلة أكل عوضا عن الميتة والدم .
- (٤) انه لا يجوز للرجل بذل ماله للمغنى ويحرم عليه ذلك. فانه بذل ماله فى مقابلة محرم وان بذله فى ذلك كبذله فى مقابلة الدم والميتة .
- (٥) ان الزمر حرام .

وقد يبدو ان هناك خلاف بين اصحاب الشافعى فى موقفهم من السماع غير ان عمر بن العلاء قال فى فتاويه موضحا هذا الامر : " ولم يثبت ان احد ممن يعتد بقوله فى الاجماع والاختلاف ، انه اباح هذا السماع . والخلاف المنقول

(١) انظر : ابن القيم الجوزية : حكم الاسلام فى الغناء ،

تحقيق ابو حنيفة ابراهيم بن محمد ، ص ١٢ .

عن بعض أصحاب الشافعي إنما نقل في " الشبابة " (١) منفردة ،
و" الدف " (٢) منفردا . فمن لم يحمل أولا بتأمل ربما اعتقد
خلاف بين الشافعيين في هذا السماع الجامع لهذه الملاهي
وذلك وهم بين من العائر اليه ، تنادى عليه أدلة الشرع
والعقل . مع أن ليس كل خلاف يستروح اليه ويعتمد عليه ، ومن
تتبع ما اختلف فيه العلماء ، وأخذ بالرخص من أقاويلهم
ترندق أو كاد " (٣) فهو يرى أن أصحاب الشافعي متفقين فسي
تحريم الغناء وإذا كان بينهم خلاف فهو فقط على استعمال بعض
الالات الموسيقية في العزف كالدف والشبابة فبعضهم قال
بحلها والبعض الآخر حرمها . كما أن ابن الملاح يحذر من
اتخاذ هذا الخلاف مبررا للقول بحل السماع لأن ذلك في رأيه
يؤدى الى الزندقة .

وقد تواتر عن الشافعي أنه قال : " خلفت ببغداد
شيئا أحدثه الزنادقة يسمونه " التغيير " (٤) يهدون به عن
القرآن " (٥) .

- (١) آلة موسيقية وهي من جملة المزامير واشدها طربا وتسمى
" اليراع " أيضا .
- (٢) الدف آلة موسيقية متخذة من الجلد .
- (٣) ابن القيم الجوزية : حكم الاسلام في الغناء ، تحقيق ابو حذيفة
ابراهيم بن محمد ، ص ١٢ .
- (٤) التغيير هو الضرب على القضيب على مخدة من الجلد حتى يطير
الغبار منها - والمغبره قوم يغبرون بذكر الله بدعاء وتضرع
وقد سموا ما يطربون فيه من الشعر في ذكر الله تعالى
تغييرا - كأنهم اذا شاهدوها بالالحن طربوا ورقصوا
فسموا مغبره لهذا المعنى - وقال الحجاج سموا مغبرين
لترهيدهم الناس في الدنيا وترغيبهم في الآخرة - انظر ابن
الحوزي البغدادي ، تلبيس ابليس ، ص ٢٣٠ .
- (٥) ابن القيم ، حكم الاسلام في الغناء ، تحقيق ابو حذيفة ، ص ١٣ .

ويعلق ابن القيم الجوزية على النص السابق للشافعي فيقول ما نصه " اذا كان هذا القول فى " التغبير" وتعليقه انه يعد عن القرآن وهو شعر يزهد فى الدنيا يغنى به مفسن فيضرب بعض الحاضرين بقضيب على نطح (وهو بساط من الاديــــــــم او الجلد) او مخدة على توقيع غناؤه فليت شعري فسماع التغبير منه كتفلة فى بحر ، وقد اشتمل على كل مفسدة وجمع كل محرم ، فله بين دينه وبين كل متعلم مفتــــــــــــــــون وعاهد جاهل" (*) .

وبذلك انتهى ابن القيم الجوزية الى ان الامــــــــام الشافعي قد حرم السماع واعتبره زندقة . وسنعرض بعد لرد الامام الغزالى على اقوال الامام الشافعي فى السماع .

أما الامام مالك بن أنس فقد قال عنه الامام القشيري أنه اباح السماع ، فى حين ان الامام الغزالى قال انه نهى عنه ويمكننا القول ان الامام مالك قد نهى عن السماع وان كان لم يحرمه .

وقول القشيري فى ذلك : " فمن قال باباحته من السلف مالك بن أنس وأهل الحجاز كلهم يبيحون الغناء واما الحداء فاجماع منهم على اجازته" (١) .

ومن هذا النص للقشيري يمكن ان نستدل على ان مالك قد أباح الغناء وأما الحداء فهناك اجماع على اجازته .

(*) ابن القيم الجوزية : حكم الاسلام فى الغناء . تحقيق

ابوحذيفة ابراهيم بن محمد ، ص ١٤ .

(١) القشيري ، الرسالة القشيرية ، ج ٢ ، ص ٦٣٨ .

اما الغزالي ففي عرضه لرأى مالك في الغناء فقال ما نعه : " وأما مالك رحمه الله فقد نهى من الغناء وقال اذا اشترى جارية فوجدتها مغنية كان له ردها وهو مذهب سائر أهل المدينة" (١).

ويتضح لنا من هذا النص ان مالك قد نهى من الغناء وانه يجوز لمن يشتري جارية ويجد انها تجيد الغناء يردها الى من اشتراها منه وان ذلك مذهب أهل المدينة (٢).

اما ابن القيم فقد ذكر ان مالك نهى من الغناء ومن استماعه ونسب اليه القول السابق وهو من اشترى جارية ووجدها مغنية كان له ان يردها بالعيب ثم اضاف ان مالك سئل عما يرخص فيه أهل المدينة من الغناء. فقال : انما يفعلونه عندنا الفساق" (٣).

وقد سأل ابن القاسم الامام مالك عن الغناء فقال : " فمادّا بعد الحق الا الضلال " (٤).

ويمكننا ان تخلص من ذلك كله الى ان الامام مالك قد نهى عن السماع وانه لا يفضلّه وان كان لم يقطع بتحريمه .

-
- (١) الغزالي : احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٦٧ .
(٢) وقد شد عن أهل المدينة في عدم اباحة السماع الفقيه ابراهيم بن سعد وحده فقد حكى زكريا الساجي انه كان لا يرى في الغناء بأس ، انظر ، تلبيس ابليس لابن الجوزي البغدادى ، ص ٢٢٩ .
(٣) ابن القيم الجوزية : حكم الاسلام في الغناء تحقيق ابو حذيفة ابراهيم بن محمد ، ص ٣٧ .
(٤) المرجع السابق ، نفس الصفحة . وانظر ايضا حكم الاسلام في الغناء للشيخ ابي بكر جابر الجزائري ، ص ٣٧ .

أما رأى الامام أبوحنيفة فى السماع فقد نقل الغزالى
عن القاضى أبوالطيب الطبرى ما نعه : " أما أبوحنيفة فكان
يكره الغناء ويجعله من الذنوب وكذلك سائر أهل الكوفة " (١)

وجلى من هذا النص أن الامام أبوحنيفة كان يكره
السماع واعتبر من يسمع الغناء والالحن كمن يرتكب ذنباً
فالسماع عنده من الذنوب .

ويذهب ابن القيم الجوزية الى أن مذهب فقهاء الكوفة
يتفق على اعتبار السماع من الذنوب وكذلك أهل البصرة (٢)
ويرى ان مذهب أبى حنيفة فى السماع من أشد المذاهب وقوله
فيه أغلظ الاقوال وان اصحابه قد صرحوا بتحريم سماع الملاحى
كلها كالمزمار والدف حتى الضرب بالقضيب ، وقالوا أنه
معصية يوجب الفسق وترد به الشهادة . ويقول ابن القيم
ما نعه : " وأبلغ من ذلك أنهم قالوا ان السماع فسق
والتلذذ به كفر هذا لفظهم " (٣) .

كما ذكر ابن القيم الجوزية رأى اصحاب أبوحنيفة وهو
ان الانسان عليه أن يجتهد فى الا يسمع الغناء واذا مر به
او كان فى جواره فيحاول الا يصل صوت الغناء اليه (٤) .

-
- (١) الغزالى : احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٦٧ .
(٢) ابن القيم : حكم الغناء فى الاسلام ، تحقيق أبوحديقة ابراهيم
ص ١١ .
(٣) يذكر ابن الجوزى فى كتابه تلبيس ابليس ان فقهاء البصرة
اعتبروا السماع من الذنوب ، الا عبد الله بن حسن العنبرى
الذى كان لا يرى به بأسا .
(٤) ابن القيم الجوزية : حكم الغناء فى الاسلام . تحقيق أبوحديقة
ابراهيم بن محمد ، ص ١١ .

وقال ابو يوسف وهو من اصحاب ابو حنيفة ما نصه :
 " ادخل عليهم (أى من يجلسون فى مجالس السماع) بغير
 اذنهم لان النهى من المنكر فرض فلو لم يجز الدخول بغير
 اذن لامتنع الناس عن اقامة الغرض" (١) فابو يوسف يجعل
 الغناء منكرا يجب النهى عنه فاذا رأى المسلم مجلسا
 للسماع دخل عليهم بدون اذنهم ليمنعهم من الاستماع كان
 ذلك جائزا على مذهب ابى حنيفة .

وبذلك يمكن القول ان الامام ابو حنيفة كان ينكر
 الغناء واعتبر السماع من الذنوب .

ولا يقل موقف الامام احمد بن حنبل تشددا عن مواقف
 ائمة الفقة الذين سبق توضيح موقفهم من السماع . فقد روى
 ابن داود ما نصه : " حدثنى أحمد بن حنبل أنه يكره السماع
 وكان أبى يكرهه " (٢) .

وقد جاء فى " تلبيس ابليس " لابن الجوزى البغدادى
 أن احمد بن حنبل كان يكره السماع ولا يفضل كوسيلة لترقيق
 القلب واصطناع الوجد واعتبره بدعة " . (٣)

كما روى عبدالله بن احمد بن حنبل ما نصه : " سألت
 أبى عن الغناء . فقال : الغناء ينبت النفاق فى القلب

(١) ابن القيم الجوزية : حكم الغناء فى الاسلام ، تحقيق ابو حذيفة

ابراهيم بن محمد ، ص ١١ .

(٢) الغزالى : احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٦٧ وانظر

ايضا ابن الجوزى البغدادى ، تلبيس ابليس ، ص ٢٢٨ .

(٣) انظر ، ص ٢٢٨ .

(١) لا يعجبني " ثم ذكر قول مالك " انما يفعله عندنا الفساق " .

ويذهب ابن القيم الجوزية الى ان احمد بن حنبل قد نص على كسر الات اللهو كالطنبور^(٢)، وغيرها اذا رآها الانسان مكشوفة ويمكن كسرها اذا كانت مغطاة تحت ثياب وعلم بوجودها^(٣) .

كما نسب ابن القيم الجوزية الى الامام احمد بن حنبل انه جعل منفعة الغناء محرمة وان ما يأتي من اموال مقابل الغناء ليس حلالا ويستشهد على ذلك بان أيتاما ورثوا جارية مغنية وأرادوا بيعها فقال " لا تباع الا على انها ساذجة (بمعنى) انها لا تعرف الغناء) فقالوا: اذا بيعت مغنية ساوت عشرين الفا او نحوها ، واذا بيعت ساذجة لا تساوي سوى الفين فقط . فقال : لا تباع الا على انها ساذجة " فلو كانت منفعة الغناء مباحة لما فوت هذا المال على الايتام ومن ذلك يستدل على ان منفعة الغناء محرمة^(٤) .

وقد ذكر ابن الجوزي البغدادي أن الامام احمد بن حنبل قد كره القمائد والغناء بعد ما قيل له أنهم يتمايلون ويتماجنون عند سماعهم لها .

(١) ابن القيم الجوزية : حكم الاسلام في الغناء ، تحقيق ابو حذيفة

ابراهيم ، ص ١٤ .

(٢) "الطنبور" بضم اوله قال عنه الهيثمي في كتابه

"الزواجر" ، ج ٢ ، ص ١٨٧ ، انه غير العود ، والطنبور

اسم جنس لكل الات الطرب الوترية .

(٣) ابن القيم الجوزية : حكم الاسلام في الغناء ، تحقيق ابو حذيفة

ابراهيم ، ص ١٤ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٤ ، ١٥ .

وقد روى عنه ما يدل على انه لا بأس بها وأنه قد سمع قولاً في بيت أبه صالح فلم ينكره وعندما سأله أبه قائلاً : يا أبت الست كنت تنكر هذا فقال : إنما قيل لى أنهم يستعملون المنكر فكرهته ، فأما هذا فاني لا أكرهه وكان ما سمعه قصاد في الزهد^(١) .

وان صح هذا فانه يدل على ان الامام ابن حنبل لا ينكر الانشاد الديني في حد ذاته الذي يبحث على الزهد ويذكر بأمور الآخرة ويرقق القلب وانما ينكر ما يحدثه المستمعون من تمايل وتماجن عند سماعهم .

وهكذا يتضح لنا مما سبق ان أئمة الفقه الاربعة الشافعي ومالك وابو حنيفة واحمد بن حنبل كرهوا السماع ولم يحذوه ومالوا الى تحريمه وخاصة الغناء الماجن الذي يعرف السامع عن الدين وكرهوا ان يتخذ الانسان الغناء مهنة له .

هذا وقد هاجم السماع ايضاً جملة من علماء المسلمين من بينهم الصوفي ابن القيم الجوزية الذي يعف السماع بأشد الالفاظ تجريحاً محاولاً اثبات تحريمه شرعاً وأورد الكثير من الأدلة الشرعية على تحريم الغناء .

وقد أطلق على سماع الغناء السماع الشيطاني المضاد للسمع الرحمانى ويقعد بالسمع الرحمانى سماع القرآن الكريم . ومن الاوصاف التي وصف بها السماع قوله هو اللهو واللغو الباطل ، والزور والمكاء ، والتعدي ، ورقية الزنا ، وقرآن الشيطان ومنبت النفاق ، والصوت الاحمق ، والصوت الفاجر

(١) انظر ، ابن الجوزي البغدادى : تلبيس ابليس ، ص ٢٢٨ ، ٢٢٩ .

(١) انظر: حكم الاسلام فى الغناء، تحقيق ابو حذيفة ابراهيم بن محمد، ص ١٥، ولمعرفة المزيد عن رأى ابن القيم الجوزية فى السماع ارجع الى كتابه "اغاثة اللفهان" ومصفه "فى السماع".

(٢) سورة لقمان ، آية ٦، ٧.

(٣) من حديث أبى امامه والسياق للترمذى ان النبى (ص) قال "لا تبيعوا القينيات ولا تشتروهن ولا تعلموهن، ولا خير فىى تجارة فيهن وثمانهن حرام" وفى مثل هذا نزلت هذه الآية "من الناس من يشتري لهو الحديث" رواه احمد فى مسنده

٢٠٧٠٥، ٢٦٨- ورواه عبد الله بن الزبير الحميدى فى مسنده ٢/ ٤٠٥ مختصرا- ورواه ابن ماجه ٢/ ٢٣٤.

فسره بذلك ايضا المحابة والتابعين^(١)، كما فسر " لهو الحديث " ايضا بانه الحديث عن أخبار الامام ومملوكهم ، وملوك الروم ونحو ذلك مما كان النضر بن الحارث يحدث به أهل مكة فيشغلهم به عن القرآن .

وابن القيم لا يرى تعارضا بين التفسيرين ويقول ما نعه : " لهو الحديث هو الباطل والغناء"^(٢)، ويرى الغناء أشد ضررا من الحديث عن الملوك واخبارهم وجاء في تفسير هذه الآية ان النضر بن الحارث وهو قرشي كان يشتري المغنيات فلا يظفر باحد يريد الاسلام الا انطلق به الى قينته ويقول: أطعميه واسقيه وغنيه . ويقول: هذا خير مما يدمو اليه محمد من الملاة والصيام او تقاتل بين يديه^(٣) ولمن أحلوا السماع تعليقا على تلك الآية سيأتى فى موضعه .

(٢) والاسمان الثانى والثالث للسمع فيما يقول ابن القيم هما انه زور ولغو وهو يستند فى تسمية السماع بهذين الاسمين الى قوله تعالى :

(١) صح عن ابن عباس وابن مسعود - قال ابو الصهباء سألت ابن مسعود عن تلك الآية فقال ، والله الذى لا اله الا هو ، هو " الغناء " ورددتها ثلاث مرات - وكذلك صح عن ابن عمر بن الخطاب ، انظر ابن القيم ، حكم الاسلام فى الغناء ، ص ٢٥ .

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٣) تفسير القرطبي ، ج ١٤ ، ص ٥٢ .

"والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما"^(١) واللغو في اللغة هو كل ما يلغى ويطرح والمعنى الذين لا يشهدون الزور أى الذين لا يحضرون الباطل وإذا مروا بكل ما يلغى ويطرح من قول أو عمل مروا كراما أى اكرموا انفسهم بان لا يقفوا عليه ويقول ابن القيم . ويدخل فى ذلك أعياد المشركين كما فسرهما به السلف ، والغناء ، وأنواع الباطل كلها^(٢) .

وقال الزجاج ولا يجالسون أهل المعاصى ولا يماثلونهم عليها ومروا من الكرام الذين لا يرفون باللغو لانهم يكرمون انفسهم عن الدخول فيه والاختلاط بأهله .

ويضيف ابن القيم أن الحق سبحانه وتعالى قد أثنى على من أعرض عن الغناء لقوله تعالى : " وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم "^(٣) .

ويشير ابن القيم الى قول الله تعالى : " لا يشهدون الزور " ولم يقل بالزور لان يشهدون بمعنى يحضرون فمدحهم

(١) سورة الفرقان ، آية ٧٢ - جاء فى المصحف المفسر ان

اللغو ما لا اللغوبه من الكلام يقال لغا بلغوا لغوا .

(٢) روى ان عبد الله بن مسعود مر بلسه فأعرض عنه - فقال

رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ان اصبح ابن مسعود

لكريما " وان هنا تعنى " قد " والحديث ذكره ابن كثير

فى تفسيره عن طريق ابن ابى حاتم وفيه " لقد اصبح

ابن مسعود وامسى كريما " . انظر اغاثة اللفهان لابن القيم

الجوزى ، الفصل الخاص بحكم السماع فى الغناء .

(٣) سورة القصص ، آية ٥٥ .

على ترك حضور مجالس الزور ، والغناء من أعظم الزور ففى رأيه (١) .

(٣) والعفة الرابعة التى وصف بها ابن القيم السماع هو انه المكاء (٢) والتصدية (٣) فهو يشبه من يتقرب الى الله عن طريق السماع بكفار قريش الذين كانوا يتقربون الى الله فى الجاهلية بالتصفير والتصفيق . وهم يطوفون حول الكعبة وقد قال تعالى عنهم : " وما كان صلاتهم عند البيت الا مكاء وتصدية " (٤) .

ويرى أن من يخلط الذكر والعبادة بالسماع كمن كانوا يعارضون النبى صلى الله عليه وسلم فى الطواف حول الكعبة ويخالطون عليه صلاته بالتصفير والتصفيق . ففى رأيه أن المصفقين والمصفرين فى يراغ او مزمار او نحوها اشبهه بهؤلاء الكفار ، حتى ولو كان مجرد شبه ظاهر ، فهو يسرى انهم يستحقون قسطا من الذم على ذلك ، حتى وان لم يتشبهوا بهم فى جميع مكائهم وتصديتهم . ويقول : " والله تعالى لم

(١) الزور يقال على الكلام الباطل وعلى العمل الباطل وعلى العين نفسها كما فى حديث معاوية لما أخذ قصة من شعر يوصل به فقال : " هذا الزور " فالزور القول والفعل والمحل . والزور ميل عن الحق الثابت الى الباطل الذى لا حقيقة له قولا وفعل . انظر : ابن القيم الجوزية حكم الاسلام فى الغناء ، تحقيق ابو حذيفة ابراهيم بن محمد ، الطبعة الاولى ، ص ٢٩ .

(٢) المكاء هو " الصفير " بالفم او تشبيك الاصابع والنفخ فيها .

(٣) التصدية تعنى التصفيق . انظر ابن القيم : حكم الاسلام فى الغناء ، ص ٧ .

(٤) سورة الانفال ، آية ٣٥ .

يُشرع التصفيق للرجال وقت الحاجة اليه في الصلاة اذا انابهم أمر. بل أمروا بالعدول منه الى التسبيح لثلا يتشبهوا بالنساء. فكيف اذا فعلوه لا لحاجة، وقرنوا به ، انواع من المعاصي قولاً وفعلًا ؟ " (١) .

وهكذا يحتج ابن القيم على عدم جواز الغناء والموسيقى في مجالس السماع ويرى ان الحق تبارك وتعالى نهى الرجال عن التصفيق في اثناء الصلاة اذا دعت الى ذلك حاجة كأن يخطئ الامام في التلاوة او عدد الركعات او غيرها من الامور التي تتطلب تنبيه الامام ، وجعله بالتسبيح ، اى بقوله " سبحان الله " . واجازه فقط للمعاملات من النساء حتى لا يرفعن اصواتهن فابيح لهن تنبيه الامام عن طريق التصفيق وفي رأى ابن القيم ان من يعفك من الرجال يتشبه بالنساء ولذلك شرع الله لهم التسبيح بدلا من التصفيق فكيف بهم اذا صفقوا بدون حاجة وقرنوا ذلك بالغناء والاقوال والافعال التي في حكم المعاصي .

(٤) الصفة الخامسة : هي ان السماع هو " الباطل " وهو ضد الحق . والباطل يراد به المعدوم الذى لا وجود له ويراد به ايضا الموجود الذى مضى وجوده اكثر من منفعتيه . ومثال الباطل من النوع الاول . القول " كل اله سوا الله باطل " . ومثال الباطل من النوع الثانى القول " بأن السحر باطل ، والكفر باطل " قال تعالى : " قد جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا " (٢)

(١) ابن القيم الجوزيه / حكم الاسلام في الغناء ، تحقيق ———

ابو حذيفة ابراهيم بن محمد ، ص ٣٢ .

(٢) سورة الاسراء ، آية ٨١ .

(٤) قال الفصل بن عياض "الغناء رغبة الزنا" وقال يزيد بن الوليد "بابني اميه اياكم والغناء فانه ينقص الحياء ويهدم المروءة وانه يفعل ما يفعل السكران كنتم لابد فاعليه فجنبوه النساء فانه داعية الزنا" انظره ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٠، ص ١٦٠.

بمعنى أن من يحضر مجالس السماع ويحب الاستماع الى الغناء، لا يخرج عن ان يكون لا يبالى اذا افتتح امره بين الناس وشاع عنه انه من محبى الله وهو بذلك يكون فاجرا واما أن يظهر انه يحب الغناء ليرقق قلبه ويشير وجهه تقربا الى الله وفى هذه الحالة يكون فى رأى ابن القيم منافقا فلو لم يكن منافقا ما قضى حياته فى سماع الله والطرب واتخذ دينه لهوا ولعبا وكان مزار الشيطان أحب اليه من استماع سور القرآن فالنفاق غش ومكر وخداع والغناء مؤسس على ذلك والمنافق يفسد من حيث يظن انه يصلح .

(٨) واما تسميته السماع بقرآن الشيطان فيرى ابن القيم أن ذلك مأثور عن التابعين وانه جاء فى حديث رواه الطبرانى فى مجمع الزوائد من حديث ابى امامة مرفوعا الى النبى صلى الله عليه وسلم : " لما هبط ابليس قال : يا رب لعنتنى فما عملى ؟ قال السحر . قال فما قرأتى ؟ قال الشعر قال فما كتابى ؟ قال الوشم . قال فما طعامى ؟ قال كل مسكر قال فاين أسكن ؟ قال الاسواق . قال فما صورتي ؟ قال المزامير قال : فما معايدى ؟ قال النساء " (١) .

ويذهب ابن القيم الى ان الغناء المحرم او كما اسماه قرآن الشيطان لما أراد الله ان يجمع عليه نفوس المبطلين قرنه بما يزينه من الالحن المطربة والالات والملاهى والمعارف وأن يكون من امرأة جميلة او صبى جميل ليكون ذلك ادعى الى قبول النفوس لقرآنه وتعويضها به عن القرآن المجيد (٢) .

(١) رواه الطبرانى، كما جاء فى مجمع الزوائد ١٩ / ٨ - ورواه

عبدالرزاق فى مصنفة ٢٦٨ / ١١، باب الشعر والزجر رقم ٢٠٥١١ .

(٢) ابن القيم، حكم الاسلام فى الغناء، تحقيق ابو حذيفة ابراهيم بن

(٩) وأما تسمية السماع بالموت الاحمق والصوت الفاجر فيقول عنها ابن القيم هي تسمية الصائق المصدق السدى لا ينطق من الهوى ويستدل على ان الغناء صوت الحمق والفجور بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي رواه الترمذى من حديث ابن ابي ليلى عن عطاء عن جابر رضى الله عنه قال: "خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وسلم مع عبد الرحمن ابن عوف الى النخل فاذا ابنه ابراهيم يجود بنفسه (اي يحتضر) فوضعه فى حجرة ففاضت عيناه، فقال عبد الرحمن: أتبكي، وأنت تنهى الناس؟ قال: ائى لم انه من البكاء، وانما نهيت عن صوتين فاجرين: صوت عند نغمة: لهو ولعب ومزامير شيطان، وصوت عند مصيبة: خمش وجوه (اي لطم الوجوه وضربها) وشق جيوب (اي شق الملابس) ورنه (اي الصياح). وهذا (يعنى البكاء) هو رحمة ومن لا يرحم لا يرحم. لولا انه امر حق ووعد صدق، وان آخرنا سيلحق اولنا، لحزننا عليك حزننا هو اشد من هذا وانا بك لمحزونون، تبكى العين، ويحزن القلب، ولا نقول ما يسخط الرب" (١).

ويتعجب ابن القيم من امر العارف بالله كيف يستجيز لنفسه اباحة ما نهى الله عنه ورسوله وما سماه الرسول بالموت الاحمق والفاجر ومزموور الشيطان وجعله والنيابة التى لعن صاحبها سواء.

(١) رواه ابوداود الطيالسى ١/١٠٩ والترمذى ٢/٣٦ تحفة الاحواذى "طبع الهند البيهقى فى السنن الكبرى ٤/ ٦٩ واخرجه البزار والضياء عن أنس وذكر فى الترهيب والترغيب ٤/١٧٧ - والجامع الصغير للسيوطى ٤٦ / ٢ والقرطبى ٥٣ / ١٤.

ويرى ان ذلك من الرسول نهى مؤكد عن سماع الغناء
حيث سماه صوتا أحقق ووصفه بالفجور ومزامير الشيطان .

(١٠) كما اطلق ابن القيم الجوزيه على السماع صوت
الشيطان لانه فى رأيه يدعو الى معصية وان كل متكلم بغير
طاعة الله وكل مصوت . بمزمار أو دف أو طبل حرام .

واستند فى ذلك الى قوله تعالى للشيطان وحزبه :
" اذهب فمن تبعك فان جهنم جزاؤكم جزاء موفورا واستفزز
من استطعت منهم بصوتك واجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم
فى الاموال والاولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان الا غرورا" (١) .

وقد فسر ابن عباس قوله تعالى : " واستفزز ———
استطعت منهم بصوتك " قال " يعنى كل داع الى معصية " ويرى
ابن القيم ان الغناء اعظم الدواعى الى المعصية ولهذا فسر
صوت الشيطان به .

كما روى باسناد الى الحسن البصرى ان صوت الشيطان
هو الدف (٢) ، ويرى ابن القيم ان كل متكلم بغير طاعة الله
وكل مصوت ببراف او مزمار او دف او طبل حرام فذلك صوت
الشيطان وكل ساع فى معصية فهو فى رجليه وكل راكب فى معصية
الله فهو خياله (٣) .

(١) سورة الاسراء ، آية ٦٣ ، ٦٤ .

(٢) ابن القيم الجوزيه ، حكم الاسلام فى الغناء . تحقيق ———

ابوحذيفه ابراهيم ، ص ٤٦ .

(٣) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(١١) ووصف ابن القيم السماع بأنه مزمر الشيطان وقد استند في اطلاق تلك التسمية على السماع الى حديث ماثلة رضي الله عنها الذي ورد في الصحيحين قالت : " دخل على النبي صلى الله عليه وسلم ومندى جاريتان تغنيان بغناء بعث " (١) فاضطج على الفراش وحول وجهه . ودخل ابوبكر رضي الله عنه فانتهرني وقال : مزمار الشيطان عند النبي صلى الله عليه وسلم ؟ فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : دعهما ، فلما غفل غمزتهما فخرجتا " (٢) .

ويرى ابن القيم ان ابوبكر رضي الله عنه كره سماع المزممار وقال عنه مزمار الشيطان وان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ينكر عليه تلك التسمية . وان الرسول اذا كان قد أقر الجاريتان فذلك في رأيه لانهما مغيرتان وغير مكلفتان تغنيان بغناء الامراب الذي قيل في يوم حرب بعث من الشجاعة والحرب وان اليوم كان يوم عيد (٣) .

وذلك الحديث السالف يحتج به الصوفية الذين اباحوا السماع على حله واباحته وهذا ما سيأتى الحديث عنه تفصيلا في موضعه .

-
- (١) بعث بضم الباء هو حصن للاوس ويقال انه كان دار بني قريظة . وكان يوم بعث يوم عيدلانه اخر العداء والقتال بين قبيلتي الاوس والخزرج ، وكان ذلك قبل الهجرة بثلاث سنين ثم بعد الهجرة اصبح الجميع اخوانا تحت لواة الاسلام .
- (٢) انظر صحيح مسلم ٢١/٣ طبعة الحلبي ، وانظر ايضا صحيح البخاري ٤٥/٢ طبعة السلفية . ومسند احمد بن حنبل ٦ / ١٣٤ وسنن النسائي ٣ / ١٩٦ .
- (٣) ابن القيم . حكم الاسلام في الغناء ، تحقيق ابو حذيفة ابراهيم ص ٤٧

وقد اطلق ابن القيم على من اباحوا السماع " حـزب الشيطان " ويرى انهم قد توسعوا فاحلوا صوت المرأة الجميلة الاجنبية او صوت الصبي الامرد يغنى بما يدعو الى الفجور والزنا وشرب الخمر مع آلات اللهو التى حرّمها رسول الله مع التصفيق والرقص ويقول : " وتلك الهيفة المنكرة التى لا يحلها احد من اهل الاديان فضلا عن اهل العلم والايمان ويحتجون بغناء حوريتين غير مكلفتين تغنتا بنشيد الاعراب ونحوه من الشجاعة ونحوها فى يوم عيد بغير " شبابة " ولا دف ولا رقص ولا تصفيق ، ويدعون المحكم الصريح لهذا المتشابه وهذا شأن كل مبطل " (١) .

ويقول ابن القيم ما نعه : " نعم نحن لا نحرم ولا نكـره مثل ما كان فى بيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على ذلك الوجه . وانما نحرم نحن وسائر اهل العلم والايمان السماع المخالف لذلك وبالله التوفيق " .

وهنا يصرح ابن القيم انه لا ينكر الغناء الذى يشيد بالشجاعة ويحفز الهمم مثل الذى كان تغنيه الجوارى فى بيت رسول الله وانما هو يحرم السماع الذى يتغنى اصحابه بما يدعو الى الفجور والزنا من اغانى الغزل التى تشير الشهوة ويكره ما يعطنه الصوفية من حركات ووجداء السماع .

(١٢) واما تسمية السماع بالسمود فقد استند فيه ابن القيم الجوزيه الى قول الحق تبارك وتعالى : " أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وانتم سامدون " (٢) .

(١) ابن القيم ، حكم الاسلام فى الغناء . تحقيق ابو حذيفة ابراهيم ص ٤٤

(٢) سورة النجم ، آية ٥٩ ، ٦١ .

وقد قال " عكرمة " نقلا عن ابن عباس " السمود " هو الغناء في لغة حمير " ويقال " اسمد لنا اى غنى لنا (١) .

وقال ابو مبيدة " المسمود " (٢) الذى غنى له وقال " عكرمة " كانوا اذا سمعوا القرآن تغنوا فنزلت هذه الآية " (٣) .

ويذهب ابن القيم الى ان تفسير " المبرد " للسمود بانـه هو الاشتغال من الشيء " بهم " او " بفرح " يتشاكل به ، وتفسير ابن الانباري بان السامد هو الالهى والساهى والمتكبر ، لا يتناقض مع تفسير ابن عباس بان السمود هو الغناء لان الغناء في رآيه يجمع بين هذا كله .

والغزالي وغيره من الصوفية الذين اباحوا السماع يردون على تلك الامتراضات التى احتج بها ابن القيم الجوزي وغيره ممن حرموا السماع .

ويذهب ابن القيم الى ان رسول الله (ص) حرم تحريما صريحا الات اللهو والمعازف وساق الاحاديث الدالة على ذلك ومن ذلك ما رواه عبد الرحمن بن غنم قال : حدثني ابو عامر او ابو مالك الاشعري انه سمع النبي (ص) يقول : " ليكون من امتى قوم يستحلون الحروا والحريير والخمر والمعازف (٤) .

(١) انظر ، ابن القيم ، حكم الاسلام في الغناء ، تحقيق ابو حذيفة ابراهيم ابن محمد ، ص ٤٧ .

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٣) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٤) اخرجه البخاري في صحيحه . محتجابه في باب فيمن يستحل

الخمر ويسميه بغير اسمه . انظر البخاري اشر به ٦ . وذكره ابو داود

ـ لياس ٦ ، والترمذي فتن ٣٨ ، والدارمي . اشر به ٨ .

وقد شكك ابن حزم في صحة هذا الحديث وقال انه منقطع فيما بين البخارى وهشام بن عامر . وان البخارى لم يعمل سننه . ولذلك لا يحتج به في تحريم المعازف . غير ان ابن القيم الجوزيه تصدى بقوة لاعتراض ابن حزم ، على صحة هذا الحديث ، محاولا اثبات صحته من عدة وجوه (١) .

وكذلك فعل الحافظ في كتابه "الفتح" (٢) وقد اطلال ابن القيم القول في تصحيح هذا الحديث وتخريجه وقال ما نصه : "ولم يفع من قدح في صحة هذا الحديث شيئا كابن حزم ونصره لمذهب الباطل في اباحة الملاهي ، وزعم انه منقطع لان البخارى

(١) قال ابن حزم ان هذا الحديث ضعيف وليس له سند متصل فيما بين البخارى وهشام - غير ان ابوداود في سننه قد ذكره بسند متصل الى الرسول (ص) اما ابن القيم فقد اعترض على قول ابن حزم بان هذا الحديث ضعيف وقال ما نصه "جواب هذا الوهم من وجوه : احدها ان البخارى قد لقي هشام بن عامر وسمع منه . فاذا قال "قال هشام" فهو بمنزلة قول عن هشام - والثاني - انه لو لم يسمع منه فهو لم يستجز الجزم به عنه . وقد صح عنه انه حدث به فالبخارى ابعد الناس عن التندليس - والثالث - انه ادخله في كتابه المسمى "بالصحيح" محتجا به . فلولا صحته عنده لما فعل ذلك والرابع - انه علقه بصيغة الجزم دون صيغة التعريض فانه اذا توقف في الحديث اولم يكن على شرطه يقول : "يروي عن رسول الله (ص)" ويذكر عنه فاذا قال : "قال رسول الله (ص)" فقد جزم وقطع باضافته اليه - الخامس - اننا لو ضربنا عن هذا كله صفحا فالحديث صحيح متصل عند غيره - انظر ابن القيم الجوزيه ، حكم الاسلام في الغناء تحقيق ابو حذيفه ابراهيم بن محمد ، ص ٤٩ ، ٥٠ .

(٢) انظر الحافظ - الفتح ، ج ١٠ ، ص ٤١ .

لم يعمل سنده" (١).

وقد ذكر ابن القيم روايات عديدة لهذا الحديث متصلة
السند ليثبت صحته وعلق على تلك الأحاديث بقول: "ونحن
نسوفها لتقربها عيون أهل القرآن وتشجى بها حلوق أهـ
سمع الشيطان" (٢).

كما هاجم السماع ابن الجوزي البغدادي (٣) ونقد مسالك
الصوفية في الغناء والرقص وذكر أدلة كراهة الغناء والأشعار
الناجمة من سماعه وذكر أدلة القائلين بجوازه ونقدها وبين
تلبيس إبليس على الصوفية في الوجد. وعاب عليهم تقطيع
ثيابهم. وما يأتون به من حركات وصياح أثناء السماع. ثم
بين حكم الغناء في المذاهب الفقهية الأربعة.

والجدير بالذكر أن ابن الجوزي البغدادي لم يحرم
الغناء بشكل مطلق وإنما أباح الحداء وغناء الحبيب وأغانى
الغزاة في الحرب لشحذهم الجنود للملاقات الأعداء، وأنشاد
المبارزين في القتال بأغانى وأشعار التفاخر عند المبارزة
كذلك الغناء الذى يحث على الزهد. وهو فى ذلك يتفق مع
الغزالي الذى قال ما نعه: "وقد تكلم الناس فى الغناء
فأطالوا فمنهم من حرمه ومنهم من أباحه من غير كراهه ومنهم
من كرهه مع الإباحة وفعل الخطاب أن نقول. ينبغى أن ينظر
فى ماهية الشئ ثم يطلق عليه التحريم أو الكراهة أو غير ذلك

-
- (١) انظر ابن القيم: حكم الإسلام في الغناء، تحقيق أبو حذيفة
إبراهيم بن محمد، ص ٤٩، وانظر أيضاً، الحافظ، الفتوح،
ج ١٠، ص ٤١.
- (٢) ابن القيم، حكم الإسلام في الغناء، تحقيق أبو حذيفة إبراهيم بن
محمد، ص ٥١.
- (٣) ابن الجوزي البغدادي، تلبيس إبليس، ص ٢٢٢.

والغناء يطلق على اشياء منها غناء الحجيج في الطرقات
يصفون مكة وزمزم والمقام ، وربما ضربوا مع انشادهم بطبل
فسماع تلك الاشعار مباح... وفي معنى هذا انشاد المبارزين
للقتال للاشعار تفاخرا عند النزال ، ومن هذا اشعار الحداة (١) .

فهذه الاشعار المغناه تحرك الانسان ، الا ان ذلك
التحريك لا يوجب الطرب الذي يخرج صاحبه عن الاعتدال وهي
تؤدي في نظره الى انفعالات محمودة .

وقد كان لرسول الله حاد يقال له " أنجشه " يحشدو
للابل فتسرع في سيرها حتى ان رسول الله (ص) كان يقول له
عند الحداء " يا أنجشه رويدك سوفا بالقوارير " (٢) .

وقد انشد اهل المدينة طلع البدر علينا... الخ عند
قدوم رسول الله عليهم مهاجرا .

ويذكر ابن الجوزي البغدادي ان رسول الله صلى الله عليه
وسلم كان يحضر لعائشة رضي الله عنها الجوارى الصغيرات
السن ليلعبن معها ويغنون لها حيث كانت صغيرة (٣) .

وقد حدث ان تزوجت جارية من الانصار يتيمة رجل من
الانصار وكانت السيدة عائشة رضي الله عنها من بين من
اهداها الى زوجها . فقال رسول الله لعائشة . ان الانصار
قوم فيهم غزل فما قلتم : قالت دعونا لها بالبركة . قال :
افلا قلتم ..

(١) الغزالي ، احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٦٦ .

(٢) ابن الجوزي البغدادي ، تلبيس ابليس ، ص ٢٢٣ ، ص ٢٢٤ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٢٤ .

أتيناكم اتيناكم فحيونا نحبيكم... الخ
ويعلق ابن الجوزي على ذلك بقوله : ان هذا الغناء
الذي كانوا يغنون به ليس مما يطرب او يثير الانتفعالات
غير المباحة ولا كانت دفوفهن على ما يعرف اليوم (١) .
كذلك الاشعار التي تحت على الزهد كقول بعضهم :

يا غاديا في غفلة وراحمنا
الى متى تستحسن القبائما
يا عجبا منك وانت مبصر
كيف تجنببت الطريق الواحما
وكم الى كم لا تخاف موقفا
يستنطق الله به الجوارحا

وايضا القصائد التي في ذكر الجنة والنار فهي في
رأى ابن الجوزي البغدادى مباحة والى مثل هذا اشار احمد
ابن حنبل في الاباحة عندما سأل ابو حامد الخلفاني قائلا:
" يا أبا عبد الله هذه القصائد الرقاق في ذكر الجنة والنار
اي شيء تقول فيها ؟ فقال : مثل اي شيء . قلت : يقولون :

اذا ما قال لي ربــــــــــــى
اما استحييت تعمينى
وتخفى الذنب عن خلقــــــــى
وبالعصيان تأتينى (٢)

-
- (١) ابن الجوزي البغدادى ، تلبيس ابليس ، ص ٢٢٥ .
(٢) المرجع السابق ، ط ٢ ، ص ٢٢٦ ، وانظر ايضا ، محمد بن ابي الهدي
المكنى بابي البركات ، روض الاسماع في احكام الذكر والسماع
ص ٤٤ .

فقال أمد على فأعدت عليه فقام ودخل بيته ورد الباب
فسمعت تحييه من داخل البيت وهو يقول هذا البيت .

وقد تأثر الامام احمد بتلك الابيات وبكى لشدة تأثره
فمثل هذه القصائد في رأيه حلال لانها لا تشير شهوة ولا هوى
وانما تشير مشاعر محمودة (١).

اما اشعار النواح التي تشير الاحزان والبكاء فهي
محرمة شرعا واما الاشعار التي ينشدتها المغنون في وصف
الحسنات والخمر وغير ذلك مما يحرك الطباع عن الاعتدال
ويشير ماكن بها من حب اللهو مثل قول الشاعر :

ذهبي اللون تحسب من
وجنتيه النار تقتدح
خوفوني من فضيحتي
ليته وافى وأفتضح (٢)

واغانى الغزل هذه تغنى بالحن مختلفة وهي تخرج
سامعيها من حيز الاعتدال وتشير حب الهوى فيهم . فليس كل
غناء في رأيه محرما . وانما المحرم أنواع بعينها من
القصائد التي لا تتفق والاخلاق الفاضلة وتشير الشهوات ويقول
ما نعه " وقبل أن نتكلم في اباحته (اي السماع) او تحريمه
او كراهته نقول : ينبغي للعاقل ان ينصح نفسه واخوته
ويحذر تلبيس ابليس في اجراء هذا الغناء مجرى الاقسام
المتقدمة التي يطلق عليها اسم الغناء فلا يحمل الكل محملا

(١) ابن الجوزي البغدادى، تلبيس ابليس، الطبعة الثانية ، ص ٢٢٦ .

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

واحدا . فيقول قد أباحه فلان وكرهه فلان" (١) .

وفى رأى ابن الجوزى البغدادي ان الشاب السليم البدن الصحيح المزاج اذا ادعى أن رؤية المستحسنات لا تزججه ولا تؤثر فيه ولا تفره فى دينه فانه غير صادق فيما ادعى لان ذلك فى رأيه يخالف الطبع ، ويرى انه لو صح ذلك لكان صاحبه مريضا جعله لا يتأثر بتلك المؤثرات . اما اذا تعلل بأنه ينظر الى المستحسنات ليعتبر بها ويستدل منها على حسن الصنعة فى اتساع العينين ودقة الانف ونقاء البياض فان لديه من انواع المباحات ما يكفى للاعتبار ومعرفة بديع خلق الله وفى هذه الحالة لن تؤثر شهوته على فكره وتأمله .

وان ادعى ان الغناء المطرب الذى يثير الطبع والشهوة لا يؤثر فيه ولا يلفت قلبه الى حب الدنيا الموصوفة فيه فانه كاذب لانه لا يستطيع ان يتخلص من غرائزه الفطرية التى قد تكون كامنة لشدة خشوعه وخوفه من الله فهو يستشيرها بهذا الغناء .

كما أنه يذهب الى ان الصوفى اذا ادعى انه بلغ من درجات الترقى الى المقام الذى لا تؤثر فيه هذه الاغاني وكان صادقا فى احواله فينبغى الا نبيح السماع الا لمن هذه صفته ويقول ما نصه : " ثم ان كان الامر كما زعم هذا المتصوف فينبغى الا نبيحه الا لمن هذه صفته والقوم قد أباحوه على الاطلاق للشباب المبتدى والصبي الجاهل حتى قال ابو حامد الغزالي ان التشبيب بوصف الخدود والاصداغ وحسن القد والقامة وسائر اوصاف النساء ، الصحيح انه لا يحرم" (٢) .

(١) ابن الجوزى البغدادي ، تلبس بالبليس ، الطبعة الثانية ، ص ٢٢٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٢٧ .

فهو يعيب على الغزالي اباحته هذا النوع من الغناء .
وللغزالي في ذلك رأى سيأتى تفصيله في موضعه وموجزه ان
تلك النوعية من الغناء قد يسمعها الصوفى المتحقق بالكمال
الاخلاقى ولا يحملها على ظاهرها وانما يسمعها كاشحات
لاشياء اخرى ابعد ما تكون عما يفهمه منها العامة . فهو
سماع من احب الله وعشقه واشتاق الى لقاءه فلا ينظر الى
شئ الا رآه تعالى فيه ولا يقرع سمعه قارع الا سمعه منه
او فيه كما اوضحنا آنفا ، كما ان الغزالي يرى ان اغانى
الشوق والعشق غير محرمة فهي اذا سمعت في حضرة المعشوق
فهي تأكيد للذة وان كانت في غيبته فهي تهيج للشوق وفيه
نوع من اللذة ايضا اذا اضيف اليه رجاء الوصال ، فالرجاء
لذيذ والبأس مؤلم بشرط ان يكون المعشوق او المشتاق اليه
ممن يباح وصاله شرعا كالزوجة او الام او الابناء... الخ .

ولم يغفل الامام الغزالي الاشارة الى ان مثل هذه الاغاني
تحرم على من لا يجوز في حقه السماع ، فاذا طلق الرجل زوجته
فيحرم عليه ان يسمع هذا الغناء ويسقطه عليها لان في هذه
الحالة لا يجوز له تحريك الشوق حيث لا يجوز تحقيقه بالوصال .

اما من يتمثل في نفسه صورة امرأة لا يحل له النظر
اليها وكان ينزل ما يسمع على ما تمثله في نفسه فهذا
حرام لانه محرك للفكر في الافعال المحظورة (١) .

وسنقف على رأى الغزالي في هذا الشأن بعد وسنرى انه
لم يطلق اباحة سماع اغاني الغزل والشوق والعشق للشباب
والصبية الجاهلين وانما ابان من يحل له سماعها ومن يحرم

(١) انظر، الغزالي : احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٧٧ .

عليه ذلك. ولاشك ان كل مستمع أدري باحواله والله على الكل رقيب وهو سبحانه يعلم ما فى السرائر ويحاسب عليه .

وقد ذهب ابن الجوزى البغدادي الى ان من يدمى انه لم يسمع الغناء للدنيا وانما أخذ منه اشارات هو مخطئ من وجهين :

أحدهما : أن طبعه يسبق الى مقصوده قبل أخذ الاشارات فيكون كمن قال انى انظر الى هذه المرأة المستحسنة لاتفكر فى قدرة الله على خلق هذا الجمال .

والثانى : انه يقل فيه (اي غناء الغزل والعشق) وجود شئ يشار به الى الخالق تبارك وتعالى ويرى ابن الجوزى انه لا يجوز فى حق الله تعالى ان يقال انه يعشق ويقع الهيمان به وانما له سبحانه الهيبة والتعظيم فقط (١).

والغزالي له فى ذلك رأى سيأتى تفصيله فى موضعه واكتفى هنا بالاشارة السريعة اليه وهو انه يقصد بعشوق الله المحبة المفرطة فالمحبة اذا تأكدت سميت عشقا ومن عرف الله أحبه محبة مؤكدة وبقدر تأكيد معرفته تتأكد محبته واذا تأكدت المحبة صارت عشقا (٢).

وقد ذكر ابن الجوزى البغدادي ادلة على كراهه السماع من القرآن والسنة ومن تلك الادلة ما ذكره من قبل ابن القيم الجوزية ولا داعى لامادة ذكرها واما أدلته من السنة منها حديث "نافع" عن "ابن عمر بن الخطاب" رضى الله عنهما: " أنه سمع

(١) ابن الجوزى البغدادي: تلبيس إبليس، طبعة ثانية، ص ٢٢٧.

(٢) أنظر، احياء علوم الدين، ج ٢، ص ٢٧٧، ٢٧٨.

صوت زمارة راع فوضع أصبعه على أذنه ، وعدل راحلته عن الطريق وهو يقول يا نافع أسمع فأقول : نعم فيمضي حتى قلت : لا . فرفع يديه . وقال . رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل مثل هذا" (١) .

كما استدل أيضا على كراهة السماع بان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن شراء المغنيات وبيعهن وتعليمهن (٢) الحديث ، وبالنسبة للحديث الاول قال : أبو علي اللؤلؤسي : "سمعت أبا داود يقول : هذا حديث منكر .

وقال الشيخ الامام الحافظ المقدس : هذا حديث اورده ابو داود في سننه هكذا وقد رد من وجهين : الاول فساد مسنن طريق الاسناد . والثاني . ان سليمان بن موسى هذا (وهو من رواة الحديث) هو الاشدق الدمشقي تكلم فيه اهل النقل ، وتفرّد بهذا الحديث عن نافع ولم يروه عنه غيره .

وقال البخاري سليمان بن موسى عنده مناكير (٣) ، وهكذا حاول المقدس التشكيك في صحة هذا الحديث .

(١) ابن الجوزي البغدادي ، تلبيس ابليس ، طبعة ثانية ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، أخرج الحديث ابو داود في سننه ٧/٢٣٨ وابن ماجه في سننه ١/١١ والقرطبي ١٠/٢٩ .

(٢) روى عن النبي (ص) انه قال (النظر الى المغنية حرام وغناءها حرام وشمئها حرام) - رواه يزيد بن عبد الملك بن المغيرة بن نوفل المدني ابو خالد عن يزيد بن حفيصة عن السائب بن يزيد عن عمر بن الخطاب - أخرجه الترمذي عن ابي امامه ، انظر الترمذي ٢٢ ، ٧٤ ، ١٤ وفي القرطبي لا تبهر الفينيات ولا تشتروهن ولا تعلموهن ولا خرفن تجارة فيهن وشمئهن حرام ١٣/٥١ - وأخرجه الطبراني في الاوسط باسناد ضعيف عن عائشة ان الله حرم الفينة وبيعها وشمئها وتعليمها . وقال البيهقي ليس بمحفوظ - انظر تخريج الطبري على الاحياء ٢/٢٨٣ .

ومن بين من أنكر السماع الامام ابو بكر الطرطوشى
الذى يرى أن من يستمعون الى الغناء فانهم قد وقعوا فى
قبضة الشيطان فاستزلهم واغراهم بحب الهوى وسماع الطقطقة (١)
وخالفوا الفقهاء وعلماء الدين وحملته فيقول فى مقدمة كتابه
"فى تحريم السماع" : "بلغنا أن طائفة من اخواننا المسلمين
وفقنا الله واياهم - استدللهم الشيطان واستقوى عقولهم فى
حب الاغاني واللهو وسماع الطقطقة والنفير (٢)، واعتقدته من
الدين الذى يقربهم الى الله، وجاهرت جماعة المسلمين وشاقت
سبيل المؤمنين وخالفت الفقهاء والعلماء وحملة الدين (٣) .

وقد أوضح فى مصنفه السالف الذكر حرمة الغناء واستند
فى ذلك على الادلة والحجج من الكتاب والسنة كما ذكر فيه رأى
أئمة الفقه الاربعة مالك وابو حنيفة والشافعى واحمد بن حنبل
ولم يزد فى عرض اراهم عما ذكره ابن القيم فى هذا الشأن
والذى سبق توضيحه .

وانتهى الى ان الغناء محرم ومنفعته محرمة والاستأجار
عليه باطل وان أكل المال به أكل مال بالباطل ولا يجوز
للرجل بذل ماله للمغنى ويحرم عليه ذلك وان الزمر حرام .

كما ذهب الى مثل ذلك رأى ابو زكريا النووي فى
روضته القسم الثانى حيث يذهب الى ان يغنى ببعض الات الغناء

(١) الطقطقة : هى الضرب بالقضيب على مخدة من الجلد ونحوها .

(٢) النفير : يشبه الصفير .

(٣) انظر ابو بكر الطرطوشى ، مقدمة كتاب فى تحريم السماع .

بما هو من شعار شاربي الخمر وهو مطرب كالطنبور^(١) والعود والصنج^(٢) وسائر المعارف والاولتار يحرم استعماله واستماعه .

ويرى ان في الپراغ^(٣) وجهان . وجه يحرمه وآخر يحله ويرى ان الصحيح تحريمه .

(٤)
كما ذهب الى تحريم السماع ايضا ابو عمرو بن الصلاح فقال ما نعه " واما اباحة هذا السماع وتحليله فليعلم ان الدف والشبابة والغناء اذا اجتمعت فاستماع ذلك حرام عند ائمة المذاهب وغيرهم من علماء المسلمين ولم يثبت عن احد ممن يعتمد بقوله في الاجماع والاختلاف انه اباح هذا السماع " ويقول ايضا : " وقولهم في السماع المذكور انه من القربى والطاعات قول مخالف لاجماع المسلمين ومن خالف اجماعهم

-
- (١) الطنبور بضم اوله قال : الهيثمي في الزواجر، ج ٢، ص ١٧٨ ، هو غير العود، وقد جاء في دائرة المعارف الاسلامية، ج ١ ، ص ٢٦٩ ان الطنبور هو اسم جنس لكل آلات الطرب التي تستخدم فيها اوتار السلك وذكر منها ثلاثة انواع .
- (٢) الصنج . آلة باوتار يضرب عليها وذكر الزبيدي في تنج العروس، ج ٢، ص ١٦٧ ان الصنج العربي هو الذي يكون في الدف اما الصنج ذو الالوتار فهو دخيل بعرب يختص به العجم . وانظر دائرة المعارف الاسلامية، ج ١٤، ص ٣٣٧، ٣٣٨ .
- (٣) الپراغ هو الشبابة وهو من جملة المراميز واشدها طربا . انظر، الزبيدي ، تنج العروس، ج ٦، ص ١٩٧ .
- (٤) انظر . فتاوى ابو عمرو بن الصلاح ، " الاجماع على تحريم الغناء " .

فعليه ما فى قوله تعالى: " ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين توله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا " (١) .

ويرى ان بلاء الاسلام فى طائفتين هما : المحللون لما حرم الله والمتقربون الى الله بما يباعدهم عنه ويعنى الصوفية الذين يتقربون الى الله عن طريق السماع .

ومن بين من ذهبوا الى اجازة بعض السماع وتحريم بعضه الامام " القرطبى " وهو مفسر وفقه وهو يذهب الى ان الغناء عند المشتهرين به اذا كان مما يحرك النفس ويبعثها على الهوى والغزل والمجون الذى يحرك الساكن ويبعث الكامن كالمصائد الشعرية التى تصف النساء وتذكرهن وتذكر الخمور والمحرمات فهذه لا يختلف فى تحريمها لان ذلك فى رايه لهو وغناء مذموم .

أما الغناء الذى يغنى فى اوقات ومناسبات كالعرس والعيد وللتنشيط عند الاعمال الشاقة كما كان فى حفر الخندق وحدو " اتجشه " و " سلمه بن الاكوع " فيجوز القليل منه فى تلك المناسبات وما شابهها .

اما رايه فى سماع الصوفية للغناء ، فانه ينكره ويعتبره بدعة ويرى ان ما ابتدعه الصوفية من الادمان على سماع الاغانى باستعمال الآلات المطربة كالشبابات والطار والمعارف والاوزار فحرام (٢) .

(١) سورة النساء ، آية ١١٥ .

(٢) انظر - تفسير القرطبى ، ج ١٤ ، ص ٥٤ .

كما ذهب القرطبي الى ان سماع الرسول (ص) واصحابه
انما كان القرآن فايها يتدارسون وفيه يتفاوضون، ومعانيه
يتفهمون ، ويستعذبونه في صلاتهم ، ويأمنون به في خلواتهم
ويتمثلون به في مجادلاتهم ويلجئون اليه في جميع حالاتهم
فاذا سمعوا انصتوا كما أمروا ، واذا قرؤوه تدبروا واعتبروا
فأحلوا حلاله وحرموا حرامه واقتبسوا أحكامه يتخلقون
بأخلاقه ويعملون على وفاقه علما منهم بأنه طريق النجاة
ونيل الدرجات . وتلاوته افضل العبادات ، واجمل القربات
فانه حبل الله المتين الصراط المستقيم الذي لا تزيف به
الاهواء ولا تشيع منه العلماء ولا يخلق على كثرة الرد . من
قال به صدق ومن عمل به اجر ومن حكم به عدل ومن دعى اليه
دعى الى الصراط المستقيم (١) .

كما أنكر السماع على بن علي بن محمد بن ابي العز
" صاحب كتاب " شرح الطحاوية في العقيدة السلفية " وهو
ينكر على السامعين ويعتبرهم من المبتدعين الضالين ولو
كان ما يسمع ليس أنعاما والحنانا وانما القرآن ايضا في
رأيه لا يجوز لسامعه ان يصفق او يتواجد كما يفعل الموفية
ويقول ما نمه : " وكذلك الذين يصفقون عند سماع الانعام
الحسنة مبتدعون ضالون ، وليس للانسان ان يستدعى ما يكون
سبب زوال عقله (يعنى ما يؤدي به الى الغناء الموفى) ولم
يكن في الصحابة والتابعين من يفعل ذلك ولو عند سماع
القرآن ، بل كانوا كما وصفهم الله . اذا ذكر الله وجلست
قلوبهم واذا تلايت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون (٢)

(١) انظر، محمد بن ابي الهدى المكنى بابي البركات ، روض

الاسماء في احكام الذكر والسماع ، ص ٦٤ ، ٦٥ .

(٢) سورة الانفال ، آية ٢ .

كما يذهب الى ان ما يحدث لبعض السامعين عند سماع الانغام المطربة من الهزيان والتكلم ببعض اللغات المخالفة لغتهم فان ذلك لا يكون الا شيطان يتكلم من لسان السامع كما يحدث للمصاب بالصرع ويقول: " وما يحمل لبعضهم عند سماع الانغام المطربة من الهزيان والتكلم ببعض اللغات المخالفة لسان المعروف منه ، فذلك شيطان يتكلم على لسانه كما يتكلم لسان المصروع " (١) .

كما يستنكر ان يكون زوال العقل او الغناء سببا او شرطا او تقربا الى ولاية الله كما يظنه كثير من اهل الضلال على حد تعبيره . والذي يراه بعض المجانين نوع من المكاشفة او تصرف خارق للعادة وهو الكرامات الصوفية فانه يكون بسبب ما اقترن بصاحبه من الشياطين كما يكون للسحرة والكهان (٢) .

ويذهب الى ان الانسان الضال هو الذى يظن ان كل من خبل او خرق العادة كان وليا ومن اعتقد هذا فى رأيه فهو كافر (٣) .

وقد استند من ذهب الى تحريم السماع على الكثير من الاحاديث النبوية غير التى اوردناها والتى سيرد ذكرها فى رد من احل السماع عليهم ورد الغزالي ايضا على حججهم . ذلك هو رأى من مالوا الى تحريم السماع وسنتبين معارضى من اباحوه

(١) انظر، شرح الطحاوية فى العقيدة السلفية ، دار الفكر

بيروت ، لبنان ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م ، ص ٣٤٦ ، ٣٤٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٤٧ .

(٣) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

الفصل الرابع

رأى من أحسوا السماع وأدلتهم على حله

الفصل الرابع

رأى من أحلوا السماع وأدلتهم على حله

أجاز السماع الكثيرون من الصوفية غير أنهم اشترطوا جميعاً كما رأينا ألا يشتمل السماع على محظور أو قول مخالف للشرع ولا يكون لمجرد اللهو والعبث واشباع الهوى وان يلتزموا بأداب السماع .

وكان الغزالي أبلى القائلين بحل السماع استناداً إلى الحجج النقلية من الكتاب والسنة والحجج العقلية كما سيتبين لنا فيما بعد .

ومن القائلين بحل السماع الإمام " القشيري " (٣٧٦هـ - ٤٦٥هـ) وقد استند في ذلك إلى قول الحق تبارك وتعالى " فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه " (١) ويذهب إلى أن الله تعالى في هذه الآية ذكر " القول " على وجه العموم فهي تقتضي التعميم والاستغراق . والدليل على ذلك أن الله مدحهم باتباع الأحسن من القول (٢) . ومعنى العمومية أن الغناء متضمن في " القول " فإذا اتبع السامع أحسن ما يغنى من الانشاد والاعاني فهو جائز ولا حرمة فيه .

كما استدل أيضاً على حل السماع بقوله تعالى: " فهم في روضة يحبرون " (٣) فجاء في التفسير أنه السماع من الحور العين بأصوات جميلة يقلن " نحن الخالدات فلا نموت أبداً . نحن الناعمات فلا نبوس أبداً " (٤) فدل ذلك على أن الغناء ليس مكروهاً وأنه جائز وغير محرم .

(١) سورة الزمر ، آية ١٨ .

(٢) القشيري ، الرسالة ، ج ٢ ، ص ٦٣٧ ، ٦٤٧ .

(٣) سورة الروم ، آية ١٥ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٦٤٧ .

ويذهب القشيري الى ان الاشعار قد انشئت بين يدي رسول الله (ص) وانه سمعها ولم ينكر عليهم انشائها (١). ويرى انه اذا جاز سماع الشعر بغير الحان بين يدي رسول الله فلا يتغير الحكم بان يسمع بالالحان .

كما ذكر القشيري العديد من الاحاديث النبوية الشريفة الدالة على اباحة السماع منها ما رواه ابو الحسن علي بن احمد الاهوازي بسند متصل ان أنسا قال " كانت الانصار يحفرون الخندق فجعلوا يقولون :

نحن الذين بايعوا محمدا

على الجهاد ما بقينا أبدا

فاجابهم الرسول : " اللهم لا عيش الا عيش الاخرة فأكرم الانصار والمهاجرة " وان كان هذا القول من الرسول (ص) ليس على وزن الشعر الا انه قريب منه (٢) .

ويذهب القشيري الى ان السلف الصالح واكابر القوم قد سمعوا الابيات بالالحان ومن بين من اباح السماع في رأيه الامام مالك بن أنس واهل الحجاز كلهم اجمعوا على اباحة الحداء .

(١) ذكر ابن محمد بن طاهر في مصنفه " باب الاقتراح على القول والسنة " ما رواه عمر بن الرشيد عن ابيه ان رسول الله (ص) انشد من شعر أمية فأخذ يقول هي هي حتى انشده مائة قافية . انظر ابن الجوزي البغدادى تلييس ابليس ، الطبعة الثانية ، ص ٢٤٠ .

(٢) القشيري ، الرسالة ، ج ٢ ، ص ٦٣٧ .

واستدل القشيري على جواز الغناء بحديث عائشة رضى الله عنها المشهور من الجاريتان اللتان غنتا فى بيتها ولم ينههما الرسول عن ذلك يوم "بعث" والذي سبق ذكره .

وقد احتج ابن الجوزى البغدادى على استدلال من أجاب الغناء بهذا الحديث ويقول ما نعه : " ان انشاد الشعر عند عائشة لا يخرج الطباع عن الاعتدال . وكيف يحتج بذلك الواقع فى الزمان السليم عند قلوب صافية على هذه الاصوات المطربة الواقعة فى زمان كدر عند نفوس قد تملكها الهوى . مما هذا الا مغالطة او لبس " .

وقد احتج القشيري ايضا بحديث عائشة الذى روى بسند متصل انها انكحت ذات قرابتها لرجل من الانصار ودخل رسول الله (ص) ولم يسمع غناء فقال : الا بعثت معها من يغنى ؟ فقالت : قد دعونا لها بالبركة . فقال رسول الله (ص) ان الانصار قوم قبيهم غزل فلو بعثتم معها من يقول :

اتيناكم اتيناكم فحيانا وحياكم (١) فدل ذلك على جواز الغناء وذكر القشيري ان الرسول صلى الله عليه وسلم كان يحب الصوت الحسن وقد روى بسند متصل عن البراء بن

(١) روى هذا الحديث بصيغ متعددة - رواه البخارى عن عائشة : " زفت امرأة الى رجل من الانصار . فقال نبي الله (ص) يا عائشة ما كان معكم لهو ؟ فان الانصار يعجبهم اللهو - صحيح البخارى بشرح العمدة القارى ٢٠/١٤٩٦ - ورواه ابن ماجه نكاح ١/١٦٣، ٢١ - احمد بن حنبل ٣/٣٩١، المستدرک ١/٥٧١

مازب قوله: "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "حسنوا القرآن بأصواتكم، فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسنا" (١).

ويذهب القشيري الى ان الصوت الحسن من النعم التي ينعم بها الله على صاحبه. وقد فسر قوله تعالى: "يزيد في الخلق ما يشاء" (٢).

ان من ذلك الصوت الحسن فيهبه الله من يشاء ممن خلقه، كما ذم الحق سبحانه وتعالى الصوت القبيح بقوله: "ان أنكر الأصوات لصوت الحمير" (٣).

وقد استند القشيري في قوله بحل السماع ايضا بحديث ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لم يأذن الله تعالى لشيء ما أذن لنبي يتغنّى بالقرآن" (٤).

وقيل ان داود عليه السلام كان يتمتع بصوت جميل وكان اذا قرأ الزبور يستمع لقراءته الجن والانس والطير والوحش كما اسلفنا وكان الصحابي ابو موسى الاشعري حسن الصوت فقال عنه الرسول (ص) "لقد اعطى زممارا من زمامير آل داود" (٥).

-
- (١) ذكره الدارمي في فضائل القرآن ٣٤، والبخاري آداب ٩٠،
والترمذي آداب ٦٩، واحمد بن حنبل ٣ وابن ماجه آداب ٤١
- (٢) سورة فاطر ، آية ١٠
- (٣) سورة لقمان ، آية ١٩ .
- (٤) البخاري فضائل القرآن ١٩، توحيد ٣٢- ورواه مسلم مسافريين
٢٣٢، ٢٣٤، والنسائي افتتاح ٨٣، والدارمي صلاة ١٧١، فضائل
القرآن ٣٤، واحمد بن حنبل ١٧٢٠، ١٧٥٠، ١٢٩٠
- (٥) القشيري: الرسالة . تحقيق د. عبد الحليم محمود ومحمود بن
الشريف، ج ٢، ص ٦٤٢ .

وانتهى القشيري الى ان سماع الاشعار بالنغمة المستلذة والالحن الطيبة لا حرمة فيه مالم يسمعه السامع على مكروه في الشرع وهو عنده في الجملة مباح. وقوله في ذلك: "اعلم ان سماع الاشعار بالالحن الطيبة والنغم المستلذة اذا لم يعتقد المستمع محذور او يسمع على مذموم في الشرع ولم ينجر في زمام هواه ولم ينخرط في ذلك، فهو مباح في الجملة" (١)

وفي رأيه ان السماع يزكى الوجد ويحمل المستمع على التحرز من الزلات ويؤدي الى قلبه في الحال صفاء الواردات وانه مستحب في الدين مختار في الشرع وانه قد جرى على لفظ رسول الله (ص) ما هو قريب من الشعر وان لم يقصد ان يكون شعرا (٢).

ويعلق الامام "القشيري" على رأى من قال ان الغناء "لهو" بقوله: "ليس كلامنا في هذا النوع من السماع فان هذه طائفة (يعني الصوفية) جلت رتبته من ان يسمعوا بلهوا، او يقعدوا للسماع بسهولة، او يكونوا بقلوبهم مفكرين في مضمون لغواو يستمعون على صفة غير كفء" (٣).

ويذهب القشيري الى ان استلذاذ القلوب واشتياقها الى الاصوات الطيبة واسترواحها اليها مما لا يمكن حجوه فان الطفل يسكن الى الصوت الطيب، والجمل يقاسي تعب السير

(١) القشيري : الرسالة تحقيق د. عبد الحليم محمود ومحمود

ابن الشريف ، ج ٢ ، ص ٦٤٢ .

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٣) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

ومشقة الحمولة فييهون عليه الحداء^(١) قال تعالى : " أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت " ^(٢) .

ومن الصوفية الذين اباحوا السماع " السهروردي " وفي مصنفه " عوارف المعارف " افاض في الحديث عن السماع ومن ادابه واره المعارضين له والمؤيدين وبين درجات السامعين ونقد المدعين المتكلفين وبسط لاهل الانكار لسان الاعتذار ووضح لهم الفرق بين سماع يؤثر وسماع ينكر . كما تناول آداب السماع في مصنفه " اداب المريدين " .

وذهب السهروردي الى ان سماع القرآن الكريم لا اختلاف فيه وانما الاختلاف في استماع الاشعار بالالحن . وقد كثرت الاقوال في ذلك وتباينت فهناك من ينكر السماع ويلحقه بالفسق وهناك من يشهد بانه واضح الحق ويقول ما نمسه : " لقد كثرت الاقوال في ذلك وتباينت الاحوال فمن منكسر يلحقه بالفسق ومن مولع به يشهد بانه واضح الحق ويتجاذبان في طرفي الافراط والتفريط " ^(٣) .

والسهروردي كغيره من الصوفية الذين اجازوا السماع يرى ان الاستماع الى الغناء والالحن ليس مباح بشكل مطلق كما انه ليس محرما تحريما مطلقا ايضا وانما للسماع آداب شرعية يجب ان يلتزم بها المستمع اذ يقول : " فاذن لا يطلق القول بمنعه وتحريمه . والانكار على من يسمع كفعل القراء المتزهدين المبالغين في الانكار ولا يفسح فيه على الاطلاق

(١) القشيري : الرسالة ، ج ٢ ، ص ١٥١ ، ١٥٢ .

(٢) سورة الفاشية ، آية ١٧ .

(٣) عوارف المعارف : بهامش احياء علوم الدين للغزالي ،

ج ٢ ، ص ٢٢٥ .

كفعل بعض المشتهرين به المهملين شروطه وآدابه . المقيميين
على الاصرار" (١) وقد تحدثنا عن تلك الاداب فى الفصل الاول .

ويذهب السهروردى الى ان استخدام الآلات الموسيقية
يكون بحذر فقد نهى عن استخدام انواع من الآلات (٢) التى
تستخدم فى العزف فى مجالس الشراب كالشبابه والذف حتى
لا تشابه مجلس السماع مجالس الشراب ويرى ان الاولى تركهما
وان كان الامام الشافعى قد اعطى فى مذهبه فسخة لهما غير
ان السهروردى يرى الاخذ بالاحوط والخروج من الخلاف .

(١) عوارف المعارض : بهامش احياء علوم الدين للفرالى ، ج ٢ ،
ص ٢٢٥ .

(٢) روى عن النبى (ص) انه قال : " امرنى ربى عز وجل بنفى الطنبور
والمزمار وهو حديث رواه ابراهيم بن اليسع بن الاشعث المكى
ابو اسماعيل عن هشام بن عروه عن ابيه عن عائشة وقيل
البخارى عن ابراهيم هذا انه منكر الحديث وقال النسائى
عنه انه مكى ضعيف ، انظر محمد بن طاهر - السماع تحقيق
ابو الوفا المرازى ، ص ٨٢ ، ونحو الحديث كما رواه امامه
عن النبى (ص) ان الله بعثنى رحمة وهدى للعالمين وامرنى
ان امحق المزامير والكبارات اى البرابط والمعارف
والاوتار التى كانت فى الجاهلية ، واقسم الى بعثته الا
يشرب عبد من عبادى جرعة من خمر الا سقيته مكانها من
حميم جهنم . الخ " اخرجه احمد عن طريق على بن يزيد
واخرجه ابو طالب الغيلانى عن على " بعثت بكسر المزامير "
وعن ابن عباس ان النبى (ص) قال : " بعثت بهدم المزامير -
انظر الترغيب والترهيب ٣ / ١٨٦ - والقرطبى ١٠ / ٥٣ .

ومن الاغانى والاشعار التى يرى السهروردى اباحسة
سماعها القصائد التى تذكر بالجنة والنار والتشويق الى
دار القرار ، ووصف نعيم الملك الجبار، وذكر العبادات
والترغيب فى الخيرات على حد تعبيره فهذه لا سبيل فسى
رأيه الى انكارها ، كذلك قصائد الغزاه والحجاج فى وصف
الحج ووصف الغزو مما يشير العزائم والوجد الكامن والشوق
الساکن فى الحجاج .

واما القصائد التى تذكر القدود ، والخدود، ووصف
النساء فلا يلىق فى رأيه بأهل الديانات ان يجتمعوا لسماع
مثل لتلك القصائد. ثم هناك القصائد التى تكون فى ذكر
الهجر والوصل والقطيعة والعد مما يقرب جملة على امـ
الحق سبحانه وتعالى فى تلون احوال المريدين ، ودخول
الافات الى اللطالبيين ، فانه يجوز سماعه فمن سمع ذلك وحدث
عنده ندم على ما فات . او تجدد عنده عزم لما هوآت ، فلا
حرج عليه فى سماعه . ويرى ان كثير من السامعين لهـ
القصائد يقتاتون ويتقوون بما تحمله من معان ، وتشير
عندهم الشوق ، والوجد ويقول السهروردى : " فاذا استمع
العبد الى بيت من الشعر وقلبه حاضر ... فيه خطاب لقلبه
لما يجده من قوة عزمه على الثبات فى امر الحق السـ
الممات يكون فى سماعه هذا ذاكرًا لله تعالى" (١) بمعنى
ان سماع القصائد الدينية هو نوع من ذكر الله .

ويستدل السهروردى على حل السماع بحديث عائشة رضى
الله عنها اذ قالت : " كانت عندى جارية تسمعن فدخل

(١) السهروردى - عوارف المعارف - بهامش الاحياء للغز الى

رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى على حالها ، ثم دخل
عمر ففرت فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر ما
يفحكك يا رسول الله ؟ فحدثه بحديث الجارية . فقال: لا أبرح
حتى اسمع ما سمع رسول الله فأمر رسول الله صلى الله عليه
وسلم . فاسمعه" (١) .

وقد أنكر من ذهب الى تحريم الغناء احتجاج الفريق
الاخر الذى اباح السماع بان الجوارى كن يغنين عند عائشة
رضي الله عنها و خلاصة قولهم فى ذلك نجمه فى النقاط التالية :

(١) ما كان ينشد عند عائشة من القصائد كانت أبعد
ما يكون عن الاشعار التى تثير الشهوة والهوى ، كما هو
الحال الان .

(٢) ان زمان عائشة كانت القلوب فيه صافية والايمان
قويا فكان الغناء لا يؤثر فى القلوب بما يشغلها عن الدين .

(٣) ان عائشة كانت صغيرة السن وكان الرسول يرسل
اليها الجوارى ليسرين عنها وكن فى مثل سنها تقريبا .

(٤) لم ينقل عن عائشة بعد بلوغها وتحصيلها الا ذم
الغناء وقد كان ابن اخيها القاسم بن محمد يذم الغناء ويمنع
من سماعه ، وقد اخذ العلم عنها .

ومن الجدير بالذكر ان من هاجموا السماع نقدوا أدلة
القائلين بحله . فالحديث الشريف " لم بأذن الله لشيء ما
أذن لنبي يتغنّى بالقرآن" (٢) وحديث " ان الله اشد اذنا

(١) السهروردي . عوارف المعارف على هامش الاحياء ، ج ٢ ، ص ٢٣٣ ،

اخرجه ابن ماجه نكاح ٢١ .

(٢) اخرجه البخارى فضائل القرآن ١٩ ، توحيد ٣٢ ، ومسلم ٢٣٢ ، ٢٣٤ -

النسائي افتتاح ٨٣ ، الدارمي صلاة ١٧١ ، فضائل القرآن ٣٤ - احمد

للرجل الحسن الصوت بالقرآن يجهر به من صاحب الفينة الى فينته" (١) وقد اتخذهم الصوفية من جملة الاحاديث التي تستدلون بها على حل الغناء . اذ لا يجوز ان يقيس الرسول على محرم ، فهذا الحديث يعنى ان الله عز وجل يستمع الى حسن الصوت وهو يتغنى بالقرآن ، كما يستمع صاحب الفينة (اي الجارية) الى فينته ، فدل ذلك ان الغناء غير محرم (٢) .

اما من أنكر السماع يرى ان التشبيه بالاستماع الى الفينة لا يمنع ان المشبه حرام فان الانسان لو قال وجدت للعسل لذة أكثر من لذة الخمر كان كلاما صحيحا (٣) .

وقد فسر سفيان بن عيينة قوله : " يتغنى بالقرآن ، فقال معناه يتحزن به ويترنم وقيل ايضا فى تفسيره يجعله غناء الركبان اذا ساروا " (٤) .

كما احتج السهروردي بقول رسول الله (ص) " ان من الشعر لحكمة " (٥) وان النابغة كان ينشد الشعر عند رسول الله (ص) كما كان صلى الله عليه وسلم يضع لسان منبرا فى المسجد يقوم عليه ويهجو الكفار ، الذين كانوا يهجون الرسول (ص) وكان صلى الله عليه وسلم يقول : " ان روح القدس مع حسان ما دام ينافح عن رسول الله " (٦) .

- (١) أخرجه ابن ماجه ٤٢٥ .
- (٢) انظر ابن الجوزي البغد ادى ، تلبس بلبس طبعة ثانية ، ص ٢٢٨ .
- (٣) محمد ابن طاهر : السماع ، تحقيق ابو الوفا المرازى ، ص ٤٠ ، ٤١ .
- (٤) ابن الجوزي البغد ادى : تلبس بلبس طبعة ثانية ، ص ٢٢٨ .
- (٥) انظر عوارف المعارف بها مشا لاهيا للغز الى ، ج ٢ ، ص ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ .
- (٦) المرجع السابق ، ص ٢٣٤ .

ويقول السهروردي نقلا عن معشاد الدينوري^(١) الموفى
انه قال رأيت رسول الله (ص) في المنام فقلت : يا رسول الله
هل تنكر من هذا السماع شيئا فقال : ما انكره ولكن قل
لهم يفتتحون قبله بقراءة القرآن ويختمون بعده بالقرآن^(٢)

ولاشك ان السماع المقصود هنا هو سماع الانشاد
الديني الذي يتغنّى به القوال في مجالس الصوفية .

ويروى السهروردي انه حكى ان ذا النون المصري لما
دخل بغداد دخل عليه جماعة فاستأذنوه ان يقول (اي المنشد)
شيئا فاذن له . فانشد القوال :

صفيـر هواك عذبـنى
فكيف به اذا احتـنـكا
وانت جمعت من قلبـى
هوى قد كان مشـركـا
ما ترشـى لمكتـبـا اذا
ضحك الخـلـى بكـى

فطاب قلبه لسماع هذه الابيات وقام وتواجد^(٣) .

نستشف مما سبق ان السهروردي لا يجد حرمة في سماع
القصائد المغناة بشرط ان يلتزم المسمع بأداب السماع وان
يتغنّى بالقصائد التي ترقق القلب وتذكر الرب ولم يبيح

(١) مهاشد الدينوري من كبار مشايخ الصوفية صاحب بحى الجلاء
عظيم المرمى في علوم القوم احدثيان الجبال، توفي سنة ٢٩٩ هـ.
انظر طبقات السلمى ، ص ٧٦ .

(٢) السهروردي . عوارف المعارف . على هامش الاحياء للغزالي ، ج ٢ ، ص ٢٣٤

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٣٥ .

سماع اغاني الغزل ووصف النساء لما تشيره في السامعين من
اهواء بعيدة كل البعد عن الاعتدال والاحتشام .

كذلك ذوالنون المصري يرى ان السماع يبعث على الوجد
ويرقق القلب ويزمجه الى الحق في حال صفائه ونقاؤه اذا كان
صاحبه صادق الحال .

ويذهب ذوالنون الى ان من يسمع الغناء طلبا للمتعة
واشارة للشهوة فانه عمل غير جائز وصاحبه زنديق^(١) .

وقد أباح الجنيد البغدادي الموفى السماع وانشاد
القصائد الدينية ويذهب الى ان "للنفس في الشر حظوظ واذا
ارتاحت نفوس المسلمين بشيء من المباحات لاشك انه يحصل
لهم الثواب بذلك لموافقته للامر النبوي والاذن المصطفوي
فكيف اذا ارتاحت بحال يدل على الله ، ويذكر بالله ويشوق
الى الله ، فالثواب في ذلك أعظم والخيرية اوفر وأعم"^(٢)

فهو يرى ان السماع حلال وان رسول الله (ص) قد سمع
الغناء واذن به . ولا حرمة في امر يريح النفس مادام ليس
فيه ما يخالف الشرع ، وان الغناء الديني يقرب العبد الى
ربه ويشوقه اليه ، فله في ذلك ثواب اعظم وخير اوفر .

ومن الصوفية الذين قالوا بجواز السماع محيي الدين
ابن عربي وان كان لم يذكر الادلة الشرعية على اباحته وانما
تناول السماع في بعض مصنفاته مثل "المواقع" و "شمس

(١) القشيري الرسالة القشيرية . تحقيق د. عبدالحليم محمود

ومحمود بن الشريف ، ج ٢ ، ص ٦٤٤ .

(٢) انظر . محمد ابي المهدي المكنى بابي البركات ، روض الاسماع

في احكام الذكر والسماع ، ص ٦٧ ، (طبع بمصر ١٩٠٣ م) .

الطريقة في بيان الشريعة والحقيقة" ورسالة "آداب الشيخ والمريد" ورسالة النجاة" وغيرها فافصح معنى السماع وآدابه ودوره كرياضة عملية في اشارة وجد السامعين وافصح درجات السامعين ومقاماتهم. وقد تبيننا ذلك فيما سبق (١).

(٢)
ومن بين من أحل السماع وأجازه الحافظ الامام محمد ابن طاهر المقدس الذي يذهب الى ان الحلال هو ما أحله الله ورسوله والحرام هو ما حرمه الله ورسوله وعلينا أن نحل ما أحله الله ونحرم ما حرمه وان نقتدي بالرسول والخلفاء

- (١) انظر المواقع، ص ١٦٤ وما بعدها. وانظر ايضا رسالة قس آداب الشيخ والمريد. مخطوطة بالمكتبة الازهرية تحمل رقم ١٠٧٠ خاص - ٣٣٥٨٠ عام - مجاميع حلیم، وانظر ايضا - سهام ابراهيم عبدالمجيد - المعرفة عند ابن عربي من ص ٢٣٣ الى ص ٢٣٦.
- (٢) ابن القيسراني - هو محمد بن طاهر بن علي بن احمد بن ابي الحسن الشيباني، ولد سنة ٤٤٨ هـ وتوفي سنة ٥٠٧ هـ، علم من اعلام القرن الخامس الهجري اولع بعلم الحديث وسافر في طلبه الى اكثر من اربعين مدينة وبلد ومن بلاد العالم الاسلامي كما ذكر ذلك ابن حجر وابن كثير. وله مصنفات كثيرة اغلبها في علم مصطلح الحديث وقد ذكر له صاحب كتاب هدية العارفين ما يناهز السبعين كتابا منها ما يصل الى عشرة اجزاء ومن مؤلفاته كتاب "السماع" الذي اباح فيه الغناء مما اشار عليه بعض العلماء ونقدوه ومنهم المؤرخ ابن الجوزي في "المرآة" حيث قال عنه صنف كتابا اسماه "صفوة التصوف" يضحك منه من رآه ويعجب من استشهاده بالاحاديث التي لا تناسبه انظر الوافي بالوفيات، ج ٢، ص ١٦٦، ١٦٨، لسان الميزان، ص ٢٠٧، ٢٠٨، وشذرات الذهب لابن العماد، ج ٤، ص ١١١ - هدية العارفين، ج ٢، ص ٢٨.

الراشدين الذين أمر صلى الله عليه وسلم بالاعتداء بهم وأنه لا يجوز تحريم الفعل الا بدليل من آية محكمة أو سنة ماضية صحيحة أو اجماع الأئمة.

وأما الاستدلال بالموضوعات والفراشب والأفراد من روايات الكذب الذين لا يقوم لقولهم حجة والذين فسروا القرآن بحسب مرادهم فلا يجب الرجوع الى قولهم أو سلوك طريقهم وانما علينا التزام قول من أيده الله بالوحى والتنزيل وقال عز وجل فيه "وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى" (١).

وقد استند الحافظ محمد بن طاهر القيسرانى على حل السماع بأدله من الكتاب والسنة وقد سبق أن ذكرنا الكثير منها عند من سبق ذكرهم من العلماء الذين أحلوا السماع وسيقتصر الحديث هنا على ما فيه جديد لم يسبق ذكره.

ومن الأدلة التى استند اليها ما رواه بإسناد عن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ، قال ابن عبد الرحمن: "خرجنا مع عمر بن الخطاب فى الحج الأكبر" هو حج الفرض والعمرة هى الحج الأصغر" حتى اذا كان عمر بتالروحاء (٢)

(١) س ق آية ٣ ، ٤ .

(٢) الروحاء موضع بين الحرمين على ثلاثين أو أربعين ميلا من المدينة .

كلم الناس رباح بن المعترف (١) وكان حسن الصوت بغناء
الامراب ، فقالوا اسمعنا وقصر عنا الطريق فقال أنسى
أفرق من عمره قال : فكلم القوم عمر : انا كلمنا رباحا
يسمعنا ويقصر عنا المسير فأبى الا أن تأذن له ، فقال
له : "يا رباح ، اسمعهم وقصر عنهم المسير ، فاذا اسحرت
فارفع وخذلهم (٢) من شعر ضرار بن الخطاب فرفع عقيرته (٣)
يتغنى وهم محرمون" (٤) .

ويستدل من هذا الاثر أن عمر بن الخطاب قد سمح
للرجل أن يتغنى ليقيم على المسافرين الطريق الى الحج
ولاشك أنه تغنى بأشعار الزهد والحكمة . ولو كان الغناء
محرمًا ما سمح له عمر به .

وقد استند ابن القيسراني أيضا على جواز السماع
بما رواه باسناد عمر ابن أبي ربيعة أن الحارث بن عبيد

(١) جاء في نهاية الارب للنويري ج ٤ ، ص ١٨٩ أن اسمه
رباح بن المعترف وهو رجل حسن الصوت .

(٢) وخذلهم ذكرت في نهاية الارب للنويري "واحدهم"
ج ٤ ، ص ١٩٠ .

(٣) "عقيرته" صوته ففي القاموس "العقيرة" صوت المغنى
والقاريء والباكي . أنظر : ابن القيسراني - السماع -
تحقيق أبو الوفا المراءى ص ٤٢ .

(٤) المرجع السابق ص ٤٢ .

الله بن عباس أخبره أنه كان يسير مع عمر بن الخطاب في طريق مكة في خلافته ومعه المهاجرين والأنصار فترنم عمر بببيت فقال له رجل من أهل العراق - ليس معه عراقى غيره - غيرك فليقلها يا أمير المؤمنين ! فاستحى عمر وضرب راحلته حتى انقطعت من الموكب (١) وهذا يدل على أن الترنم بالغناء جائز شرعا فالخليفة عمر بن الخطاب ما كان يفعل ذلك لو أنه محرما .

كما استند أيضا الى ما حدث به عبيد الله بن خالد ابن أبى بكر بن عبيد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب عن أبيه قال : "حدثنى حمزة بن عبد الله بن عمر قال : كنت أحسن من نفس بحسن الصوت وكان موت سالم بن عبد الله كرهاء البعير ، فقال : أنا أحسن منك موتا . فقال لنا عبد الله بن عمر أحدوا حتى أسمع ، فغنينا غناء الركبان ، فقلت لأبى : آينا أحسن موتا ؟ فقال : انكما كحممارى العبادي (٢) ، أي أن كليهما ليس بحسن الصوت ولو كان الغناء محرما لما سمح لهما به .

وقد ذكر ابن القيسراني الكثير من الروايات التي يستدل منها على أن الصحابة والتابعين لم ينكروا السماع

(١) أنظر النويري . نهاية الأرب ج ٤ ص ١٨٩ وابــــن

القيسراني . السماع ص ٤٢ .

(٢) من أمثال العرب في الشيثين الرديثين . ما أحدهما

بأمثل من الآخر يقال هما كحممارى العبادي الذي قيل له أي حماريك أشر؟ قال هذا ثم هذا .

ولم يحرموا الغناء. وأستند الى آيات من القرآن وأحاديث سبق ذكرها للرسول لا داعى لتكرارها.

أما عن الموسيقى فهو يرى أن ضرب الدف والاستماع اليه سنة لأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يستمع اليه وأمر بضربه ولا ينكر ذلك الا جاهل مخالف للسنة وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من رغب عن سنتى فليس منى" (١).

وذكر باسناد ما روته "الربيع بنت معوذ" قالت: "جاء رسول الله (ص) فدخل على صبيحة بنى على فجلس على فراشى كمجلسك منى فجعلت جويرات يضربن بدف يندبن من قتل من أبائى يوم بدر الى أن قالت: "فيينا نبى يعلم ما فى غد" فقال دعى هذا وقولى الذى كنت تقولين قبلها" (٢).

وهذا الحديث الذى روته "الربيع بنت معوذ" يوضح كيف أن غناء الجواري والضرب بالدف حدث فى حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يحرمه ولم يعترض عليه وانما

(١) أخرجه البخاري ومسلم فى باب النكاح من أنس. أنظر البخاري يشرح عمدة القارىء ج ٢٠ ص ٦٥ ومسلم ص ١٠٢٠ .

(٢) أخرجه البخاري فى باب النكاح وفى باب المغازي أنظر صحيح البخاري يشرح عمدة القارىء ج ٢٠ ، ص ١٣٥ والترمذي ج ٤ ، ص ٣٠٩ .

اعترض على قول الجارية "وفينا نبي يعلم ما فى غد" لان الغيب لا يعلمه الا الله ولانه يستحق أن يوصف به هذه العفة التى يجب ألا تنسب الا لله وحده ، وأمرها أن تقول ما كانت تتغنى به من أشعار تتعلق بالمغازي والشجاعة والتفحية والفداء من أبطال المسلمين يوم بدر ويستدل القيسرانى من هذا الحديث على أن الضرب بالدف سنة عن الرسول .

كما استدل بما روى عن عائشة أن رسول الله (ص) سافر سفرا فنذرت جارية من قريش : ان الله عز وجل رده أن تضرب فى بيت عائشة بدف ، فلما رجع (ص) جاءت الجارية فقالت عائشة للنبي (ص) هذه فلانة بنت فلان نذرت ان ردك الله تعالى ان تضرب فى بيتى بدف ، قال: فلتضرب (١) .

وقد قال رسول الله (ص) "لا نذر فى معصية" (٢) فلو كان الضرب بالدف معصية لله لما وافق الرسول على وفاء نذر الجارية بالضرب به فى بيت عائشة . وهذا يدل على أن الضرب بالدف جائز وغير محرم .

(١) أخرجه أحمد والترمذي وصححه الترمذي ٢٢١ ، ص ٢٧١ .

(٢) أخرجه ابن ماجه عن عمران بن الحصين بلفظ: " لا نذر فى معصية ولا فيما لا يملك ابن آدم" . وأخرجه مسلم بهذه الرواية .

أنظر : صحيح مسلم ص ١٢٦٣ وابن ماجه ص ١٦٨٦

أما الأحاديث التي استند اليها من ذهب الى تحريم الغناء والموسيقى فان ابن القيسراني قد تعرض لها وأوضح أنها ضعيفة .

فقال عن استماع "البراع" وهو قسبة الزمار أن بعضهم حرمه واحتج بحديث عبد الله بن عمر عندما سمع زممار الرامى فوضع أصبعيه فى أذنيه وناء عن الطريق وكان معه نافع . فقال له هل تسمع شيئا فقال لا . فرفع أصبعيه من أذنيه وقال كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمع مثل هذا ففعل مثل هذا . وقال هذا حديث أورده أبو داود فى سننه (١) وهو فى رأى ابن القيسراني فاسد من وجهين :

الأول : فساده من طريق الاسناد الثانى وهو الراوى سليمان بن موسى ويذهب الى أن سليمان بن موسى هذا هو الأشدق الدمشقى تكلم فيه أهل النقل وهو تغرد به هذا الحديث عن نافع ولم ينقله عنه غيره وقال عنه البخاري: سليمان بن موسى عنده مناكير "أي عنده روايات منكورة"

الثانى : قول عبد الله بن عمر لنافع : أتسمع؟ ولو كان ذلك منهيًا عنه لم يأمره بالاستماع .

وقوله كنت مع رسول الله فسمع مثل هذا وفعل مثل هذا يدل على عدم تحريمه لانه لو كان حراما لنهاه عن

(١) أخرجه أبو داود فى باب النهى عن الغناء فى سننه

ج ٧ ، ص ٢٣٨ كما ذكره ابن ماجه ج ١ ، ص ٦١١ ،

والقرطبي ج ١٠ ، ص ٢٩ .

عن استماعه وصرح بتحريمه لانه الشارع المأمور بالبيان
فأي ضرورة أحوجته الى أن يأخذ طريق آخر؟ (١) ففي رأيه
أن لو كان الزمر محرما ما سمح الرسول لمحابه الذي
يرافقه في السير أن يسمع هذا من ناحية ومن ناحية أخرى
أن الرسول مأمور ببيان الحلال والحرام من الله وتبليغ
ذلك الى الناس فكيف له أن يكتفى بأن يترك الطريق الذي
سمع فيه الزمر الى غيره دون أن يبين لمن يستعمل المزممار
أن ذلك العمل منكرا ومحرم ؟ فاذا لم يفعل ذلك دل على
أنه عمل غير محرم .

وللغزالي تعليق على هذا الحديث سيأتى في موضعه
بعد عند رده على من حرم السماع .

أما القول في استماع القضيب والأوتار والذي يقال
له التغبير (٢) أو الطقطقة . فهو يذهب الى أنه لسم
يجد في الاثر اباحة أو تحريم فليس هناك ما يدل على
تحريمها أو تحليلها في الشرع غير أن المتقدمين قد
أباحوا استماعها ومن ثم يمكن اعتبار أصلها الاباحة (٣) .

(١) أنظر : محمد بن طاهر القيسراني : السماع ، ص ٥٩ .

تحقيق أبو الوفا المراغي (القاهرة ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م) .

(٢) "المفبرون" قوم يفترون بذكر الله أي يهملون
ويرددون الصوت بالقراءة وغيرها وسمحوا بذلك لأنهم
يرغبون الناس في القابة أي الباقية .

أنظر : القيسراني ، السماع ص ٦٣ .

(٣) محمد ابن طاهر القيسراني : السماع . تحقيق أبو الوفا

المراغي ص ٦٣ .

كذلك الأوتار فالقول فيها كالقول فى القضيـب لـم
يرد الشرع بتحليلها ولا تحريمها ويذهب القيسرانى الى أن
كل ما ورد فى التحريم هو غير ثابت عن الرسول (ص) .

وقد أبان فى فعل كامل فى كتابه "فى السماع" ، أن
الاحاديث التى نسبت الى الرسول (ص) والتى تحرم القضيـب
والأوتار أحاديث فعيفة ومتهافئة وغير موثوق فى رواتها
ويقول ما نعه : "وأما الأوتار فالقول فيها كالقضيـب لـم
يرد الشرع بتحليلها ولا تحريمها وكل ما ورد فى التحريم
فغير ثابت عن الرسول (ص) ونحن نجيب منه فى الفصل
الثانى ونبين حال رواته ، ولأجل هذا صار "أى العزف عليها"
مذهباً لأهل المدينة لا اختلاف بينهم فى إباحته
واستماعه" (١) .

كما يذهب الى أن أبو اسحق إبراهيم بن على بن
يوسف الفيروز أبادي المعروف بالشيرازي (٢) لم ينكـر
السماع أو العزف على الأوتار مع أنه أمام يعتد به وكان
زاهداً متقشفاً (٣) .

(١) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٢) ولد الشيرازي سنة ٣٧٣ هـ وتوفى سنة ٤٧٦ هـ وكان
أنظر أهل زمانه عاش ببغداد وكان من كبار العلماء
فى عصره تفقه فى الدين وكان زاهداً وهو شافعى
المذهب .

أنظر الأنساب للسمعانى ج ٢ ، ص ٢٣٣ .

أما رد القيسراني على من حرم الغناء واستمـاع
المعازف فذلك سنورده بعد.

وقد أورد القيسراني أحاديث تبيح المزامير
والملاهي فقد روى بإسناد عن ابن جبير قوله : "كان رسول
الله (ص) يخطب قائما ثم يجلس ثم يقوم فيخطب قائما
يخطب خطبيتين ، وكن الجواري اذا أنكحوهن يمرون يخرجن
بالدف والمزامير ، فيتسلل الناس ويدعون رسول الله (ص)
قائما فعاتبهم الله عز وجل فقال : "واذا رأوا تجارة
أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما" (١) ويذهب ابـن
القيسراني الى أن الحق سبحانه وتعالى قد أنكر على
المسلمين أن يتركوا الرسول في المسجد ويتسللون الى
سماع الضرب بالدف والمزامير كما عاتبهم أيضا في هذه
الآية الكريمة على تركهم الرسول والانصراف عنه عندمـا
يسمعون بقدم قوافل التجارة فيسرعون إليها . ويرى أن
الحق سبحانه عطف اللهو على التجارة وأن حكم المعطوف
حكم المعطوف عليه والتجارة محللة شرعا بالاجماع فثبت
أن هذا الحكم ينسحب على اللهو أيضا لانه غير محتمل أن
يكون النبي (ص) قد حرمه ثم يمر به على باب المسجد
يوم الجمعة . ثم يعاتب الله عز وجل من ترك رسولـه (ص)
قائما وخرج ينظر اليه ويستمتع ولم ينزل في تحريمه آية ،
ولا سن رسول الله (ص) فيه سنة فعلمنا بذلك بقاءه على

(١) سن الجمعة آية ١١ ، ذكره مسلم في صحيحه ص ٥٨٩ ،

٥٩٠ ، وجاء في شرح عمدة القاريء لصحيح البخاري ج٦ ،

حاله كما كان في الجاهلية (١).

هذا الى جانب أن الرسول كان لا يحرم اللهو فـى الأفراح والأعراس وقد روى بسند متصل عن "عبيد الله بن عميره" قال : "حدثني زوج "درة" (٢) بنت أبي لهب قال : دخل على رسول الله (ص) حين تزوجت درة . فقال : هل من لهو ؟" (٣).

وابن طاهر القيسراني يرى أن هذه الأحاديث المحيطة وغيرها تثبت اباحة الغناء والضرب بالدف والمزامير والعزف على الأوتار أما الذين ذهبوا الى تحريم ذلك إنما اعتمدوا - على حد قوله - على أن فلان كرهه وأن فلان حرمه والاستدلال بأحاديث لا أصل لها . وليس لأحد إذا صح من رسول الله (ص) أن يحل حراما أو يحرم حلالا .

وانتهى الى أن الغناء حلال والضرب بالدف والمزمار والأوتار غير محرم .

(١) محمد بن طاهر القيسراني : السماع . تحقيق أبو الوفا

المراغي ، ص ٧٢ ، ٧٣ .

(٢) زوج درة هو "عبد الله بن عمر" كما جاء في التقريب

ج ٢ ، ص ٥٥٨ .

(٣) أخرجه الحاكم في كف الرعاع ، ص ٢٠٧ .

وردا على من احتج بالآية الكريمة التي سبق ذكرها
"ومن الناس من يشتري لهو الحديث"^(١) على تحريم السماع
والزمر يقول ما نعه : " أوردوا في ذلك عدة أسانيد الى
عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله
بن عمر بن الخطاب ، فنظرت فيها جميعا فلم أر فيها
طريقا يثبت الى واحد من هؤلاء الصحابة الا طريقا واحدا
رواه يوسف ابن موسى القطان عن جرير عن عبد الحميد
عن عطاء بن الشائب عن سعيد ابن خبير عن ابن عباس في قول
الله عز وجل "ومن الناس من يشتري لهو الحديث" .

قال : الغناء والشبابه ، وسائرهما لا يخلو من
رواية ضعيف لا تقوم بروايته الحجة ورأيت في بعضها رواية
عطية العوفى عن ابن عباس عن طريق غير ثابت أيضا .

وذهب محمد بن طاهر القيسرانى الى أنه لا يصح
الاحتجاج بذلك على تحريم الغناء والزمر .

ويذهب الى أنه قد ورد في هذه الآية تفسير آخر
يلزمهم قبوله على أصلهم وهو أن "لهو الحديث" هو اللعب
والباطل وهذا التفسير أيضا لا يقبله ولا يلزمهم بقبوله
لأنه قد تحدث به محمد بن أبى الزعيزعة عن نافع عن ابن
عمر أنه سمع النبى (ص) يقول في قول الله عز وجل "ومن
الناس من يشتري لهو الحديث" باللعب والباطل لأنه لا يثق

(١) سلقمان ، آية ٦ .

في رواية الزعيزعة ويقول " أنه ليس ممن أحتج به عليهم
وانما أوردت ذلك التغير وهو مناقض لما أوردوه وتمسكوا
به" (١).

وهو يرى أن ما صح عن عبد الله بن عباس أن أجمع
أهل السنة على أن السنة تقضى على الكتاب وأن الكتاب
لا يقضى على السنة (٢) بمعنى أن السنة تفسر الكتاب
والكتاب لا يفسر السنة ، وقد جاءت السنة المحيطة بأن
النبي (ص) استمع الغناء وأمر باستماعه ، وأنكر على من
أنكر ذلك .

(١) القيسراني : السماع ، تحقيق أبو الوفا المراغي

ص ٧٥ ، ٧٦ .

(٢) أخرجه ابن عبد البر عن الأوزاعي قال : يحيى بن أبي

كثير : السنة قاضية على الكتاب وليس الكتاب قاضيا

على السنة " . وقال ابن عبد البر أيضا . قال الفضل

ابن زياد سمعت أبا عبد الله (يعني أحمد بن حنبل)

وسئل عن الحديث الذي روى أن السنة قاضية على

الكتاب . فقال ما أجسر على هذا أن أقوله : إن

السنة قاضية على الكتاب ، أي أن السنة . . تفسر

الكتاب وتبينه . أنظر جامع بيان العلم وفضله

لابن عبد البر ج ٢ ، ص ١٩١ ، ١٩٢ ، وأنظر أيضا

محمد بن ظاهر السماع ، تحقيق أبو الوفا المراغي

ص ٧٦ .

ثم يورد جواب ثان على من يحتج بهذه الآية على
تحريم الغناء والمعارف يقول فيه ما نعه : "هل علم
هؤلاء الصحابة الذين أوردتم أقاويلهم في هذه الآية
ما علمه الرسول (ص) أو لم يعلمه ؟ فان قالوا : لم
يعلمه وعلمه هؤلاء ، كان جهلا عظيما بل كفرا ، وان قالوا :
علمه : قلنا : ما نقل الينا عنه في تفسير هذه الآية
مثل ما نقل عن هؤلاء من الصحابة وتأخير البيان عن
وقت الحاجة لا يجوز بحال بل أمحل المحال أن يكون تفسير
قوله عز وجل "ومن الناس من يشتري لهو الحديث" هو
الغناء ، ويقول رسول الله (ص) لعائشة رضي الله عنها :
أما كان معكن من لهو فان الانصار يعجبهم اللهو" (١).

وفي رأيه أنه لو صح أن تفسير هذه الآية هو اللهو
والغناء فكيف يصح أن يجوز الرسول (ص) سماعه ويسمح
للمسلمات أن يغنين للجارية يوم عرسها . بل ويطلب ذلك
من عائشة رضي الله عنها .

(١) قال أبو الفاسم اسماعيل عن حمزه بن يوسف السهمي
عن أبو أحمد عدي الحافظ عن أحمد بن موسى البراز
عن محمد بن سابق عن اسرائيل عن هشام بن عروة عن
أبيه عن عائشة أنها زفت امرأة الى رجل من الانصار
فقال النبي (ص) يا عائشة أما كان معكم من لهو
فان الانصار يعجبهم اللهو" أخرجه البخاري في
صحيحه بشرح عمدة القارئ ج ٢٠ ص ١٤٩ .

ومن الصوفية الذين جوزوا السماع أبو بكر محمد الكلبازي ففي رأيه أن السماع استجمام من تعب الوقت وتنفس لأرباب الأحوال واستحضار الأسرار لذوي الأشغال. وأن الصوفية قد اختاروا الغناء على غيره مما تستروح اليه الطباع لان النفوس تسكن اليه .

والسماع عنده عندما يقرع الأسماع يشير كوامن الأسرار ، والسماع اما يطرب ولا يقوى على حمل الوارد ، واما يكون متمكن بقوة حاله (١) .

كما أباح السماع من الصوفية العلامة النابلسي في معنفة "العقود اللؤلؤية" وهو يرى أن السماع ينقسم الى ثلاثة أقسام حرام ومباح ومنسوب . فمن كان يسمع ليرتاح الى معصية الله تعالى فسماعه حرام . ومن كان يسمع ليستدعى السرور فيتخلص من هم ويستجلب أنسا فسماعه مباح ، وذلك بشرط ألا ينطق عن الهوى وأن تكون نيته جلب السرور الى نفسه والترويح عنها وليس إشارة الشهوة والهوى والاعمال بالنيات وانما لكل أمرىء ما نوى . وليس لأحد أن يحكم على القلوب .

وهو يرى أن الذين ينكرون السماع يجهلون الاحكام وتحكمهم الجراءة في القول بالحلل والحرام والحكم في

(١) انظر الكلبازي ، التعرف لمذهب أهل التصوف . تحقيق محمود أمين النواوي ، الطبعة الثانية ، ص ١٩٠ ، ١٩١ (القاهرة ١٤٠٠ هـ ، ١٩٨٠ م) .

الأمريين (أي الحلال والحرام) يتوقف على نص من الكتاب
أو من كلام الرسول عليه السلام .

ويذهب النابلسي الى أن الحركة التي تقع من القوم
في مجالس الذكر تحدث اما من فرح بالله واما من خووف
منه تعالى ، واما من نشأة سر هزها حب النبي صلى الله
عليه وسلم وهي واردات سماوية وأحوال تنزيلية ولا يصح
أن يزعم أن المهتز بالذكر يرقص ، وأن يفرق بين الوجد
والطيش .

ويقول أن عبد الله بن جعفر سمع العود والأوتار
وكذلك معاوية وعطاء والشعبي وجماعة من السلف الصالح .

ويروى أن أناسا شكوا رجل يجلس في محرابه بعد
صلاته ويترنم بشيء من الشعر ، الى أمير المؤمنين عمر
ابن الخطاب رضي الله عنه ، فسأله عن ذلك . فقال : نعم
أقول كذا وكذا وذكر أبياتا تذكر الموت وتوبخ النفس
على الغفلة فبكى عمر وردد البيت الأخير مع قائله وقال
له وأنا أقول كذلك . فالسمع الذي يذكر بالله وينفسي
الغفلة عن القلب ويهذب النفس ويرتفع بها الى متابعة
أهل الحق ويغرس فيها محبة الله تعالى ورسوله فهو
مندوب ويستحب سماعه .

أما مجالس السماع التي تشتمل على الفحشاء والمنكر
وتكون آلة للفسق والفجور والزنا والخمر فهذا منهى
عنه ولا خلاف في تحريمه وأما الكلمات التي تدل بمعاني
لطيفة على الله وتجذب القلب اليه تعالى وتجعل السمع

متلذذا بمحبة الله ورسوله وأوليائه الله فسماعه طاعة
لا ريب فيها . وجعلها معصية لا يستند على أساس شرعي (١) .

ومن المفكرين المسلمين الذين أباحوا السماع ابن
حزم الاندلسي (٣٨٤ هـ - ٩٤٤ م) - (٤٥٦ هـ - ١٠٦٤ م) ومـع
اباحته السماع قال ان تركه أفضل كسائر لذات الحياة
الدنيا التي أباحها الاسلام .

ويستند ابن حزم في قوله باباحة الغناء إلى
النصوص القرآنية الكريمة والاحاديث النبوية الشريفة
التي سبق ذكرها ومن رآيه أنه لا يحل تحريم شيء أو اباحته
إلا بنص من الله تعالى أو من رسوله عليه السلام لأنه
أخبار عن الله تعالى ، ولا يجوز أن يخبر عنه تعالى
إلا بالنص الذي لا شك فيه (٢) .

وابن حزم كغيره ممن أباحوا الغناء يشترط ألا يكون
الغناء مثير للشهوات وألا يكون متعارضا بأي حال من
الأحوال مع قواعد الشريعة الإسلامية وآدابها .

(١) أنظر - النابلسي - العقود اللؤلؤية - ولد النابلسي
بدمشق سنة ١٠٥٠ وتوفي سنة ١١٤٣ هـ وكان من علماء
اللغة والدين والتصوف وله نحو مائة مصنف في
الفقه والتوحيد والحديث .

(٢) رسائل ابن حزم ، ص ١٠١ .

ومن الأحاديث التي تجيز الغناء والتي ذكرها ابن حزم الحديث الذي رواه سفيان الثوري وشعبه أن أبا مسعود البصري وقرأه بن كعب وشابت بن زيد كانوا في العريش وعندهم غناء وعندما أنكر عليهم البعض هذا ردوا قائلين بأن الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام رخص لهم في الغناء في العرس والنكاح على الميت في غير نواح وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لكل أمرى ما نوى فاذا نوى المرء ترويح نفسه لتقوى على طاعة الله عز وجل فما أتى ضلاله (١).

وقد تعدى ابن حزم للرد على القائلين بتحريم السماع وذلك بالتشكيك في صحة الأحاديث التي استندوا إليها ومن ذلك الحديث الذي رواه سعيد بن أبي رزين عن أخيه عن عائشة أم المؤمنين عن النبي صلى الله عليه وسلم "أن الله حرم المقينة وبيعها وثنها وتعليمها" والاستماع إليها (٢) والذي سبق ذكره . يقول ابن حزم من هذا الحديث أنه ذكر فيه سعيد بن أبي رزين عن أخيه وكلاهما لا يدري أحد من هما (٣).

أما حديث معاوية الذي رواه كيسان مولى معاوية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن تسع منهن الغناء والنوح والتماوير والشعر والذهب وجلود السباع والخز والحريز بأنه حديث ضعيف ذكر من رواه كيسان

(١) رسائل ابن حزم ، أنظر من ص ٩٨ - ١٠١ .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) المرجع السابق ، ص ٩٨ .

ويتساءل ابن حزم من يكون كيسان هذا (١) .

ومن الآيات القرآنية التي استند اليها من حرم السماع كقوله تعالى "ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل به عن سبيل الله" ، هذه الآية التي سبق ذكرها وقد فسر لهو الحديث الذي ذكر فيها بأنه الغناء يرى ابن حزم أن هذا تفسير باطل لم يشهد به أحد من أصحاب رسول الله . ولأن الله تعالى يقول : "ليضل عن سبيل الله" وكل شيء يضل الإنسان عن سبيل الله ويفتنه في دينه فهو اثم وحرام ، ولو كان ذلك شراء مصحف أو تعليم قرآن (٢) وليس الغناء فقط .

وانتهى ابن حزم الى أن كل ما لم يحرم بنص صريح في القرآن والسنة فهو حلال ومن ذلك الغناء .

ومن بين من أشار اليهم الغزالي في كتابه أحياء وعلوم الدين ممن أباحوا السماع أبو طالب المكي الذي نقل أباحة السماع عن بعض الصحابة فقال "سمع من الصحابة عبد الله بن جعفر . كما سمع عبد الله بن الزبير والمغيرة ابن شعبه ومعاوية وغيرهم" (٣) ويضيف أن

(١) ارجع الى رسائل ابن حزم ، ص ٩٨ .

(٢) أنظر وسائل ابن حزم ص ٩٣ - ١٠١ ، وأنظر أيضاً د . صلاح الدين بسيوني رسلان : الأخلاق والسياسة عند ابن حزم ص ٢٨٤ ، الى ص ٢٨٨ .

(٣) أحياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٦٧ .

الكثيرين من السلف الصالح قد فعل ذلك من المحاببة والتابعين باحسان وقال لم يزل الحجازيون عندنا بمكة يسمعون السماع في أفضل أيام السنة وهي الايام المعدودات التي أمر الله تعالى عبادة فيها بذكره كأيام التشريق . وأن أهل المدينة لم يزالوا مواظبين كأهل مكة على السماع الى زماننا هذا (١) .

ويشير الغزالي أيضا الى أنه قرأ في بعض الكتب محاكيا عن الحارث المحاسبى وفيه ما يدل على تجويزه السماع مع زهده وتصوفه وجده في الدين وتشميره على حد تعبير الغزالي (٢) .

ويروى الغزالي أن ثلاثة من الأصدقاء اجتمعوا فى مجلس السماع فأنكره أحدهم وهو أبو بكر بن داود فسأله صديقه عن رأيه فيمن أنشد بيت من الشعر أهو حرام؟ فقال ابن داود لا : قال : فان كان حسن الصوت حرم عليه انشاده قال : لا . قال : فان أنشده وطول وقصر الممدود ومد منه المقصور أيجرم عليه . قال : أنا لم أقوى لشيطان واحد فكيف أقوى لشيطانين . وكان يخشى من ذلك أن يستدرجـه صاحبه بهذا الاسلوب المنطقى الى أن يسلم باباحة الغناء وكف بذلك عن المجادلة فى هذا الأمر (٣) .

(١) احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٦٧ .

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة .

(٣) المرجع السابق نفس الصفحة .

وقد قيل لأبي الحسن بن سالم كيف تنكر السماع وقد
كان الجنيد وسرى السقطى وذو النون المعمرى يستمعون .
قال : وكيف أنكروا السماع وقد أجازوه وسمعه من هو خير منى
فقد كان مبد الله بن جعفر الطيار يسمع وإنما أنكروا
اللهو واللعب فى السماع .

ولاشك أن حصر جميع من أباحوا السماع أو حرموه من
علماء الدين والصوفية ، أمر يكاد يكون مستحيلا وإنما
نكتفى بذكر هؤلاء محاولين الوقوف على رأي الغزالى فى
الغناء وهذا ما سنتعرض له تفصيلا . بعد توضيح رد الغزالى
على الامام الشافعى ومناقشة رأيه فى الغناء . وتعليقه
عليه . ثم رده على حجج المائطين الى تحريم السماع
لتوضيح موقفه ممن أنكروا السماع .

الفصل الخامس

رأى الغزالي فى السماع

- ١ - رد الغزالي على الشافعى .
- ٢ - رد الغزالي على حجج القائلين بتحريم السماع .
- ٣ - رأى الغزالي فى السماع وأدلته على ابحاثه .

الفصل الخامس رأى الغزالي فى السماع

تمهيد :

أوضحنا فيما سبق أنه وجد اختلافا كبيرا حول موضوع السماع فكما رأينا أقره فريق من العلماء وجوزه ، وأنكره فريق آخر .

واعتبر الغزالي أن الوقوف فى حيرة وتردد بين القائلين بجواز السماع والقائلين بعكس ذلك أمر يجب أن يوضع له نهاية ففى رأيه أن فى الخيرة قصور ولا بد من توضيح الأمور وبيانها للوصول الى الحق ولا يكون ذلك الا بالبحث فى مدارك الحظر والاباحة ومن ثم فقد بحث أماننا الاحوال التى يباح فيها السماع والاحوال التى يحرم فيها وبينها واضحة .

وقد حاول الغزالي تقريب وجهات النظر بين المعارضين للسماع والمؤيدين له وكان يأمل أن يضع حدا لهذا الخلاف بعد أن يوضح الأمر ويبحثه ويدلى فيه بالحجج النقلية والعقلية ويقول "أعلم أن قول القائل السماع حرام معناه أن الله تعالى يعاقب عليه وهذا أمر لا يعرف بمجرّد العقل بل بالسمع ، ومعرفة الشرعيات محصورة فى النص ، أو القياس على المنصوص ، وأعنى بالنص ما أظهره صلى الله عليه وسلم بقوله أو فعله ، وبالقياس المعنى المفهوم من ألفاظه وأفعاله ، فان لم يكن فيه نص ولم يستقم فيه

قياس على منصوص بطل القول بتحريمه وبقي فعلا لا حرج فيه كسائر المباحات . ولا يذل على تحريم السماع نص ولا قياس ويتضح ذلك في جوابنا على أدلة المائلين إلى التحريم (١) .

١ - رد الغزالي على الشافعي :

ناقش الغزالي رأي الشافعي في السماع محاولا الرد عليه وتوضيح وجهة نظره فهو يرد على قول الشافعي أن من يواظب على السماع سفيه ترد شهادته ، وأن من يتخلى عن الغناء حرفة له لا تقبل شهادته أيضا . بأن السماع مطلوب ومباح في حد ذاته غير أن الاكثار منه مكروه . وأن من يجعل السماع شغله الشاغل أو من يجعل الغناء حرفة له فهذا هو السفیه الذي ترد شهادته في رأي الغزالي ، فالمواظبة على اللهو في نظره جناية .

ويضرب الغزالي لذلك مثلا فيقول : " ان السماع مستحسن بين تضايف الجد كاستحسان الخال على الخد ولو استوعبت الخيلان الوجه لشوخته فما أقبح ذلك فيعود الحسن قبحا بسبب الكثرة ، فما كل حسن يحسن كثيره ولا كل مباح يباح كثيره " (٢) . ويقول أيضا : " فان البيع حلال

(١) احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٦٨ .

(٢) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٨١ .

ويحرم بعارض الوقوع في وقت النداء يوم الجمعة ونحوه من العوارض والسماع من جملة المباحات من حيث أنه سماع صوت طيب موزون مفهوم وانما تحريمه لعارض خارج من حقيقة ذاته . فاذا انكشف الغطاء عن دليل الاباحة فلا نبالي بمن يخالف بعد ظهور الدليل "(١) . ففي رأى الغزالي أن الاستماع الى القصائد والالحان مباح ومستحسن بين تفاعيف الجد غير أن الاكثار منه والانغماس فيه أو احتراف الغناء أمر مكروه فسماع الصوت الطيب وهو يتغنّى بكلام مفهوم على أنغام موزونه ليس محرما في حد ذاته وانما يحرم لأسباب أخرى سيأتى الحديث عنها تفصيلا .

ويرى الغزالي أن مذهب الشافعي لم يحرم الغناء وانما هو يذهب الى أن من يتخذ الغناء حرفة له تبرد شهادته لان الغناء من اللهو المكروه الذي يشبه الباطل وأن من يتخذة صنعة كان منسوبا الى السفاهة وسقوط المروءة وان لم يكن ذلك محرما بين التحريم . وقد استدلل الغزالي على ذلك بحديث الجاريتين اللتين كانتا تغنيان في بيت عائشة رضي الله عنها والذي سبق ذكره .

ويرى الغزالي ان ما ذهب اليه الشافعي من أن السماع للهو مكروه يشبه الباطل هو قول صحيح غير أنه للهو غير محرم فان لعب الحبشه ورقصهم يعد من اللهو أيضا وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر اليه ولا يكرهه

(١) احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٨١ .

وعمل ذلك بأنه ليس من عادة ذوي الدين والمروءة .

وأما قول الشافعي بحد شهادة المكشّر من السماع أو الذي يحترف الفناء لا يدل أيضا على تحريمه ففى رأى الغزالي لأن الشهادة ترد بأشياء كثيرة أخرى وغير محرمة كالأكل فى الأسواق وكل ما يمس مروءة الإنسان فهناك الكثير من الحرف والمنازع المباحة وليست من منع ذوي المروءة فتد شهادة المحترف بالحرفة الخسيسة مع أن هذه الحرفة غير محرمة . ولذلك فإن الغزالي يعتقد أن أغلب الظن أن الشافعي أراد بالكراهة التنزيه . كما يعتقد أن هذا أيضا مراد كبار الأئمة . أما إذا أرادوا التحريم فإن الغزالي قد بين لهم بالحجة والدليل الشرعى حـلـ السماع كما سيأتى تفصيلا وقول الغزالي فى ذلك : " وأما قوله مكروه فينزل على بعض المواضع التى ذكرتها لك أو ينزل على التنزيه فإنه نص على إباحة ولعب الشطرنج وذكر أنى أكره كل لعب وتعليله يدل عليه فإن قال ليس ذلك من عادة ذوي الدين والمروءة فهذا يدل على التنزيه . ورده الشهادة بالمواظبة عليه لا يدل على تحريمه أيضا ، بل ترد الشهادة بالأكل فى السوق ، وما يخرم المروءة بل الحياكة مباحة وليست من منافع ذوي المروءة . وقد ترد شهادة المحترف بالحرفة الخسيسة . فتعليله يدل على أنه أراد بالكراهة التنزيه وهذا هو الظن أيضا بغيره من كبار الأئمة . وإن أرادوا التحريم فما ذكرناه حجة عليهم " (١)

(١) أحياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٨٢ .

٢ - رد الغزالي على حجج الفاضلين بتحريم السماع :

أورد الغزالي في معرض حديثه عن السماع ، الأدلة والحجج التي استند اليها الماثلين الى تحريم السماع وقد فند حججهم محاولا الرد عليها وموضحا أن سماع الغناء لم يحرمه الشرع تحريما مريحا بشكل مطلق لا جدال فيه وسيتمح لنا ذلك فيما يلي :

١ - سبق أن ذكرنا أن من ذهبوا الى تحريم السماع استدلوا بالآية الكريمة "ومن الناس من يشتري لهـو الحديث" (١) وقد تبينا رد العوفية على ذلك مثل محمد بن طاهر القيسراني وغيره .

أما الغزالي فقد ذهب الى أنه ليس كل غناء بدلا عن الدين أو يشتري به ومفلا عن سبيل الله تعالى :

وأن أي شيء يضل عن سبيل الله فهو محرم بدون شك حتى ولو كان يقرأ القرآن ليضل به قارئه عن سبيل الله لكان فعله هذا حراما . ويقول الغزالي ما نعه "حكى عن بعض المنافقين أنه كان يوم الناس ، ولا يقرأ الا " سورة عبس" لما فيها من العتاب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . فهم "عمر" بقتله ، ورأى فعله حراما ، لما فيه

(١) أنظر ابن تيميه . مقدمة في أصول التفسير - ومقدمة تفسير ابن كثير .

من الافلال . فالافلال بالشعر والغناء اولى بالتحريم" (١) .

فـالغناء الذي يضل من سبيل الله محرما غير أن الغزالي يرى أنه ليس كل فناء يضل عن سبيل الله أو ينس الإنسان دينه ويبعده عن ربه . وإذا كان ذلك كذلك فإنه يمكن القول أن الغناء الذي يضل من سبيل الله فناء محرما أما الغناء الذي لا ينتج عن سماعه الانصراف عن الدين أو الافلال فهو ليس محرما . هذا ويجب ألا يكون سماع الغناء هو شغل الإنسان الشاغل يقضى فيه جل وقته وإنما يجب أن يكون السماع في أوقات محدودة كنوع من الترويح عن النفس من كثرة الجد .

٢ - كذلك استدلوا من حرموا السماع بما روتـه عائشة رضی الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ان الله تعالى حرم القينة وبيعها وثمانها وتعليمها" (٢) . والقينة المراد بها الجارية التي تغنى للرجال في مجلس الشراب .

ويرد الغزالي على ذلك بأن فناء الأجنبية للفساق ومن يخشى عليهم الفتنة حرام . والمقصود بالفتنة ما هو

(١) الغزالي : احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٨٢ .

(٢) أخرجه أحمد ابن حنبل ٢٠٧/٥ ، ٢٦٨ والحميدي

في مسنده ٤٠٥/٢ وابن ماجه ٧٣٢/٢ .

محظور . أما غناء الجارية لمالكها فلا يفهم تحريمه من هذا الحديث . بل أن سماع الجارية لغير مالكها عند عدم الفتنة لا يحرم . بدليل ما روى في الصحيحين من غناء الجاريتين في بيت عائشة رضي الله عنها. (١)

٣ - واحتج من حرم السماع بقول الحق تبارك وتعالى "أفمن هذا الحديث تعجبون وتفحكون ولا تبكون وأنتم سامدون" (٢) وقد أوضحنا أن ابن عباس في تفسيره لهذه الآية الكريمة قال ان "السمد" هو الغناء بلغة حمير.

وبرى الفزالي أن هذه الآية الكريمة اذا كانت تحرم الغناء فلا بد أنها أيضا تحرم الضحك وعدم البكاء لان الآية تشتمل عليهما وقطعا أن الضحك وعدم البكاء ليس محرما ، وبذلك يكون الغناء ليس محرما قياسا على ذلك. فان قيل : ان هذا يخص الضحك على المسلمين لاسلامهم ، وقد حرمت هذه الآية ، فهي بالتالى تحرم أشعارهم وغنائهم في معرض الاستهزاء بالمسلمين ، كما قال تعالى : والشعراء يتبعهم الغاؤون" (٣) وكان المراد بالشعراء ، في هذه الآية .. شعراء الكفار ولم يدل ذلك على تحريم نظم الشعر في حد ذاته (٤).

(١) احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٨٢ .

(٢) س النجم ، آية ٥٣ .

(٣) س الشعراء ، آية ٢٢٤ .

(٤) احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٨٠ .

٤ - ومن بين الأحاديث الشريفة التي استند اليها في تحريم السماع ما رواه "جابر" عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "كان ابليس أول من ناح وأول من تغنى"^(١). وفي هذا الحديث جمع رسول الله بين النياحة وهي محرمة وبين الغناء وعليه فإن الغناء محرما مثله في ذلك كمثـل النياحة سواء بسواء . ويرد الغزالي على ذلك بأن هناك من أنواع النياحة ما هو مستثنى وليس محرما . كنياحة داود عليه السلام ونياحة المذنبين على خطاياهم فكذلك يستثنى الغناء الذي يراد به تحريك السرور . والحزن والشوق حيث يباح ذلك . كما استثنى غناء الجاريتين في بيت عائشة رضي الله عنها . وغناء أهل المدينة عند استقبال الرسول مهاجرا اليها ، بقولهم :
طلع البدر علينا الخ .

٥ - ومن الأدلة التي استدل بها من حرم السماع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي رواه عنه أبو امامة وهو "ما رفع أحد صوته بغناء الا بعث الله

(١) يقول الغزالي حديث جابر "كان ابليس أول من ناح وأول من تغنى " لم أجد له أصلا من حديث جابر وذكره صاحب الفردوس من حديث علي بن أبي طالب ولم يخرجـه ولده في مسنده .

شيطانين على منكبيه يضربان بأعقابهما على صدره حتى
يمسك" (١)

ويرد الغزالي على من اتخذ هذا الحديث حجة لتحريم
الغناء ، بأن التحريم ينزل على بعض أنواع الغناء ، التي
تحرك في القلب ما هو مراد الشيطان ، من الشهوة وعشق
المخلوقين . أما ما يحرك الشوق الى الله أو السرور
بالعيد أو الفرحة بقدوم الغائب أو مولد الولد . فهذا
كله ليس مراد الشيطان ولا يحرم .

ويستشهد الغزالي على صحة قوله هذا بحديث
الجاريين ورقص الحبشه وغيرها مما كان يحدث في زمن

(١) رواه البخاري في كتاب الصلاة ٨٣ ، والقدر ص ٧ ،
والتوحيد ص ٣٤ ، كما رواه مسلم في صحيحه كتاب
الصلاة ص ١٤٥ ، وذكره أبو داود في كتاب الصلاة
ص ٢٨ ، ومناسك ص ٣٦ ، وذكره الترمذي في
كتاب الصلاة ص ٢٠٢ ، والجنة ص ٣٤ - وذكره النسائي
في الافتتاح ص ٤ - وذكره ابن أبي الدنيا في ذم
الملاهي ، كما ذكره الطبراني في الكبير - ويقول
الغزالي أن هذا الحديث ضعيف .

أنظر احياء علوم الدين ج ٢ ، ص ٢٨٢ .

الرسول . وروى في الصحاح^(١) ويقول في ذلك "فالتجوير في موضع واحد نص في الاباحة والمنع في ألف موضع محتمل للتأويل ومحتمل للتنزيل . أما الفعل فلا تأويل له . إذا ما حرم فعله انما يحل بعارض الاكراه فقط ، ومما ابيح فعله يحرم بعوارض كثيرة حتى النيات والمقصود"^(٢) .

٦ - ومن الاحاديث النبوية الشريفة التي استندوا اليها في قولهم بحرمه السماع ما رواه عقبة بن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "كل شيء يلهو به الرجل فهو باطل الا تأديبه فرسه ورميه بقوسه وملاعبته لامراته"^(٣) .

ويجب الغزالي على ذلك بقوله أن قوله "باطل" لا يدل على التحريم ، بل يدل على عدم الفائدة ، وقد روى ذلك . الا أن النهي بالنظر الى رقص الحبشة خارج من هذه الثلاثة وهو ليس بحرام . فان غير المحصور يلحق

(١) حديث عائشة رضي الله عنها "رأيت النبي والحبشة يلعبون بحرابهم جاء في البخاري في كتاب الصلاة ص ٦٩ ، والعبيدين ص ٨١ ، كما ذكره مسلم في العيدين ص ١٩ ، ٢٢ - وأبو داود آداب ، ص ٥١ .

(٢) احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٨٣ .

(٣) يقول الغزالي "ان هذا الحديث ذكره أصحاب السنن الأربعة وفيه اضطراب .

أنظر : احياء ج ٢ ، ص ٢٨٣ .

بالمحصور قياسا عليه كقول رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا يحل دم امرئ مسلم الا بأحدى ثلاثة" (١). وهذا ليس على سبيل الحصر فانه يلحق به رابع وخامس . فملاطفة الزوج لزوجته لا فائدة لها الا التلذذ أو الحصول على متعة معينة ويمكن أن يقاس على ذلك التفرج على الحداثق والبساتين وسماع أصوات الطيور وأنواع المداعبات مما يلهو به الانسان ، وهو غير محرم عليه ، ويجوز وصفه بأنه باطل . ويقول امامنا في ذلك : " قلنا : ف قوله باطل لا يدل على التحريم ، بل يدل على عدم الفائدة . وقد يسلم ذلك . على أن التلهي بالنظر الى رقص الحبشة خارج عن هذه الثلاثة ، وليس بحرام . بل يلحق بالمحصور غير المحصور قياسا . كقوله صلى الله عليه وسلم : " لا يحل دم امرئ مسلم الا بأحد ثلاثة" فانه يلحق به رابع وخامس . وكذلك ملاعبة امرأته لا فائدة منها الا التلذذ . وفي هذا دليل على أن التفرج في البساتين وسماع أصوات الطيور وأنواع المداعبات مما يلهو به الرجل لا يحرم عليه شيء منها ، واذا جاز وصفه بأنه باطل " (٢) .

وبذلك يكون السماع للغناء لهو لا فائدة منه . وهذا لا يعنى أنه محرم لان هناك افعال كثيرة يقوم بها الانسان تعتبر لهو لا فائدة فيه كالتنزه في البساتين وسماع

(١) بقول الغزالي أن هذا الحديث متفق عليه من حديث ابن مسعود .

(٢) احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٨٣ .

أصوات الطيور والجلوس على الشاطئ وغيرها وجميعها لا يحرم . وان جاز وصفه بأنه باطل وكلها أفعال لا يجنى من وراءها فاعلمها الا الترويح عن النفس وسماع الغناء يقاس عليها فهو أيضا فعل ما لا فائدة فيه . ثم علينا أن نتذكر أن للسمع آداب يشترط الالتزام بها . وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يسمع القصائد المغناة في أيام الأعياد والمناسبات ، وينظر الى رقص أهل الحبشة ولو كان فعله هذا محرما لم أقدم عليه .

٧ - كما احتج من أدعى حرمة السماع بقول عثمان بن عفان "ما تفنيت ولا تمنيت ولا مسست ذكرى بيمينى منذ بايعت بها رسول الله صلى الله عليه وسلم" (١) .

ويرد الغزالي على ذلك بقوله اذا كان التمنى من الذكر باليمنى حراما فيكون الغناء كذلك . وليس لدينا ما يثبت أن عثمان رضى الله عنه كان لا يمتنع الا عن الحرام فقط . وقوله فى ذلك : "قلنا فليكن التمنى ومن الذكر باليمنى حراما ان كان هذا دليل تحريم الغناء فمن أين يثبت أن عثمان رضى الله عنه كان لا يتبرك الا الحرام؟" (٢) واذا كان الامر كذلك فان قول عثمان يدل على عدم تحريم السماع وليس على تحريمه .

(١) أنظر سنن ابن ماجه ، طهارة ، ص ١٥ .

(٢) احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٨٣ .

٨ - ومن بين ما استدل به على تحريم السماع قول ابن مسعود "أن الغناء ينبت النفاق في القلب ، كما ينبت الماء البقل".^(١) ونسب هذا القول الى الرسول صلى الله عليه وسلم .

وقد شكك الغزالي في صحة هذا الحديث . ومع ذلك لو فرض أن هذا الحديث صحيحا فان أمامنا يرد على من احتج به بأن النفاق يكون للمغنى فان عرفه أن يعرض صوته على غيره ، ويروج لجمال صوته . ولا يزال يناقض

(١) روى هذا الحديث عن ابن مسعود مرفوعا - كما رواه ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الملاهي قال : " أخبرنا ناعمة بن الفضل حدثنا حرمي بن عمارة حدثنا سلام بن مسكين حدثنا شيخ عن أبي وائل عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل " وقد قال أبو الحسن ابن المنادي في كتاب أحكام الملاهي " حدثنا محمد بن علي بن عبد الله ابن حمدان المعروف بحمدان السوراق حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا سلام بن مسكين . وذكر الحديث " فمداره على هذا الشيخ المجهول وفي رفعه نظر والوقوف أصح - أرجع الى ابن القيم الجوزية " حكم الاسلام في الغناء " تحقيق أبو حذيفة إبراهيم بن محمد ص ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ .

ويتودد الى الناس ليرغبوا فى غناؤه . وحتى وان كان الامر كذلك فهو لا يوجب تحريما . لان ما ينبت فى القلب النفاق والرياء أشياء أخرى كثيرة ، وهى غير محرمة . مثل لبس الثياب الجميلة ، وركوب الخيل الممهلجة ، وسائر أنواع الزينة والتفاخر بما أنعم الله على الانسان من نعم الدنيا . فانها من المباحات التى يفعلها الانسان ليجذب نظر الآخرين ويبدو بينهم أرفع مكانة ، وأعظم مركزا . فهى تورث فى القلب النفاق . فليس ظهور النفاق فى قلب المرأ مقصورا على المحرمات فقط ، فهناك الكثير من المباحات تظهر النفاق . وقوله فى ذلك : "قول ابن مسعود رضى الله عنه" ، "ينبت النفاق فى القلب " أراد به فى حق المغنى فانه (أى الغناء) فى حقه ينبت النفاق . اذ غرضه أن يعرض نفسه على غيره ، ويروج صوته عليه . ولا يزال ينافق ويتودد الى الناس ، ليرغبوا فى غناؤه . وذلك أيضا لا يوجد تحريما . فان لبس الثياب الجميلة وركوب الخيل الممهلجة وسائر أنواع الزينة والتفاخر بالحرث والانعام والزرع وغير ذلك ، ينبت فى القلب النفاق والرياء ، ولا يطلق القول بتحريم ذلك كله ، فليس السبب فى ظهور النفاق فى القلب المعاصى فقط ، بل المباحات التى هى موضع نظر الخلق أكثر تأثيرا" (١) .

ويستشهد الغزالي على صدق ما ذهب اليه من أن هناك أشياء كثيرة غير محرمة تنبت النفاق فى القلب . بأن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قطع ذنب فرسه لأنه استشعر

(١) احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٨٤ .

فى نفسه العظمة والخيلاء لحسن مطيته ، حتى يزيل من نفسه هذا الشعور الذى ينبت النفاق فى القلب . ويقول الغزالي فى ذلك : "وكذلك نزل عمر رضى الله عنه عن فرس هملج تحته وقطع ذنبه لانه استشعر فى نفسه الخيلاء لحسن مطيته فهذا النفاق من المباحات" (١) .

وقد سبق ذكر تعليق بعض من أحلوا السماع على هذا الحديث .

٩ - وقد احتجوا أيضا على تحريم السماع بما حدث من على بن عمر بن الخطاب حينما مر على قوم يلبسون ملابس الاحرام وكان بينهم رجل يتغنى فقال : "لا أسمع الله لكم الا لا أسمع الله لكم" (٢)

ولا يرى الغزالي فى هذا القول لعلى بن عمر دلالة على تحريم السماع لمجرد أنه غناء ، بل لأنهم كانوا محرمين ، ولا يليق بهم أن يسمعوا من الغناء الا ما يبعث على الوجد والتشويق الى زيارة بيت الله الحرام . وهو لم يجد فيما سمع من غناء ما يحث على ذلك ، وانما كان لمجرد اللهو وهو لا يمح فى هذه الحال لانه قد يثيّر شهوتهم وهم فى ملابس الاحرام حيث لا يليق بهم ذلك فانكره عليهم . ويقول الغزالي : "وانما قول ابن عمر لا يدل على التحريم من حيث أنه غناء بل كانوا محرمين

(١) احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٨٤ .

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

ولا يليق بهم الرفث . وظهر له من مخايلهم أن سامهم لم يكن لوجد وشوق الى زيارة بيت الله تعالى ، بل لمجرد اللهو ، فأنكر ذلك عليهم ، لكونه منكرا . بالاضافة الى حالهم وحال الاحرام وحكايات الأحوال تكثر فيها وجوه الاحتمال " (١)

ولا شك أن الغناء الذي يشير شهوة المحرم في أيام الحج هو حرام ولا يليق بمن أتجه الى تلك البقاع الطاهرة ، والبيت الحرام ليؤدي فريضة الحج أن يستمع الى مثل هذه الاغاني وانما عليه أن يبقى نفسه في حال روحاني خالص متوجها بكليته الى الله وهذا التحريم لا ينطبق على الغناء في كل زمان ومكان ولا يوجب الاطلاق .

١٠ - واحتجوا على تحريم السماع بما رواه نافع أنه قال " كنت مع ابن عمر رضى الله عنهما في طريق فسمع زمارة راع فوضع أصبعيه في أذنيه ثم عدل عن الطريق فلم يزل يقول يا نافع أسمع ذلك ؟ حتى قلت لا فأخرج أصبعيه وقال : هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنع " (٢) .

(١) المرجع السابق نفس الصفحة .

(٢) أنظر ابن ماجة كتاب النكاح ص ٢١ ، وكتاب الطهارة ص ٥٢ ، ومناسك ص ٤ - وذكره الدارمي في كتاب الصلاة ص ٨ - وأحمد بن حنبل ص ٢ ، ٨ ، ٣٨ .

ويرد الغزالي على ذلك بأن سماع زمارة الراع ليس محرما ، ولو كان سماعها محرما لأمر نافع بأن يفع أصابعه في أذنه هو أيضا . أو كان على الأقل ينكر عليه سماعه . وهو قد وضع أصابعه في أذنه لأنه رأى أن ينزه سمعه وقلبه في الحال عن صوت ربما يحرك فيه اللهو ويمنعه من فكير أو ذكر كان فيه . وكذلك فعل رسول الله وهذا لا يدل على التحريم ، وإنما يدل على أن الأولى تركه .

والحقيقة أن أكثر مباحات الدنيا الأولى تركها في حاله تأثيرها على القلب بابعادها بينه وبين التفكير في الله أو ذكره .

ويضرب الغزالي مثلا : (١) يوضح به أن ما يؤثر في القلب ويشغله عن الله يحرم وإن كان من الأشياء المباحة . فالرسول صلى الله عليه وسلم خلع ثوب أبي جهم الذي كان يرتديه أثناء الصلاة لما كان عليه من رسومات تشغله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة (٢) . فهل وجود الرسومات أو الأعلام على الثوب حراما لأنها قد تشغل من يرتديه عن الصلاة بلا شك أن وجودها ليس حراما وإن كان يجدر بلائس الثوب ألا يتشاغل به أو ينظر اليه أثناء الصلاة . والا فالأولى به خلع هذا الثوب أثناء الصلاة .

(١) أحياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٨٤ .

(٢) حديث خلع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض الفراغ من الصلاة ثوب أبي جهم إذ كان عليه أعلام شغلت قلبه . أخرجه البخاري (باب الانفات في الصلاة)

ولا ريب أن الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام عندما سمع مزمار الراع وسد أذنيه كي لا يسمعه كان في حال لا تسمح له بسماع هذا الصوت ، فشغله صوت المزمار عن ذلك الحال ، كما شغلته الاعلام المرسومة على الثوب أثناء الصلاة . وان كان هذا كما سبق ذكره لا يعني أن الاعلام التي على الثوب محرمة وقياسا عليه فاذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد سد أذنيه عن سماع المزمار حتى لا يشغله عن حاله فهذا أيضا لا يعني أن السماع محرما^(١).

وحقيقة الأمر عند الغزالي أن الحاجة الى السماع لاستشارة الوجد والاحوال الشريفة ، نوع من القصور فالموفى المتحقق في نظره دائم الشهود للحق وليس في

(١) يذهب ابن حزم الاندلسي في حديثه عن الغناء أن هذا الحديث يؤيد حل السماع لأنه لو كان حراما مباح أباح رسول الله لابن عمر سماعه ولا أباح ابن عمر لنافع سماعه . ولكنه عليه السلام كره لنفسه كل شيء ليس فيه تقرب الى الله وأنه بعث عليه السلام ليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ولو كان سماع الغناء حراما لما اقتصر عليه السلام أن يسد أذنيه عنه دون أن يأمر بتركه وينهى عنه . فلم يفعل عليه السلام شيئا من ذلك بل أقره وتنزه عنه فصح أنه مباح .

ارجع الى رسائل ابن حزم ص ٩٨ - ١٠١ .

حاجة الى السماع ليستشير به وجده ، ولذلك قال الحمصرى
"وماذا أعمل بسماع منقطع اذا مات من أسمع منه" (١) والأنبياء
عليهم السلام ليسوا فى حاجة الى اصطناع الوجد بالسماع
لان لهم سماع من الله تعالى وهم دائما يستمتعون بلذة
السمع والشهود. ولذلك فان الرسول عليه السلام عندما سمع
مزمار الراع لم يرغب فى سماعها فهو فى وجد دائم (٢).

ومن الأقوال التى احتج بها من حرم السماع قول
الفيضى بن عياض "الغناء رقية الزنى " وقولهم "الغناء
رائد من رواد الفجور" وقول يزيد ابن الوليد "اياكم
والغناء فانه ينقص الحياء ويزيد فى الشهوة ويهدم
المروءة وانه لينوب عن الخمر ، ويفعل ما يفعل السكر ،
فان كنتم لابد فاعليه فجنبوه النساء فان الغناء داعيه
الزنا" (٣).

ويرد الغزالى على هذه الأقوال بأن السماع الذى
تنطبق عليه هذه الاحكام هو سماع الفساق والشباب الذين
يلهيهم سماع الغناء عن أمور الدين ، ويشير فى نفوسهم

(١) أنظر الاحياء ، ج ٢ ، ص ٢٨٤ .

(٢) احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٨٤ .

(٣) المرحع السابق ، نفس الصفحة - حديث اياكم والغناء
فانه ينقص الحياء . . . الخ " رواه ابن أبى
الدنيا فى كتاب دم الملاحى وابن كثير فى البداية
والنهاية ١٦/١٠ عن ترجمة يزيد بن الوليد .

الشهوة ، بدلا من الوجد والحضور مع الله . فهذه الأحكام ليست عامة ^(١) أو مطلقة على جميع أنواع وأحوال السماع ، ولو كان الامر كذلك ما سمع رسول الله غناء الجاريتين في بيته . ويقول الغزالي : " أما قول الفضل هو رقبعة الزنا وكذلك ما عداها من الأقاويل القريبة منه فهو منزل على سماع الفساق والمغتلمين من الشبان ولو كان ذلك عاما لما سمع من الجاريتين في بيت رسول الله " ^(١) .

وقد وصفوا السماع أيضا بأنه لعب ولهو لا يليق
بذوي الدين .

ويرد الغزالي على ذلك بقوله : " لو كان الغناء لعب ولهو فالدنيا كلها لعب ولهو فقد قال عمر بن الخطاب لزوجته " انما أنت لعبة في زاوية البيت " وجميع الملاعبة مع النساء لهو الا الحراثة التي هي سبب الولد " ^(٢)

وأما من يرى أن الدنيا ما هي الا لعب ولهو وأن المزاح واللهو الذي لا فحش فيه حلال ويقول ان ذلك قد نقل عن الرسول صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة رضی الله عنهم ^(٣) .

(١) احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٨٤ .

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٣) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

فحقيقة اللهو المشروع ، أنه مرج للقلوب وتخفيف
للأعباء والفكر الذي يثقل القلب . والقلوب دائما فى
حاجة الى ما يروح عنه بين الحين والآخر ما يعلق بها من
هموم وأعباء ثقيلة . وفى اللهو عون للقلوب على مواصلة
الجد ، وتجديد النشاط . فالقلوب ينبغى ان يتجدد نشاطها
لمواصلة التعبد بالملا فى سائر الأوقات ، والتقرب الى
الله بالنوافل وغيرها من الاعمال الجادة . ولا يمكن -
فى رأي الغزالي - لغير الانبياء والرسل من الاستمرار
فى الحياة الجادة ، دون التخفيف والترويح ببعض اللهو
المشروع ، والا ملت القلوب وعجزت عن المواصلة والمواظبة .
ويقول الغزالي : "فالمواظبة على نوافل العلوات فى
سائر الأوقات ينبغى أن تتعطل فى بعض الأوقات ، ولأجله
كرهت الملا فى بعض الأوقات ، فالعطلة معينة على العمل ،
واللهو معين على الجد ، ولا يعير على الجد المحض
والحق المر الا نفوس الانبياء عليهم السلام ، فاللهو
دواء القلوب من داء الاعياء ، والملل ، فينبغى أن يكون
مباحا ولكن لا ينبغى أن يستكثر من الدواء" (١) .

ويذهب الغزالي الى أن اللهو الكثير يعصف الانسان
عن الجد ، والعمل ، والتقرب الى الله ، ولذلك فإن
السامع الذي لا يحرك السماع من قلبه صفة محموده ، ولا
يطلبه الا لمجرد اللذة والاستراحة المحضة ، فينبغى
الا ننكر عليه فقد يتوصل بالسماع الى شيء محمود ، وان
كان فى ذلك دون شك نقص ، وان دل على شيء فانما على
أن السامع فى هذه الحال لا يكون قريبا من ذروة الكمال

(١) الأحياء ، ج ٢ ، ص ٢٨٤ .

فالكامل هو الذى يروح عن نفسه بالحق وليس بغير الحق فهو لا يحتاج الى غيره لكمال أخلاقه . ولكن حسنات الأبرار سيئات المقربين" (١) .

ويتفق الغزالي فى ذلك مع السهروردي الذى يرى أن اللهو اذا طلب للترويح عن النفس وكان ذلك فى حدود الشرع لا يكون محرماً . فاذا كان السماع لهو فهو لهو محمود اذا قصد للترويح عن القلب ويقول السهروردي " أن الانسان بطبيعة تكوينه المختلف الجوانب وتنظيم خلقه المتنوع بتسنع أصول خلقته لا يستطيع أن يداوم على الجد الصرف ، فيجب أن يروح عن نفسه ، بين الحين والآخر بسماع الألحان . على أن يكون فى ذلك ملتزماً بالاداب الشرعية وليس فى ذلك خروج على حرمة الدين فلو كانت الحياة كلها جد لساها الملل" (٢) .

ويوضح امامنا كيف أن من له دراية بعلم النفس ، يعرف أن التلطيف والتخفيف بأنواع اللهو المباح كالسماع وغيرها علاج للقلوب مما يعلق بها من كثرة الجد والعمل ، ومجدد لنشاطها ، حتى تُستطيع المواصلة والاستمرار . ولا ضرر منه البتة بين الحين والآخر . قال تعالى: "ولاتنس نصيبك من الدنيا" (٣) فاذا ظلت حياة الانسان على وتيرة واحدة هى الجد المحض دى ذلك الى الملل والكلل . أما أن يدخل قليلاً من المرح المباح أو اللهو المباح بين جداته حياته ، فهو أمر محمود لا حرمة فيه ويقـول

(١) احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٨٤ .
(٢) عوارف المعارف بهامش احياء علوم الدين ج ٢ ، ص ٢٣٩ .
(٣) س القصص آية ٧٧ .

الغزالي : "ومن أحاط بعلم علاج القلوب ووجوه التلطيف بها لسياقتها الى الحق ، علم قطعاً أن ترويحها بأمثال هذه الأمور دواء نافع لا غنى عنه" (١)

والغزالي في ذلك يتفق وأبو بكر الكلبازي الذي يرى أن السماع استجمام من تعب الوقت وتنفس لأرباب الأحوال وأنه اختير على غيره مما تستروح اليه الطبائع لبعث النفوس من التثنت به والسكون اليه (٢).

وإذا ما انتهينا من رد الغزالي على حجج الماقلين الى تحريم الغناء علينا أن نعرض رأي الغزالي الخاص في هذا الأمر.

وأود أن أشير الى أن اختلاف وجهات النظر حول السماع ما بين محلل ومحرم واستناد كل فريق على الأدلة والحجج العقلية ، لا يعنى هذا أن تلك النصوص متناقضة . فالنصوص العقلية من الكتاب والسنة ثابتة لا تتغير ، ولا تناقض بينها . وإنما التناقض والاختلاف هو في نظرة كل فريق الخاصة الى الغناء . فمن يرى منهم أن الغناء لا يتفق مع وقار الدين وجلال العبادات/أنكره ورأى فيه محركا للشهوة وشاغلا عن الله ومن هنا جد أصحاب هذا الرأي الى ايجاد ما يؤيد مذهبهم في تحريم الغناء واولوا النصوص بما يتفق مع رأيهم .

(١) احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٨٤ .

(٢) التعرف لمذهب أهل التصوف للكلبازي . تحقيق

د. عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور ص ١٦١ .

أما من لم يجد في الغناء شاغلا عن الدين ووجد فيه وسيلة لترقيق القلب - وخاصة ما يبعث منه على الزهد والحكمة - كما وجد فيه ترويح للانسان من كثرة الجـد .
فمال الى ابحاثه . ان لم يكن فيه ما يخالف الشرع .
وهؤلاء بدورهم جاهدوا في سبيل اثبات صحة رأيهم ويستندون على ما يدعمها من الكتاب والسنة ويأولون النصوص الدينية بما يتفق ومذهبهم .

وكثيرا ما يكون النص واحدا ويتخذه كل فريق دليلا يبرهن به على صدق ما ذهب اليه ، ويفسره بما يدعم رأيه وان استدعى ذلك أن يحمل النصوص من المعاني أكثر مما تحتل . ولا أدل على ذلك من حديث الجاريتين اللتين كانتا تغنيان بغناء الاعراب في بيت رسول الله عند عائشة في حضرة الرسول . وقد رأينا كيف اتخذ كل من الفريقين (من حرم السماع ومن أباحه) هذا الحديث حجة على صدق رأيه يحتج بها على الفريق الآخر ، فالاختلاف واقع في التأويل والتفسير للنصوص الدينية بحسب اختلاف المذاهب والآراء وهذا ما سيتضح لنا اذا دققنا النظر فيما استند اليه كلا الفريقين من أدلة وفي رد كل فريق على حجج الفريق المخالف .

٣ - رأي الغزالي في السماع وأدلته على ابحاثه :

لعله قد بدى لنا أن الامام الغزالي مال الى اباحة السماع وقد حاول اثبات حله مستندا في ذلك على الحجج النقلية والعقلية فهو يرى أن النص والقياس قد

دلا على ابحاثه (١).

ولكى يثبت الغزالي جواز السماع مستخدما القياس
ذهب الى أن الغناء اجتمعت فيه معان ينبغى افرادها
وهى : سماع صوت طيب موزون مفهوم المعنى محرك للقلب
فالوصف الأعم ان الغناء صوت طيب .

والطيب ينقسم الى : الموزون ، وغير الموزون
والموزون ينقسم الى مفهوم كالاشعار والى غير مفهوم ،

(١) الغزالي : احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٦٨ وهذا
المنطق للغزالي ينفق مع ما ذهب اليه الطوسي حيث
قال : " ما يدل على تحريم السماع نص ولا قياس
وقال لا وجه لتحريم سماع صوت طيب ، فاذا كان
موزونا فلا يحرم أيضا . واذا لم يحرم الاحاد فلا يحرم
المجموع . فان افراد المباحات اذا اجتمعت كان
المجموع مباحا . ولكن ينظر فيما يفهم من ذلك فان
كان فيه شيء محظور حرم نشره ونظمه . وحرم التصويت
به - ويرد ابن الجوزيه على ذلك في كتابه
" نلبس بلبس " ص ٢٤٥ بقوله : " وقد احتج لهم
أبو حامد الطوسي بأشياء نزل فيها عن رتبته عن
الفهم مجموعها انه قال : ما يدل على تحريم السماع
نص ولا قياس وجواب هذا قد أسلفناه ، وقال : لا وجه
لتحريم سماع صوت طيب فاذا كان موزونا لا يحرم
أيضا واذا لم يحرم الاحاد فلا يحرم المجموع . فان
أفراد المباحات اذا اجتمعت كان المجموع مباحا =

كأصوات الجمادات وسائر الحيوانات .

وسماع الصوت الطيب من حيث أنه طيب لا يجب أن يحرم
هل هو كما يقول شيخنا حلال بالنص والقياس .

أما القياس فهو أنه يرجع الى تلذذ حاسة السمع
بإدراك الأصوات الجميلة ، والنغمات الرخيمة . وللانسان
حواس خمس الى جانب العقل ولكل حاسة منها إدراك خاص
بها . ومن مدركات كل حاسة ، ما هو جميل يستلذ به .
فلذة النظر في أن يرى مبهرات جميلة ، كالخضرة والماء
الجاري والوجه الحسن ، وسائر الألوان الجميلة . ويكره أن
يرى مبهرات قبيحة . كذلك فان الشم يستلذ الروائح
الطيبة الزكية ، ويكره الروائح الكريهة . والذوق يستلذ
الطعوم اللذيذة ويكره ماعدها من الطعوم المـ
المستبشعة . واللمس يستلذ الملمس الناعم اللين ويكره
الملمس الخشن . وكذلك الأصوات المدركة بالسمع تنقسم

قال : ولكن بنظر فيما يفهم من ذلك فان كان فيه
شئ محظور حرم نشره ونظمه وحرم التصويت به : قال :
ابن الجوزي : وأنى لأتعجب من مثل هذا الكلام فان
الوتر بمفرده أو العود وحده من غير وتر لو ضرب لم
يحرم ولم يطرِب ، فاذا اجتمعا وضربا بهما على وجه
مخصوص حرم وأزعج . وكذلك ماء العنب جائز شربه
واذا حدث فيه شدة مطربه حرم . وكذلك هذا المجموع
بوجب طربا يخرج عن الاعتدال فيمنع منه لذلك . ارجع
أيضا الى حديث الطوسي عن السماع في كتابه المصنع .

الى مستلذ كهوت تغريد الطيور ، وصوت الموسيقى، ومستكره
كنهيق الحمير ، وغيرها من الأصوات المنكره .

فما وجه الحرام فى أن حاسة السمع تستمتع بالأصوات
الجميلة كغيرها من الحواس الأخرى . فاذا قلنا أن شـم
الروائح الجميلة ليس حراما وتذوق الطعوم اللذيذة ليس
حراما فكذلك سماع الغناء والأصوات الجميلة بالقياس
اليها ليس حراما أيضا .

ومما ويستدل به الغزالى على حل سماع الصوت الحسن
امتنان الله تعالى على عباده به اذ قال تعالى "يزيد
فى الخلق ما يشاء" (١) . وقيل هو الصوت الحسن كـما
سبق أن ذكرنا . كذلك فى الحديث الشريف "ما بعث الله
نبيا الا حسن الصوت" (٢) وقال صلى الله عليه وسلم
"لله أشد أذنا للرجل الحسن الصوت يتغنّى بالقرآن من صاحب
الفينه الى فينته" (٣) وصيغ تلك الأحاديث قد سبق ذكرها .

واستدل بقول الله تعالى : "ان انكر الأصوات
لصوت الحمير" (٤) وهذه الآية الكريمة فى رأي الغزالى
تدل فى مفهومها على مدح الصوت الحسن .

(١) س خاطر ، آية ١ .

(٢) رواه الترمزي ، أنظر أحياء علوم الدين ج ٢ ص ٢٦٩ .

(٣) سبق تخريج الأحاديث .

(٤) س لقمان ، آية ١٩ .

ويرد الغزالي على من قال أن سماع الصوت الحسن يجوز في التغنى بالقرآن فقط أما التغنى بغير القرآن من شعر وغناء فهو حرام يرد بأنه إذا كان ذلك حراما للزم أن يكون الاستماع الى صوت العندليب وغيره من الطيور ذات الصوت الحسن حرام وهذا غير معروف شرعا . فـان الاستماع الى أصوات تغريد الطيور جائز لا حرمة فيه مع أن تلك الأصوات على جمالها غير مفهومة فإذا جاز لنا سماع الأصوات الجميلة الغير مفهومة جاز لنا سماع الأصوات التي تتغنى بالعبارات المفهومة وذلك لكونها مفهومة من ناحية ولا بد أن بها حكمة من ناحية أخرى . ويقول الغزالي في ذلك : " أن جاز أن يقال إنما ابيح ذلك (بقصد التغنى بالصوت الحسن) بشرط أن يكون في القرآن . للزم أن يحرم صوت العندليب لأنه ليس من القرآن وإذا جاز سماع صوت غفل لا معنى له فلما لا يجوز سماع صوت يفهم منه الحكمة والمعاني الصحيحة وإن من الشعر لحكمة " (١)

والأصوات الموزونة أو التي لها نغمة موسيقية خاصة يمكن أن تصدر عن ثلاثة مصادر : فهي إما أن تصدر عن جماد كصوت الآلات الموسيقية ، كالمزامير والأوتار وضرب القضيب والطبل وغيرها . وإما أن تخرج من حنجرة طائر كهوت العندليب والكناري والطيور ذات الصوت الجميل الموزون المتناسب المطالع والمقاطع مما يجعل أصواتها ممتعة ومستحبة وإما أن تصدر من إنسان .

(١) إحياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٦٩ .

وفى الحقيقة أن أصوات الآلات الموسيقية مستمدة
أساساً من الأصوات العذبة الطبيعية التى هى من خلُق
الله . والتى تصدرها الطيور المفردة ووفعت الآلات الموسيقية
على شاكلتها ، وفى ذلك محاكاة الصنعة الانسانية للخلقة
الربانية وفى ذلك يقول الغزالى : "وفعت المزامير
على أصوات الحناجر وهو تشبيه للصنعة بالخلقة . وما من
شئ توصل أهل الصناعات بصناعاتهم الى تصويره الا والله
مثال فى الخلقة التى استأثر الله تعالى باختراعها ،
فمنه تعلم الصناعة . وبه قعدوا الاقتداء وشرح ذلك يطول
فسماع هذه الاصوات يستحيل أن يحرم لكونها طيبة ، وموزونه
فلا ذاهب الى تحريم صوت العندليب وسائر الطيور . ولا فرق
بين حنجرة وحنجرة ولا بين جماد وحيوان فينبغى أن يقاس
على صوت العندليب الاصوات الخارجة من سائر الاجسام
باختيار آدمى كالذى يخرج من حلقه أو من القضييب
والطبل والدف وغيرها . ولا يستثنى من ذلك الا الملاءى
والأوتار ، والمزامير التى ورد الشرع بالمنع منها" (١)

(١) احياء علوم الدين، ج ٢ ، ص ٢٦٩ : قال ابن عقيل: الاصوات
على ثلاثة ، اصرب محرم ومكروه ومباح . فالمحصرم
الزمر والناي والسرنا والطنبور والمعزفه والرباب
وما مائلها ونص الامام أحمد بن حنبل على تحريم
ذلك وكذلك الجنك فهو محرم والقضييب به قولان واما
المباح فهو الدف قال عنه أحمد بن حنبل أرجو أن
لا يكون بالدف بأس فى العرس . أنظر تلبس ابليس
لابن الجوزي البغدادي ، ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ .

ويذهب الغزالي الى أن الأوتار والمزامير التي نهى الشرع عنها ليست لما تبعثه من لذة للانسان الذي يستمع الى الاصوات العائرة عنها . فلو كان الشرع قد حرمها لذاتها لقيس عليها كل ما يلتذ به الانسان من أصوات جميلة ولكنها حُرمت لأنها شعار أهل الشراب . ففي مجالس الخمر ، كانوا يعزفون للجالسين بالأوتار والمزامير حتى تكتمل نشوتهم فهي محرمة تبعا لتحريم الخمر وذلك لثلاث أسباب ذكرهم امامنا

الأول : انها تدعو الى شرب الخمر أو توحى به لأن اللذة الحاصلة بها انما تتم بالخمر . ولمثل هذه العلة حرم قليل الخمر وان كان لا يسكر لانه يدعو الى السكر وما من حرام الا وله حريم . والسبب الثاني : انها في حق من ترك شرب الخمر منذ فترة قصيرة تذكره بمجالس الانس والشراب فهي سبب للتذكرة وسبب انبعاث شوق عنده . واذا قوى انبعاث الشوق وضعف الانسان ومال مع الهوى قد يعود الى الشرب مرة ثانية ويقول الغزالي : "ولهذه العلة نهى عن المزفت والحنتم والنفير"^(١) وهي جميعها آلات للعزف كانت تستخدم في مجالس الشراب ، وارتبطت بها ، ونهى عنها ، لأنها تدعو الى التذكير والتشويق الى الخمر عند من ألف سماع الموسيقى العائرة منها مع الشراب .

(١) احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٧٠ .

وهذا ما يسمى فى علم النفس بالارتباط الشرطى أو الفعل المنعكس الشرطى وفيه تحدث عملية ترابط بين المنبه والاستجابة ووظيفة الاستجابة الشرطية هى التوقع والاستعداد للقيام بالعمل^(١)، وفى حالتنا هذه يقترن صوت الموسيقى العادرة عن آلات العزف السالفة الذكر بجلسة الندماء فى مجلس الشراب فاذا سمع من امتنع عن الشراب هذه الموسيقى التى أرتبط سماعها بشربه للخمر ، قد تذكره به أو تدعوه للعودة اليه ولذلك كان من الأفضل الا يسمع تلك الموسيقى حتى يسد على نفسه هذا الباب .

والسبب الثالث : هو عدم التشبه بأهل الفسق الذين اعتادوا سماع هذه الآلات فيجب عدم التشبه بهم لان من تشبه بقوم فهو منهم ويقول الغزالى "لما صارت من عادة أهل الفسق فيمتنع من التشبه بهم لان من تشبه بقوم فهو منهم" وبهذه العلة نقول بترك السنة مهما صارت شعارا لأهل البدعة خوفا من التشبه بهم وبهذه العلة يحرم ضرب "الكوبة" وهو طبل مستطيل دقيق الوسط واسمح الطرفين وضربها عادة المخنثين ولولا ما فيه من التشبه لكان مثل طبل الحجيح والغزو"^(٢).

(١) ارجع الى د. يوسف مراد ، مبادئ علم النفس العام ص ٢١٢ - ٢١٤ ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف مصر ، ١٩٦٢ .

(٢) احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٧٠ .

والحقيقة ان مجالس الشراب اليوم وهى تتمثل فى دور الملاهى الليلية وما شابه ذلك تعزف فيها الموسيقى على جميع الآلات الموسيقية المعروفة فى مصرنا . ولم تعد مجالس الشراب تختص بنوع او انواع بعينها من الآلات العزف دون سواها . فلا يمكننا ان نحرم الآلات معينة ونحلل ما عداها . وانما يحل للمسلم ان يستمع الى الموسيقى للاستمتاع بالنغمات وان يتجنب سماع الأغنيات الساقطة سواء كانت بالعربية او بلغات اخرى والابتنشبة الشباب المسلم بمن يرى ويسمع من اصحاب الفرق الغنائية الموسيقية الاجنبية وانما عليه ان يلتزم باداب الاسلام فى مظهره ويتجنب ما يشعر من داخله انه لا يتفق معها .

وبعد ان ينتهى الغزالى من الحديث من الاصوات الموزونة التى تصدر من الآلات الموسيقية وهى الشطرنج الاول من الغناء ينتقل الى الحديث عن الشطر الثانى وهو الشعر او الكلمات المغناه المفهومة المعنى وهى الاصوات الموزونة التى تخرج من حنجرة الانسان وهى مباحة لانها كلام مفهومة موزون . والمفهوم الموزون من الكلام لا يحرم الا اذا كان يتضمن مفردات مخالفة للشعر . ولا شك ان الالفاظ المحظورة يحرم النطق

بها سواء كانت نثرا ام شعرا وقول الغزالي في ذلك
"والصوت الطيب الموزون غير حرام فاذا لم يحرم الاحاد فمن
اين يحرم المجموع . نعم ينظر فيما يفهم منه فان كان فيه
امر محظور حرم نشره ونظمه وحرم النطق به سواء كان
بالالحن او لم يكن" (١) .

وهذا القول للغزالي يشبه ما قاله الامام الشافعي في
الشعر حيث قال: " الشعر كلام حسن وقبيحه قبيح . ومهما جاز
انشاد الشعر بغير صوت والحن ، جاز انشاده مع الالحن فان
افراد المباحات اذا اجتمعت ، كان ذلك المجموع مباحا
ومهما انضم مباح لم يحرم الا اذا تضمن المجموع محظورا
لا تتضمنه الاحاد (ولا محظورها هنا) وكيف ينكر انشاد
الشعر . وقد انشد الشعر بين يدي رسول الله صلى الله عليه
وسلم وقال صلى الله عليه وسلم " ان من الشعر لحكمة " (٢) .

والغزالي كما نرى يستدل على حل الشعر بقاعدة
فقهية هي ان افراد المباحات اذا اجتمعت كان ذلك المجموع
مباحا لا يحرم الا اذا تضمن المجموع محظورا لا تتضمنه

(١) احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٧٠ .

(٢) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٧١ - حديث انشاد الشعر بين
يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم متفق عليه من
حديث ابو هريره وحديث ان من الشعر لحكمة
من حديث ابى كعب وقد ورد في البخاري
ومسلم .

الأحاد . ولما كانت مفردات الشعر هو العبارات المفهومة
الموزونة التي ليس في معناها ما يخالف الشرع فهو
جائز شرعاً .

ويرى الغزالي ما هو جائز بغير الحان جاز انشاده
باللحن أيضاً ولا حرمة في ذلك ويقول الغزالي : ان عائشة
رضي الله عنها قد أنشدت الشعر في قولها :

"ذهب الذي يعيش في أكثافهم
وبقيت في خلف كجلد الأجر" (١)

وروى في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها
قالت "لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة
وعك أبو بكر وبلال رضي الله عنهما وكان بها وبـاء
فقلت يا أبت كيف تجدك ؟ ويا بلال كيف تجدك ؟ فكان
أبو بكر رضي الله عنه اذا أخذته الحمى يقول :

كل أمرئ مصيب في أهله
والموت أدنى من شراك نعله

وكان بلال اذا أقلعت عنه الحمى يرفع عقيرته
ويقول :

(١) احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٧٠ .

الا ليت شعري هل أبیت ليلة
بواد وحولى اذخر وجليل
وهل أردن يوما مياه مجننة
وهل يبدون لى شامة وطفيل
قالت عائشة رضی الله عنها فاخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " اللهم حبب الينا المدينة كحببنا مكة أو أشد." (١)

ويذكر الغزالي قول رسول الله صلى الله عليه وسلم
عندما كان ينقل مواد البناء مع القوم لبناء أول مسجد
فى الاسلام بالمدينة المنورة وهو يقول :

هذا الحمال لا حمال خيبر
هذا أبر ربنا وأطهر

كما كان يقول صلى الله عليه وسلم :

(١) حديث عائشة ورد فى الصحيحين البخاري ومسلم لكن
أصل الحديث والشعر عند البخاري فقط وليس عند
مسلم . أنظر احياء علوم الدين للغزالي ، ج ٢ ،
ص ٢٧١ .

لا هم ان العيش عيش الاخـــــرة
فارحم الانصار والمهاجرة (١)

وقد جاء فى صحيح البخاري حديث لرسول الله صلى
الله عليه وسلم يفيد أنه صلى الله عليه وسلم كان يرفع
لحسان منبرا فى المسجد يقوم عليه يفاخر عن رسول الله
وينافح ويقول الغزالي أنه حديث حسن صحيح بسند متصل
الى عائشة رضى الله عنها. (٢)

وقد أنشد النابغة شعره لرسول الله عليه الصلاة
والسلام فقال له "لا يفض الله فاك" (٣)

وقد روى مسلم فى صحيحه عن عمر بن التثريد عن
أبيه قال : "أنشدت رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة
قافية من قول أمية بن أبى الصلت كل ذلك يقول فيه :
"هيه . هيه" ثم قال إن كاد فى شعره ليسلم" (٤) وهذا

(١) هذا الحديث جاء فى الصحيح البخاري وصحيح مسلم
والبيت الأول انفرد به البخاري فى قصة الهجرة من
رواية عروة مرسل وفيه البيت الثانى أيضا الا أنه
قال "الاجر" بدل العيش والبيت الثانى فى الصحيحين
من حديث أنس وهو بيت غير موزون.

(٢) احياء علوم الدين للغزالي ، ج ٢ ، ص ٢٧١ .

(٣) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٤) يقول ابن الجوزي فى هذا الموضوع كيف يحتج على
جواز الغناء بانشاد الشعر وما مثله الا كمثل ==

وهذا يدل على أنه صلى الله عليه وسلم كان يسمع الشعر ولا يحرم سماعه (١).

وجاء في الصحيحين عن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحدى له في السفر أي كان المفتى يغنى لجمالته أثناء سفره في الصحراء وكان انجشه يحدو بالنساء وكان البراء بن مالك يحدو بالرجال (٢) ولا يزال الغناء للابل أثناء سفرها من عادة العرب والحداء ما هو إلا أشعار مفناة تؤدي بأصوات جميلة وألحان موزونة ولم ينقل عن أحد من الصحابة انكارها ويقول الغزالي "ربما كانوا يستحسنون ذلك تارة لتحريك الجمال وتارة للاستلذاذ فلا يجوز أن يحرم من حيث أنه كلام مفهوم مستلذ يــــؤدي بأصوات طيبة وألحان موزونة" (٣).

(٤) النظر في السماع من حيث أنه محرك للقلب ومهيج لمــــا

هو الغالب عليه :

إن النغمات الموسيقية المختلفة لها تأثيرات متنوعة على سامعيها ، فنغمة تثير الحزن وأخرى تثير الضحك

من قال يجوز أن يضرب بالكف على ظهر العود فجاز أن يضرب بأوتاره أو قال يجوز أن يعصر العنب ويشرب منه في يومه فجاز أن يشرب منه بعد أيام وقد نسي أن انشاد الشعر لا يطرب كما يطرب الغناء.

(١) أنظر أحياء علوم الدين ، ج ٢ ص ٢٧١.

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٣) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

وشالثة تشير العواطف ... الخ ، فتختلف الانفعالات باختلاف النغمات ويرى الغزالي أن ذلك من الأسرار الالهية فهو سبحانه وتعالى قد أوجد علاقة بين النغمات والأصوات الموزونة وبين الأرواح فجعل لكل نغمة انفعال خاص في الروح فنغمة تشير انفعال الفرح والبهجة وأخرى تبعث على النوم وأخرى تشير الحماس ومن النغمات الموزونة ما يبعث في أعضاء الجسم حركات باليد أو الرأس أو الرجل على وزن هذه النغمات .

وقد يسمع الانسان أصوات ونغمات موزونة عذبة ، فيطرب لها دون أن يكون متفهما لمعناها ، وهذا ما يحدث عندما يسمع الانسان أغنيات بلغات لا يعرفها ويطرب لسماعها وتشير وجدانه وتحرك روحه لان الذي يؤثر فيه هو جمال الصوت وعذوبة النغمات وليس معاني الكلمات . ويقول في ذلك : " لله تعالى سرفى مناسبة النغمات الموزونة للأرواح حتى أنها لتؤثر فيها تأثيرا عجيبا فمن الأصوات ما يفرح ومنها ما يضحك ويطرب ومنها ما يستخرج من الاعضاء حركات على وزنها باليد والرجل والرأس ولا ينبغي أن يظن أن ذلك لفهم معاني الشعر بل هذا جار في الاوتار ، حتى قيل من لم يحركه الربيع وأزهاره والعود وأوتاره فهو فاسد المزاج ليس له علاج" (١)

(١) احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٧٣ .

ولا أدل على أن النغمات العذبة والاصوات الجميلة تؤثر في الأرواح حتى وإن لم تكن مفهومة مما يحدث للطفل الرضيع في مهده إذا سمع صوت غناء أو موسيقى فأنفسه يتنبه له ويضطرب ويكف عن البكاء وينعت للموت وإذا سمع صوت مزعج فإن ذلك يشير بكائه وضيقه .

أذن الاصوات الحسنة والنغمات الطيبة لها تأثير في القلوب والأرواح ملموس كما أوضحنا ذلك ومن لم يتأثر بها فهو إنسان بعيد عن الروحانية أو كما يقول الغزالي : "من لم يحركه السماع فهو ناقص مائل عن الاعتدال بعيد عن الروحانية زائد في غلظ الطبع وكشافته على الجمال والطيور بل على جميع البهائم فإن جميعها تتأثر بالنغمات الموزونة" (١)

ويرى أماننا أنه مهما كان للسمع من تأثير في القلب فإننا لا نستطيع أن نحكم بإباحته أو تحريمه بشكل مطلق لأن السماع يختلف حسب الأحوال التي يقال فيها ويختلف بحسب الأشخاص الذين يسمعون كما يختلف أيضاً باختلاف النغمات . فحكمه حكم ما في قلب السامع ويقول شيخنا : "ومهما كان النظر في السماع باعتبار تأثيره في القلب لم يجز أن يحكم فيه مطلقاً بإباحة أو تحريم بل يختلف ذلك بالأحوال والأشخاص واختلاف طرق النغمات

(١) أحياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٧٣ .

فحكمه حكم ما فى القلب" (١)

وقد أحصى الغزالى المناسبات التى يكثُر فيها
الفناء ، والمشاعر التى تشيرها فى السامعين فقال :
" أن التغنى بالأشعار والقصائد والكلمات الموزونة
والمسجوعة معتاد فى مواقع لأغراض مخممة ترتبط بهـ
أشار فى القلب" (٢) وهذه المواقع سبعة ذكرها كما يلى :

(١) فناء الحجيج :

وهو عبارة عن أشعار نظمت فى وصف الأماكن المقدسة
التي يعمرها حجاج البيت الحرام . وتغنى على نغمات
الطبول والشاهين . والهدف منها تشويق المسلمين الى
حج بيت الله الحرام ، واشعال نار الشوق الى أداء مناسك
الحج .

وهذا الفناء فى رأى الغزالى غير محرم لان التشويق
الى الحج محمود وما يؤدي الى هذا التشويق محمود .
فكما يجوز للخطيب أن يحبب الناس فى الحج ويشوقهم اليه
بخطبة يستخدم فيها السجع والكلمات الممنقة والعبارات
البليغة . فكذلك يجوز لغيره أن يفعل ذلك بكلمات موزونة
ولاشك أن الشعر بما يحمله من نغمات وموسيقى يكون له
واقع أعظم فى نفس السامع فاذا كان الشعر مضافا اليه

(١) احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٧٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٧٣ .

الطبل والشاهين وحركات الايقاع زاد التأشير. وفي نظـر
أماننا أن كلها وسائل جائزة بشرط ألا يكون المزمـار
والآلات الوترية مستخدمة في العزف أثناء الغناء. وذلك
كما سبق أن أوضحنا لأنها كانت تستخدم في مجالس الشراب .

وعلى الرغم أن التشويق الى الحج بالغناء ليس
محرمًا كما يقول الغزالي فإنه لم يطلق هذا الحكم وانما
قيده ورأيه هذا يتمشى تمشياً منطقياً مع قوله السابق
بأنه لا يجوز القول بحل السماع أو حرمة بشكل مطلق ،
بل أن لكل حال حكمه الخاص . فإذا كان الغناء لتشويق
من حرم عليه الخروج للحج لأنه لا يجوز له الخروج لأي سبب
من الأسباب ، كمن لم يأذن له أبوه بالحج وهو دون البلوغ
فتشويقه الى الخروج للحج حرام ، لان التشويق الى الحرام
حرام . كمن يكون طريقه الى الحج غير آمنه وبها مخاطـر
تؤدي الى الهلاك فلا يجوز له الحج ويحرم عليه التشويق
اليه بالسماع .

ويقول الغزالي في ذلك : " ان قصد به (أي السماع)
تشويق من لا يجوز له الخروج الى الحج كالذي أسقـط
الغرض عن نفسه ولم يأذن له أبواه في الخروج . فهذا يحرم
عليه الخروج فيحرم تشويقه الى الحج بالسماع ، وبكـل
كلام يشوق الى الحج ، فان التشويق الى الحرام حـرام .
وكذلك ان كانت الطريق غير آمنة وكان الهلاك غالباً لم
يجوز تحريك القلوب ومعالجتها بالشوق " (١)

(١) احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٧٤ .

(٢) ما يعتاده الغزاه لتحريض الناس على الغزو :

يرى الغزالي أن الغناء لاثارة حماس المحاربين وشحذ هممهم مباح بشرط ألا يخالف ما يتغنون به من أشعار وما يستخدمونه من آلات العزف ما هو مشروع في حال تشويق الحجاج . وذلك لان تشجيع المحاربين باستثارة فضولهم على الكفار وبذل الروح والمال والولد في سبيل الله وفي سبيل اعلاء كلمة الحق ، باستخدام الاشعار مباح وقد قال المتنبي .

فان لا تمت تحت السيوف مكرما
تمت وتقاسى الذل غير مكرم

وقال أيضا :

يرى الجبناء ان الجبن حزم
(١) وتلك خديعة الطبع اللثيم

والسمع في حال التشجيع على الغزو أيضا ليس مباحا اباحة مطلقة . فهو مباح فقط في الوقت الذي يباح فيه الغزو . ومندوب اليه في الوقت الذي يستحب فيه الغزو . ومحرم في الوقت الذي حرم فيه الغزو . وهو محرم أيضا في حق من لا يجوز له الخروج الى الحرب .

(١) العزالي : احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٧٤ .

(٣) الرجزيات التى يستعملها الشجعان فى وقت اللقاء :

وهى الغناء الحماسى ، الذى يقال أثناء دوران رحى القتال مع الاعداء لتحريك نشاط المقاتلين ، والهتاف حماسهم وفيه تمجيد بالشجاعة والنجدة . واذا قيل بلفظ قدير وصوت طيب كان له أثر عظيم فى النفس (١) .

وهذا الغناء مباح ، فى كل قتال مباح ، ومنندوب فى كل قتال مندوب ومحظور فى قتال المسلمين وأهل الذمة وكل قتال محظور لأن تحريك الدواعى الى المحظور محظور ويقول الغزالى : "وذلك منقول عن شجعان الصحابة رضى الله عنهم كعلى وخالد رضى الله عنهما . ولذلك نقول ينبغى أن يمتنع من الضرب بالشاهين فى معسكر الغزاة فان صوته مرقق محزن يحلل عقدة الشجاعة ويضعف صرامة النفس ويشوق الى الأهل والوطن . ويورث الفتور فى القتال" (٢) .

(١) هذه الرجزيات كالاغاني الحماسية التى تغنى من خلال الاذاعة والتلفزيون أثناء الحرب لاثارة حماس الجيش والشعب للقاء الاعداء وفداء الوطن بالدم والروح والمال . وهذه الاغاني يرى الغزالى أنها ليست محرمة .

(٢) احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٧٤ .

ولذلك يرى الغزالي أن من يعزف أثناء القتال
بآلات ترقق القلب وتضعف صرامة النفس وكان القتال في
سبيل الله وقصد تغيير قلوب المقاتلين ، وتغيير همهم
وتفاعمهم عن القتال . كان ذلك حراما فهو انسان
عاصي . أما اذا فعله قاصدا احباط الهمم في القتال
المحظور فان ذلك مباح وكان صاحبه مطيعا .

(٤) أصوات النياحة ونغماتها وتأثيرها في تهيج

الحنن والبكاء :

وهي أقوال موزونة تقال بنغمات حزينة ويكون لها
تأثير في إثارة الحزان .

والحنن عند الغزالي قسمان : حزن محمود ، وحزن
مذموم . والمذموم كالحنن على ما فات والحنن على
الأموات وهو مذموم لانه سخط على قضاء الله تعالى . وتأسف
على أشياء لا يغنى فيها الاسف ولا يجدى . قال تعالى :
"لكيلا تأسوا على ما فاتكم" (١) وتحريك هذا الحزن
بالنياحة مذموم ولذلك ورد النهى عن النياحة . (٢)

اما الحزن الم محمود ، فهو يكون لتقصير الانسان
في أداء العبادات والطاعات لله تعالى وحزنه وبكائه

(١) س الحديد ، آية ٢٣ .

(٢) احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٧٤ .

على ما ارتكب من خطايا أو معاصي وهو حزن محمود لانه دليل على توبة الانسان وندمه . ويقول الغزالي عنه : "وأما الحزن المحمود فهو حزن الانسان على تقصيره في أمر دينه وبكاؤه على خطاياه والبكاء والتباكى والحزن والتحازن على ذلك محمود ومنه بكاء آدم عليه السلام . وتحريـك هذا الحزن وتقويته محمود لانه يبعث على التشهيـــــر للتدارك" (١)

ويحكى عن داود عليه السلام أنه كان كثير النياحة مع دوام الحزن وكثرة البكاء خشية من الله وبسبب الخطايا والذنوب . (٢)

ولذلك فالالحن التي تثير حزن المذنب وتحثه على التوبة محمودة ، لان المفضى الى المحمود محمود . وفى هذا يقول امامنا : "وعلى هذا لا يحرم على الواعظ الطيب الصوت أن ينشد على المنبر بالحنانه الأشـــــار المحزنة المرفقة للقلب . ولا أن يبكى ويتباكى ليتوصل به الى تبكيه غيره وإشارة حزنه" (٣) .

(١) احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٧٤ .

(٢) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٧٤ .

(٣) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٥) السمع فى أوقات السرور تأكيداً للسرور والبهجة :

وهى الالحان والاقوال المسجوعة والموزونة التى
يتغنى بها على نغمات الموسيقى على الآلات المباحة . وهذا
السمع فى رأي الغزالي مباح . كالغناء فى أيام العيد ،
وفى الامراس وفى وقت مودة الغائب ، وفى وقت الوليمة
والعقيقة وعند ولادة المولود . وعند ختانه . وعند
اتمام حفظ القرآن الكريم . والغناء فى جميع هذه
المناسبات جائز ومباح ووجه جوازه اشارة السرور والطرب
والفرح وشيخنا يقول : "كل ما جاز السرور به جاز اشارة
السرور فيه" (١) .

ومما يدل على جواز الغناء فى أوقات السرور والبهجة
ما حدث من انشاد أهل المدينة المنورة عند استقبالهم
لرسول الله صلى الله عليه وسلم وعند وصوله اليها .
مهاجرا من مكة تعبيرا عن مدى سرورهم وفرحتهم بقدومه
بقولهم :

طلع البدر علينا من زينات السوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

وقد أنشدن نساء المدينة هذه الاناشيد ابتهاجا
وفرحة بقدوم الرسول سالما من رحلة الهجرة . واطهـار
السرور هنا محمود حتى ان الغزالي يقول : " وهو سرور

(١) احياء علوم الدين ، ص ٧٤ .

محمود فإظهاره بالشعر والنغمات والرقص والحركات أيضا
محمود" (١) ويقول إمامنا أيضا : "انه روى أن جماعة
من الصحابة قد جلوا (أي رقصوا) فى مناسبات سارة" (٢)
فالرقص فى رأي الغزالي جائز فى المناسبات السعيدة
ومما يدل به على صحة قوله هذا ما روته عائشة رضى
الله عنها انها قالت "لقد رأيت النبی صلى الله عليه
وسلم يسترني بردائه وأنا أنظر الى الحبشة يلعبون فى
المسجد حتى أكون أنا الذي أسأله" (٣).

وروى عن عائشة رضى الله عنها أيضا أنها قالت :
"كان يوم عيد ، يلعب فيه السودان بالدرق والحرب ، فلما
سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أتشتهيــــــــــــن
تنظرين فقلت : نعم . فأقامنى وراءه . وخذى على خـــــــده
ويقول : دونكم يا بنى أرفده . حتى اذا مللت قــــال :
حسبك . قلت نعم . قال : فاذهبى " وفى صحيح مسلم :
"فوضعت رأسى على منكبيه فجعلت أنظر الى لعبهم حتى كنت
أنا الذي انصرفت" (٤).

كما استشهد الغزالي أيضا بحديث الجاريتين السدي
سبق ذكره والغزالي يرى فى هذه الاحاديث أدلة قاطعة
على أنواع الرخص باباحة اللعب وقوله صلى الله عليه

(١) احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٧٥ .

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٣) ورد هذا الحديث فى صحيح البخاري وصحيح مسلم
يسند متصل الى عائشة وقد سبق تخريجه .

(٤) هذه الاحاديث وردت بروايات مختلفة وذكر الغزالي =

وسلم "لنؤنكم يا بني أرفده" أمر باللعب والتماس له ، فكيف يقدرونه حراما ؟ ومنعه صلى الله عليه وسلم لأبى بكر وعمر رضى الله عنهما من الانكار على الغناء وقوله أنه يوم عيد . أي أنه وقت سرور وأن هذا من أسباب السرور . ووقوف الرسول طويلا فى مشاهدة الرقص وسماع الغناء ، وموافقة عائشة رضى الله عنها فى مشاهدته وسماعه . وقوله صلى الله عليه وسلم لعائشة "أتشتين أن تنظري" يعنى أن ذلك ليس محرما ولا غبار عليه . كما رخص الرسول بالغناء والضرب بالدف للجارييتين وأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقرع سمعه صوت الجارييتين وهو مضطجع ويستدل الغزالي من ذلك على أن صوت النساء فى الغناء غير محرم الا اذا كان يخشى منسه فتنة وقوله فى ذلك : "الرخمة فى الغناء والضرب بالدف من الجارييتين مع أنه شبه ذلك بمزمار الشيطان وفيه بيان أن المزمار المحرم غير ذلك" (١) ويقول أيضا : "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرع سمعه صوت الجارييتين وهو مضطجع . ولو كان يضرب بالأوتار فى موضع لما جوز الجلوس . . . فيدل هذا على أن صوت النساء غير محرم (٢) تحريم صوت المزامير ، بل انما يحرم عند خوف الفتنة" .

وهذا فى رأي شيخنا يدل دلالة واضحة على اباحة الغناء والرقص والضرب بالدف واللعب بالدق والحرا ب والنظر الى رقص الحبشة والزنج وغيرهم فى أوقات

== الكثير من الاحاديث الشبيهة بها فى المعنى أنظر
 احياء علوم الدين ج ٢ ، ص ٢٧٥ ، ٢٧٦ .
 (١) احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٧٦ .
 (٢) المرجع السابق ، ص ٢٧٧ .

السرور كلها على اختلاف المناسبات والافاق - قياسا على
يوم العيد فهو وقت سرور ويقاس عليه يوم العرس ويوم
العودة من السفر ويوم العقيقة والختان وغيرها من
المناسبات السارة ، وسائر أسباب الفرح . ويقول الغزالي :
" ويجوز الفرح بزيارة الاخوان ولقائهم واجتماعهم فليس
موقع واحد على طعام واحد او كلام فهو ايضا مظنة السماع (١)

وتعلقا على قول الغزالي باباحة سماع صوت المرأة
في الغناء مدام ذلك لا يحدث فتنة في السامعين انه روى عن
الشافعي انه كان يسير مع بعض اصحابه وهم المزنسى
وابراهيم بن اسماعيل ومروا على قوم وجارية تغنى لهم .

خليلى ما بال المطايا كأننا
نراها على الاعقاب بالقوم تنكص

فقال الشافعي ميلوا بنا نسمع فلما فرغت قال
الشافعي لابراهيم أيطربك هذا قال : لا . قال فما لك حس (٢) .

وهذا يعني أن الشافعي سمع الغناء من الجارية
واباح ذلك لنفسه ، ولكن ابن الجوزي البغدادي ينكر ذلك
على قائله . ويرى ان هذا محال على الشافعي ويرى ان ابن
طاهر الذي روى هذه الحكاية فير موثوق به وان في الرواية
مجهولون وان الشافعي كان اجل من هذا .

ويدلل على هذا بأن اصحاب الشافعي قالوا لا يجوز سماع
الغناء من المرأة التي ليست بمحرم سواء كانت حرة او

(١) الغزالي ، الاحياء ، ج ٢ ، ص ٢٧٧ .

(٢) ابن الجوزي البغدادي : تلبيس ابليس ، ص ٢٤١ .

مملوكة كما أورد قول الشافعي "وصاحب الجارية اذا جمع الناس لسماعها فهو سفيه ترد شهادته" (١)، وذلك لان ممن يدعو الى الباطل فهو سفيه فاسق ومن يفعل هذا فهو يدعو الناس الى الباطل .

قال ابن الجوزي في كتابه "تلبيس ابليس" أخبرنا محمد عبدالرحمن السلمى قال : " اشترى سعد بن عبدالرحمن الدمشقي جارية قواله للفقراء وكانت تقول لهم القوائد (٢)، ويرد ابن الجوزي بان سعد الدمشقي رجل جاهل اى جاهل بالحلال والحرام حتى يقوم بمثل هذا العمل ، ويرد ابن الجوزي البغدادي ايضا على قول ابوطالب المكي " أدركنا مروان القاضي ، وله جوار يسمعون التلحين . قد أعدهن للصوفية . وكان لعطاء جاريستان تلحنان وكان اخوانه يسمعون التلحين منهما (٣) .

ويعلق ابن الجوزي البغدادي على ذلك بقوله ان صحت هذه الحكاية من مروان فهو فاسق . والدليل على ما قلنا ، ما ذكرناه عن الشافعي رضي الله عنه . وهؤلاء القوم جهلوا العلم فمالوا الى الهوى .

وينكر ابن الجوزي ايضا على الحاكم ابو عبد الله النيسابوري ان ذكر في كتاب " تاريخ نيسابور " انه كان يسمع من امرأة وتسأل كيف يحل له ان يسمع من امرأة ليست

(١) انظر ابن الجوزي البغدادي: تلبيس ابليس ، ص ٢٤٠ ، ٢٤١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٤٢ .

(٣) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

بمحرم ثم يذكر هذا في الكتاب السابق وهو كتاب علم (١).

وقد ذكر ان الجوزى حكايات كثيرة عمن كانوا يبيحون لانفسهم السماع من امرأة وأنكر عليهم هذا العمل وقال بتحريمه (٢).

وقد أنكر السماع عن امرأة ليست بمحرم ولا شك أن الغزالي يرى ان الانشاد في مجالس السماع يجب ان يكون من رجل وليس من امرأة لتجنب الفتنة. وهذا ما ذكرناه في آداب السماع .

(١) تلبيس ابليس ، ص ٢٤٢ .

(٢) انظر المرجع السابق ، ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ .

(٦) سماع العشاق تحريكا للشوق وتهيبها للعشق وتسليه للنفس

يرى الغزالي ان السماع او الغناء اذا كان فى حفرة او وجود المعشوق ، كان ذلك تأكيدا للذة وجود العاشقين معا وفرحهما بالقرب واللقاء . واذا كان السماع فى غياب المعشوق وبعده ، كان الغرض تهيج الشوق اليه وتحريكا لعشقه .

وفى رأيه أن السماع فى حالة غياب المعشوق وفراقه فيه نوع من الالم الا أنه ايضا فيه نوع من اللذة . اذا كان معويا برجاء الوصال والامل باللقاء ، فالرجاء فى رأيه لذى على عكس اليأس فهو مؤلم وكلما كان الشوق الى الالتقاء بالمعشوق قويا كان الرجاء قويا . وكلما كان حب المعشوق قويا كان الامل فى الوصال قويا .

وحقيقة هذا السماع تهيج العشق وتحريك الشوق وتحصيل لذة الرجاء فى الوصال والقرب والالتقاء ويقول الغزالي " ففى هذا السماع تهيج العشق وتحريك الشوق وتحصيل لذة الرجاء ، المقدرة فى الوصال مع الاطنا فى وصف حب المحبوب " (١) .

ويضيف الغزالي ان هذا النوع من السماع حلال غير ان حله ليس بشكل مطلق ، فاذا كان المشتاق اليه او المحبوب ممن يباح وصاله ، كمن يعشق زوجته او اسرته ، فله ان يعفى الى الغناء ولا حرمة فى ذلك لتضاعف لذته فى لقاء احبائه فيحظى بمشاهدة البصر وبالسماع بالاذن ويفهم

(١) احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٧٧ .

لطائف معانى الوصال والفراق فتترك أثرها فى القلب سبب وتترافف اسباب اللذة . وهو نوع من التمتع من جملة المباحات التى أباحها الله لعباده فى الحياة الدنيا ومن جملة متاعها . ويقول الغزالى : " فهذه انواع تمتع من جملة مباحات الدنيا ومتاعها وما الحياة الا لهو ولعب وهذا منه " (١) .

واما اذا كان السماع فى حق من لا يباح ومالسه فالغزالى يرى ان السماع فى هذه الحالة حرام فانه لا يجوز للرجل ان يسمع فى حق مطلقة لانه لا يجوز تحريك الشوق اليها حيث لا يجوز تحقيقه بالوصال او اللقاء . كذلك لا يحل السماع لمن يتمثل فى خياله صورة انسان لا يحل له النظر اليه . وهذا ينطبق على الرجل والمرأة ، وذلك لان السماع فى هذه الحالة محرك للفكر ، فى افعال محظورة وفيه تشويق الى لقاء من لا يباح الوصول اليه (٢) .

ويحذر امامنا الشباب من هذا النوع من السماع ويوضح لهم انه ممنوع عليهم وذلك لما له من خطورة العاقبة فيقول : " وكذلك من غضبت منه جارية او حيل بينه وبينها بسبب من الاسباب فله ان يحرك بالسماع وان يستشير به لذة رجاء الوصال فان باعها او طلقها حرم عليه ذلك بعده . اذ لا يجوز تحريك الشوق حيث لا يجوز تحقيقه بالوصال واللقاء واما من يتمثل فى نفسه صورة صبي او امرأة لا يحل له النظر اليها ، وكان يتزل ما يسمع على تمثله فى نفسه فهذا حرام لانه محرك للفكر فى الافعال المحظورة ومهيئ للداعية

(١) احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٧٧ .

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

الى ما لا يباح الوصول اليه وأكثر العشاق والسفهاء ممن
الشباب فى وقت هيجان الشهوة ، لا ينفكون عن اضرار شئ من
ذلك . وذلك ممنوع فى حقهم لما فيه من الداء الدفين ، لا لأمر
يرجع لنفس السماع" (١) .

(٧) سماع من أحب الله ومشائه واشتاق الى لقاءه :

هذا النوع من السماع يتغنى فيه المغنى بالقماشـ
الدينية التى يرد فيها ذكر صفات الله سبحانه وتعالى او
سماع تلاوة القرآن الكريم بصوت خاشع رقيم وهو سماع الخاصة
ممن احبوا الله فوجدوه فى كل ما حولهم من موجودات فلا
يقرع سمعهم من شئ الا وجدوه سبحانه فيه ولا يقع بصرهم
على شئ الا شاهدوا بديع صنع الله فيه .

ويرى الغزالى ان السماع فى حق من احب الله مهيج
لشوقه ، ومؤكد لعشقه وحبه ، وباعث لوجده ومستخرج منه الاحوال
المؤدية الى المكاشفات التى يعجز اللسان عن وصفها ،
ولا يعرفها حق المعرفة الا اصحابها فلا يعرف حلوة العسل
الا من ذاقه . ويقول الغزالى فى هذا النوع من السماع
" سماع من احب الله وعشقه واشتاق الى لقاءه فلا ينظر الى
شئ الا رآه فيه سبحانه . ولا يقرع سمعه قارع الا سمعه منه
او فيه فالسماع فى حقه مهيج لشوقه ومؤكد لعشقه وحبه ومورد
زناده وقلبه ومستخرج منه احوالا من المكاشفات والملاطفات
لا يحيط الوصف بها يعرفها من ذاقها وينكرها من كل حسه
من لم يتذوقها . وتسمى تلك الاحوال بلسان الصوفية وجدا
مأخوذ من الوجود والمصادفة اى صادف فى نفسه احوالا لم يكن
يمصادفها قبل السماع" (٢) .

(١) احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٧٧ .

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

ويرى الغزالي ان القلب يتذوق السماع بحاسة باطنية فيه بعد وصول الصوت الى السمع وأن من فقد هذه الملكة القلبية للتذوق فهو بلا شك يعجز عن تذوق لذة السماع .

والمنكر للسمع لا يتمور العشق في حق الله ويستنكر ان يقال ان السماع يحرك العشق في قلب المعشوق .

ويرد الغزالي على اصحاب هذا الرأي^(١) بقوله " ولعلك تقول كيف يتمور العشق في حق الله حتى يكون السماع محركا له ؟ " قد يظن البعض ان كلمة عشق لا يليق ان تطلق على علاقة المحبة بين العبد وربه ، فلفظ عشق يستخدم بين اثنين من نفس النوع ، والحق سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء . فكيف يتمور العشق في حقه تعالى؟ وكيف يقال ان السماع يحرك العشق في قلب المعشوق"^(٢) .

ويرد الغزالي على هذا الاعتراض بان من عرف الله حق المعرفة احبه حبا صادقا وان هذا مما لا شك فيه وانه كلما تأكدت المعرفة زادت المحبة وتأكدت وصارت قوية . واذا قويت سميت عشقا . فالعشق ما هو الا المحبة المؤكدة المفرطة وقول الغزالي في ذلك : " فاعلم ان من عرف الله احبه لا محاله ومن تأكدت معرفته ، تأكدت محبته بقدر تأكيد معرفته . والمحبة اذا تأكدت سميت عشقا فلا معنى للعشق الا محبة مؤكدة مفرطة . ولذلك قال العرب ان محمدا قد عشق ربه لما راوه يتخلى للعبادة في جبل حراء"^(٣) .

(١) انظر ابن الجوزي البغدادى ، تلبيس ابليس ، ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ .

(٢) احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٧٨ .

(٣) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

والغزالي يرى ان كل جمال فى العالم سواء كان جمالا حسيًا او معنويًا وسواء كان يمكن ادراكه بالحواس او العقول منذ بداية الخليقة حتى تقوم الساعة هو ذرة من خزائن قدرته ولمعه من انوار حضرتة فكيف لا يعقل حب من اتعسف بهذه الصفات العلية وكيف لا يعيشه الصوفية وتؤكد محبته تعالى فى قلوبهم حتى تصل الى مرتبة العشق . بل تتجاوزها الى حد من المحبة يعجز التعبير عنه بالالفاظ ولا تشملها الكلمات ويكون فى هذه الحالة من الظلم ان نسمى هذه المشاعر الفياضة التى يشعر بها الصوفية العارفين بالله نحوه سبحانه وتعالى بالحب او العشق لانها اقوى واسمى من ذلك ويقول الغزالي : " بل كل حسن وجمال فى العالم أدرك بالعقول والابصار والاسماع وسائر الحواس من مبتدأ العالم الى منقرضه ومن ذروة الثريا الى منتهى الثرى فهو ذرة من خزائن قدرته ولمعه من انوار حضرتة . فليت شعري كيف لا يعقل حب من هذا وصفه ، وكيف لا يتأكد عند العارفين باوصافه حبه حتى يجاوز حدا يكون اطلاق اسم العشق عليه ظلما فى حقه ، لقصوره عن الانباء عن فرط محبته " (١) .

ويرى الغزالي ان المتحقق بمعرفة الله تعالى لا يعرف غيره فهو الوجود الحق وهو الفاعل الحق . ومن عرف ان كل ما فى الوجود من صنع الله لم يجاوز معرفة المفعول على معرفة الفاعل فكل موجود سوى الله تعالى هو خلق الله وصنعه وتنسيقه وبديع افعاله . ومن عرف هذه الموجودات من حيث هى صنع الله يرى فى الصنعة عظمة العانع وصفاته كما يرى من حسن التنظيم والتنسيق والانسجام والتنسيق والدقة فضل المصنف والمنظم جلست قدرته . كانت محبته لله تعالى غير

(١) احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٧٨ .

مجاورة الى سواه . ويقول الغزالي في ذلك " بل المتحقق بالمعرفة لا يعرف غير الله تعالى اذ ليس في الوجود تحقيقا الا الله وافعاله ومن عرف الافعال من حيث انها افعال . لم يجاوز معرفة الفاعل الى غيره " (١) .

ويذهب الغزالي الى ان لفظ عشق اذا اطلق على غير الله فانما يطلق مجازا لا حقيقة فسمات العشق الالهى انه لا يكون الا لله وحده فهو لا يقبل الشراكة مثل غيره من العشاق فكل عشق سواه قابل للشراكة وكل محبوب غير الله يمكن ان يتصور له نظير اما في الوجود واما في الامكان . اما جمال الله فلا يتصور له شان ولا مثيل لا في الامكان ولا في الوجود ولذلك فان لفظ عشق اذا اطلق على غيره يكون مجازا محضا

وقد اعتبر الغزالي ان الانسان الناقص فقط هو الذى لا يستطيع ان يدرك من لفظ عشق الاطلب الوصال او الاتصال الجسدى الظاهر في الاجسام لقضاء الشهوة ويرى ان هذا الانسان الذى لا يفهم من العشق غير هذا المعنى لا ينبغي ان يستعمل معه الالفاظ التى يعجز عن فهم معناها في حق الله كالعشق والشوق والوصال والانس ويقول في ذلك " بل يجنب هذه الالفاظ والمعانى كما تجنب البهيمة النرجس والريحان وتخضع بالقت والحشيش واوراق القضب انما يجوز اطلاقها في حق الله تعالى اذ لم تكن موهمة معنوية يجب تقديس الله تعالى عنه والاهام تختلف باختلاف الافهام فليتنبه لهذه الدقيقة في امثال هذه الالفاظ " (٢) .

(١) احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٧٨ .

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

مما سبق يمكن ان نستخلص ان الغزالي يرى ان السماع مباح فى بعض المواطن ومندوب اليه فى بعض المواضع الاخرى وان حله ليس مطلقا بل ان هناك حالات يحرم فيها السماع وهذه قد ذكرها الغزالي ، فهو يرى ان السماع يحرم بخمس موارد هى :

- (١) عارض فى المسمع .
- (٢) عارض فى آله الاسماع .
- (٣) عارض فى نظم الصوت .
- (٤) عارض فى نفس المستمع او فى مواظبته .
- (٥) وعارض فى كون الشخص من عوام الخلق .

وجعل اركان السماع هى المسمع والمستمع وآلة الاسماع وسنتحدث فى ضوء ما ذكره الغزالي عن محرمات السماع بشئ من التفصيل من كل عارض .

أولا - المسمع :

وهو الشخص الذى يقول او يقرأ القرآن او ينشد الالحان الدينية فاذا كان يقرأ القرآن سمى مقرئ وان كان ينشد الالحان سمى منشد .

ويذهب الغزالي الى انه لا يجوز سماع صوت المرأة وهى تقرأ القرآن كما لا يجوز ان يكون المنشد امرأة لا يحل النظر اليها ويخشى الفتنة من سماعها كما لا يجوز سماع الفتى او العبد الامرد خشية الفتنة ايضا .

ويؤكد الغزالي ان وجه الحرمة فى ذلك خوف الفتنة وليس لمجرد الغناء فى حد ذاته فانه يمكن ان يفتتن

بصوت المرأة من غير الحان . فلا يجوز محادثة المرأة ولا محاورتها اذا كانت بحيث يفتتن بصوتها فى المحاورة من غير الحان . ويقول الغزالى " فان قلت فهل تقول ان هذا حرام بكل حال حسما للباب او يحرم الا حيث تخاف الفتنة فى حق من يخاف العنت ؟ فاقول : " هذه مسألة محتملة من حيث الفقه يتجار بها اعلان احدهما ان الخلوة بالاجنبية والنظر الى وجهها حرام سواء خيفت الفتنة او لم تخف لانها مظنة الفتنة على الجملة ففى الشرع بحسم الباب من غير التفات الى الصور .

والثانى ان النظر الى الصبيان مباح الا عند خوف الفتنة . فلا يلحق الصبيان بالنساء فى عموم الجسم بل يتبع فيه الحال . وصوت المرأة دائر بين هذين الاصلين^(١) .

وهذا يعنى ان هناك خلاف فى رأى حول جواز سماع صوت المرأة فى الحديث او الحوار بدون الحان مع الرجل الاجنبى هل هو حرام ام حلال ؟ ويمكن ان نستخلص رأيان ، الرأى الاول لا يجوز للمرأة ان تتحدث مع من هو اجنبى عنها ولا يجوز له سماع صوتها سواء كان مجرد حديث او غناء او قراءة قرآن او غير ذلك تجنبا للفتنة . والرأى الثانى : يذهب الى ان صوت المرأة فى غير الغناء ليس بعورة ويستشهدون على ذلك بان النساء فى زمن الصحابة رضى الله عنهم كن يكلمن الرجال فى الاسلام فى الاستفتاء والسؤال واخذ المشورة فالكلام العادى ليس محرما بين المرأة والرجل بشرط حسن النية . اما الغناء فان كلا الرأيين يرى ان صوت المرأة فى الغناء عورة لما للغناء من مزيد اثر فى تحريك الشهوة فيجب ان يكون التحريم

(١) احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٧٩ .

فى الشئ الذى يبعث على الفتنة فقط . ويقتصر التحريم عليه خاصة وان النساء لم يؤمرن بستر الاصوات ويقول الغزالى فى ذلك : " وصوت المرأة فى غير الغناء ليس بعورة فلم تزل النساء فى زمن الصحابة رضى الله عنهم يكلمن الرجال فى الاسلام والاستفتاء والسؤال والمشاورة وغير ذلك . ولكن للغناء مزيد اثر فى تحريك الشهوة . قياس هذا فى النظر الى الصبيان اولى لانهم لم يأمرؤا بالاحتجاب كما لم تؤمر النساء بستر الاصوات فينبغى ان يتبع مسار الفتن ويقتصر التحريم عليه . هذا هو الاقيس عندى " (١) .

المعارف الشافى - الآلة :

يشترط فى الآلات الموسيقية المستعملة فى مجالس السماع الا تكون مما يستخدمه اصحاب مجالس الشراب من الآلات وذلك للأسباب التى سبق ذكرها ولما جاء من النهى عنها فى حديث الرسول السابق ذكره .

والآلات الموسيقية التى لا يحل استخدامها فى السماع هى كما اوضحها الغزالى : المزمار - والوتار - وطبل الكوبة فهى كما يقول ثلاثة انواع ممنوعة وما عدى ذلك من الآلات الموسيقية فاستعمالها مباح كالدف وان كان فيه جلال والطبل والشاهين والضرب بالقضيب وسائر الآلات الاخرى فهى جميعا مباحة .

وقد سبق القول ان مجالس الشراب لم تعد تختص الان بالآلات موسيقية معينة كما كان الحال ايام الرسول (ص) ولذا يحل للمسلم سماع الموسيقى من مختلف الآلات المعروفة .

(١) احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٧٩ .

المعارف الثالث - الشعر :

او الكلمات التى يتفنن بها المستمع فيشتطـرط الا يكون فيه شيء من الهجاء او الفحش او الكذب على الله وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم او على صحابته . واذا وجد فيه شيء من ذلك فسماعه حرام بالالحن او بدون الحان ويقول الغزالي ان ما رتبته الروافضى هجاء الصحابة وغيرهم سماعه حرام بالحن او بغير الحان والمستمع شريك للقائل كما يحرم ايضا وصف المرأة بين الرجال ولكن يجوز هجاء الكفار واهل البدع فقد كان حسان بن ثابت ينافح عن الرسول ويهاجى الكفار وامره صلى الله عليه وسلم بذلك^(١) .

وللغزالي رأى فى القصائد التى تتناول جمال وجه المرأة وحسن قوامها وغيرها من اوصاف النساء فهو يرى انه يحل انشادها بلحن او بدون لحن بشرط ان من يسمع هذه القصائد الا ينزلها على امرأة معينة الا اذا كانت حل له . اما اذا انزلها على امرأة او فتاة اجنبية عنه فهذا لا يحل له وان فعل يكون عاص . وحتى لا يعرض نفسه للوقوع فى الحرام عليه ان يتجنب سماع مثل هذه الاغانى . ويقول الغزالي فى هذا الشأن " واما النسيب وهو التشبه بوصف الخدود والاصداغ وحسن القد والقامة وسائر اوصاف النساء فهذا فيه نظـر والصحيح انه لا يحرم نظمه وانشاده بلحن او بغير لحن وعلى المستمع الا ينزله على امرأة معينة . فان نزلـه فلينزله على من يحل له من زوجته وجاريته فان نزلـه على اجنبية فهو العاصى بالتنزيل واحالة الفكر فيه ومن هذا وصفه فينبغى ان يتجنب السماع "^(٢) .

(١) احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٨٠ .

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

رابعها - المستمع :

يرى الغزالي ان المستمع اذا كان شابا تغلب عليه الشهوة اكثر من غيرها فالسمع لا يحل له لانه سيتذوق معاني القصائد المنشودة بحكم سنه بطريقة تتناسب مع اتجاهاته وميوله فتتحرك شهوته . فهو لا يسمع وصف جمال الوجه ووصف الفراق والوصال دون ان تتحرك شهوته حتى وان كان لا يغلب على قلبه حب شخص ما وذلك لان الشيطان يزين له الشهوى ويبعده عن العقل والتقرب الى الله . فالسمع له ولا مثاله حرام وقول الغزالي في ذلك " ان تكون الشهوة غالبة عليه وهو في غرة الشباب وكانت هذه الصفة اغلب عليه من غيرها فالسمع حرام عليه . سواء غلب على قلبه حب شخص معين او لم يغلب . فانه كيفما كان لا يسمع وصف الصدغ والخدود والفراق والوصال الا ويحرك ذلك شهوته وينزل على صورة معينة ينفخ الشيطان بها في قلبه فتشتعل فيه نار الشهوة وتمتد بواعث الشر وذلك هو النمر لحزب الشيطان والتخزيل للعقل المانع منه الذي هو حزب الله " (١) .

ويتفق الغزالي مع غيره من الصوفية في ان النفس الانسانية بها جانبان هما جانب الشهوة والهوى وهو كما يسميه الغزالي حزب الشيطان وهو ما اسما الله تعالى في كتابه العزيز النفس الامارة بالسوء . وجانب العقل او كما يسميه الغزالي حزب الله تعالى او نور العقل وهو ما اسماه الله تعالى " بالنفس المطمئنة " . وان الصراع دائم ومستمر بين الجانبين قال تعالى : " ونفس وما سواها

(١) احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٨٠ .

فاليهمها فجورها وتقواها ، قد افلح من زكاها وقد خاب من دساها" (١) وحتى يتمكن الانسان من تغليب جانب العقل فى نفسه على جانب الشهوى او ان يطوع نفسه الامارة بالسوء لنفسه المطمئنة عليه ان يتجنب كل ما يثير شهواته ويشعلها ويزكيها وعلى ذلك فيجب على الشاب وهو فى فترة شبابه ان يتجنب الاستماع الى الاغاني التى تتغنى بالغزل الا اذا كان متأكدا من غلبة جانب العقل فى نفسه على جانب الشهوة والهوى وهذا امر نادر بين الشباب ولذلك فالاجدر بهم ترك سماع مثل هذه الاغنيات . ويقول الغزالي " والقتال فى القلب دائم بين جنود الشيطان وهى الشهوات وبين حزب الله وهو نور العقل الا فى قلب قد فتحه احد الجندين واستولى عليه بالكلية . وغالب القلوب الان . قد فتحها جند الشيطان وغلب عليها فتحتاج حينئذ الى ان تستأنف اسباب القتال لازعاجها فكيف يجوز تكسير اسلحتها وتشحيد سيوفها واستنهاة والسماع مشحذ لاسلحة جند الشيطان فى حق مثل هذا الشخص فليخرج مثل هذا عن مجمع السماع فانه يستفريه" (٢) .

هامسا :

ان يكون الشخص من عوام الخلق لم تغلب عليه الشهوة كما يغلب عليه حيال الله فلا مانع من ان يسمع القصائد والالحان فان السماع لهم (٣) محبوب حتى وان كان من عوام الناس فهو مباح فى حقه كسائر اللذات المباحة . ومع قول الغزالي بجواز السماع وكوسيلة فى ترقيق القلب واصطناع الوجد فانه يحذر من ان يضع فيه الانسان جل وقته بل انه يرى ان من يقضى وقته فى سماع الالحان كمن يواظب على اللهو وينشغل به عن اعماله وعبادته فاذا كان

(١) سورة الشمس ، آية ٧ .

(٢) احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٨٠ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٨٠ ، ٢٨١ .

السمع خلال فالاكثار منه حرام شأنه في ذلك شأن اشياء
اخرى محللة غير ان الاكثار منها حرام كلعب الشطرنج فهو
مباح^(١) ولكن المواظبة عليه مكروهة كراهة شديدة . فهو
مباح للترويح عن القلب والتسلية بعض الوقت عندما يكلل
الانسان من كثرة الاعمال الجادة في حياته كالجد في سبيل
الكسب والتجارة وفي اداء العبادات الشرعية كالملاة او من
كثرة القراءة فلا بأس من ان يروح الانسان المتعب عن نفسه
بشيء من اللهو المباح بين تفاعيف الجد لان في ذلك راحة
للقلب وتجديد للنشاط .

وحقيقة السمع كسائر المباحات المواظبة عليه مكروهة
ويكون محبوبا اذا استمع اليه الانسان - الذي لا تغلب عليه
شهوة - في اوقات محدودة وليس بشكل مستمر لان المواظبة
على اللهو جناية . وقد استمع الرسول صلى الله عليه وسلم
الى غناء الزنوج واهل الحبشة ويقول الغزالي : " ولكن
ابيح في حقه كسائر انواع اللذات المباحة الا انه اذا
اتخذ ديدنه وهجيره وقصر عليه اكثر اوقاته فهذا هو
السفيه الذي ترد شهادته فان المواظبة على اللهو جناية
وكما ان الصغيرة بالاصرار والمداومة تعير كبيرة . فكذا
بعض المباحات بالمداومة تعير كبيرة " ^(١) .

(١) يكون لعب الشطرنج وما شابهه حلالا اذا قصد به الترويح
بعد التعب من كثرة العمل ولم يكن المقصود منه
المراهنات وكسب المال . انظر احياء علوم الدين ،

وما ذكره الغزالي في حديثه من المستمع يتفق مع ما قاله الصوفية من ان المستمع يجب ان يكون صادق الحال خال الفكر والقلب عما سوى الله وقد ماتت نفسه عن الشهوة والهوى وتخلص من كثافة المادة التي تحجبه عن الله او كما يقول الشيخ الرئيس ابن سينا " ان تكون نفسه سليمة على الفطرة لم تغلظها مباشرة الامور الارضية الفانية اذا سمعت ذكر روحانيا يفسها وجد مبرح مع لذة مفرحة" (١). كما يجب على السامع الا يحدث حركة باختياره ويلتزم بالسكون اثناء السماع .

وتعليقا على قول الغزالي بان السماع وخاصة اغانى الغزل للشباب حرام لانه يثير لديهم الشهوة وحلال في حق الكمل من الرجال يقول ابن الجوزي البغدادي وقد اعتقد قوم من الصوفية ان هذا الغناء الذي ذكرنا عن قوم تحريمه ومن آخر كراهته مستحب في حق قوم . وابتدانا عبد المنعم ابن عبد الكريم بن هوزان القشيري قال : حدثنا ابي قال سمعت ابا علي الدقاق يقول : " السماع حرام " للمعوام لبقاء نفوسهم مباح للزهاد لحصول مجاهداتهم مستحب لامحابنا لحياة قلوبهم " (٢)

ويرى ابن الجوزي البغدادي ان هذا القول خطأ من خمسة اوجه هي : (٣)

(١) ابن سينا : الاشارات والتنبيهات ، ج ٢ ، ص ١٦ ، وانظر السهروردي : عوارف المعارف ، ص ١٢٤ ، وعبد الوهاب الشعراني ، كشف القناع عن وجه السماع . مخطوط بالمكتبة الازهرية برقم ٩٤٢ / ٣٣٥٧٦ حليم ل ٢١١ ظ .

(٢) انظر ابن الجوزي : تلبيس ابليس ، ص ٢٣٩ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٤٠ .

(١) احداها ان ابى حامد الغزالي قد اباح السماع لكل احد وهو اكثر علما ومعرفة من ابومولى الدقاق - هذا كما يقول ابن الجوزى غير ان الغزالي وان كان اباح السماع للجميع الا انه حذر الشباب من سماع قصائد الغزل ولم يقلل باباحته بشكل مطلق بل قيده بشروط .

(٢) والثانى ان طباع النفوس لا تتغير وانما المجاهدة تكف عملها فمن ادعى تغيير الطباع ادعى المحال . فاذا جاء ما يحرك او يثير الطباع واندفع الذى كان يكفها عنه عادت العادة . اى اذا سمع من يجاهد نفسه قصائد الغزل فانها تثير فيه الشهوات وتعيده الى طبعه .

(٣) والثالث ان العلماء اختلفوا فى تحريم السماع واباحته وليس فيهم من نظر فى السامع . وذلك لعلمهم ان الطباع تتساوى . فمن ادعى خروج طبعه على طباع الادميين ادعى المحال .

(٤) والرابع ان الاجماع انعقد على ان السماع ليس بمستحب وانما غايته الاباحة فادعاء الاستحباب خروج عن الاجماع .

(٥) والخامس انه يلزم من هذا ان يكون سماع العود مباحا او مستحبا عند من لا يغير طبعه لانه انما حرم لانه يؤثر فى الطباع ويدعوها الى الهوى . فاذا امن ذلك فينبغى ان يباح .

وجملة القول ان الغزالي ذهب ان السماع ليس محرما بشكل مطلق ولا محللا دون قيود وانما بحسب تعبيره قد يكون حراما محضا ، وقد يكون مباحا ، وقد يكون مكروها ، وقد

يكون مستحبا . اما الحرام فهو لكثر الناس من الشبان ومن غلبت عليهم شهوة الدنيا فلا يحرك السماع منهم الا ما هو الغالب على قلوبهم من الصفات المذمومة . واما المكروه فهو لمن ينزله على صورة المخلوقين . ولكنه يتخذة مادة له في اكثر الاوقات على سبيل اللهو . واما المباح فهو لمن لا حظ له الا التلذذ بالصوت الحسن واما المستحب فهو لمن غلب عليه حب الله تعالى ولم يحرك السماع منه الا الصفات المحمودة (١) .

(١) الغزالي ، احياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٣٠٢ .

تعليق :

يمكن في ضوء ما سبق عرضه لمختلف الآراء التي دارت حول السماع أن ننتهي إلى أن الإسلام لم يحرم الغناء تحريماً مطلقاً . وإنما التحريم فقط للغناء المبتذل الذي يبعث على إثارة الشهوات حيث لا يمكن تحقيقها بطريق شرعي .

كما أن الإكثار من الاستماع إلى الغناء والتلهي به من العبادات وجعله هم الإنسان الأول ، لا يحمد شرمها فالإسلام ينهى من الإسراف في كل شيء ، ويحضي على عدم الإفراط أو التفريط في تحقيق المتعة وإشباع الحاجات المباحة .

كذلك ينهى الإسلام عما يحدث داخل دور اللهو من غناء النساء وهن متبرجات أمام الجمهور وتراقصهن وتمايلهن ومحاولاتهن نيل إعجاب المستمعين في غير احتشام .

وإذا كان الرسول (ص) قد نهى عن استماع الغينيات - وهن النساء المغنيات - ونهى عن بيعهن وشراهن لأنه (ص) لا يريد للمرأة أن تكون سلعة للتجار بها لجمالها أو حسن صوتها ، ولا يرضى الإسلام لها أن تقف أمام مستمعيها للغناء إذا كان الغناء مبتذلاً أو فيه فتنة بما يتنافى مع ما يتطلبه منها الدين من التزام الوقار والاحتشام والبعـد عن الفاحشة .

ولنفس السبب كره بعض أئمة الفقه الغناء خاصة وإن الغناء في دور اللهو يحبه فواحد كالرقص المبتذل والشراب وغيرها من الأعمال المنكرة والتي لا يقرها الشرع لخروجها على آدابـه .

أما سماع الغناء لمجرد التلذذ والاستمتاع بالنغمات والصوت الطيب دون ان ينزل السامع ما يسمعه من كلمات الغزل والعشق والشوق والهجر والوصال وغيرها على من لا يحل له انزال تلك المعاني عليه ، فهو من جملة اللهو المباح الذى لابد منه ليخفف الانسان عن نفسه من كثرة الجد والحياة ليست كلها اعمال جادة وانما لابد من بعض اللهو المباح بين تفاسيف الجد حتى يساعد ذلك على الاستمرار وعدم الملل .

كذلك الحال فى الغناء الذى يعين على العمل ، ويهون من مشقته ، كما يفعل عمال البناء او غيرهم ممن يقومون بالاعمال الشاقة وهم يتغنوا بما يشد أزهرهم ويزيدهم قوة واحتمالا ، لمواصلة بذل الجهد . مثل هذا الغناء ليس فيه ما يحرم . فكل ما يهدف الى محمود فهو محمود ، وحكمه حكم من يترنم بالغناء لىانس وحشته ، ومثل غناء الام لطفلها كي يكف من البكاء او يستسلم للنوم .

والحال كذلك فى الغناء الذى يشعل حماس المحاربين ويشجعهم عن التضحية والفداء من اجل الوطن فهو غناء مستحب

والانشاد الدينى الذى يرقق القلب ويذكر بالله تعالى وصفاته ويحث على اتيان الطاعة ، ويزهد فى الدنيا ، ويذكر بالآخرة فهو ايضا مباح .

والغناء فى المناسبات السارة كالأعياد والافراح ويوم عودة الغائب ، وغناء الحجيج ، وكل غناء ليس فيه فاحشة او اشارة شهوة ، او مجون ، او مخالفة لآداب الشرع ، فهو لهو مباح . شريطة الا يسرف الانسان فى ذلك .

ولاشك ان خاصة المؤمنين يتورعون عن الكثير من المباحات فلا يسرفون في بعضها ، ويتركون البعض الآخر ، مما يجدونه لا يتفق ووقارهم ، وشدة اقبالهم على الله وانصرافهم عن لهو الحياة الدنيا وزينتها ، وكما قال الغزالي فيما سبق حسنة الابرار سيئات المقربين .

أما الغناء في مجالس السماع الصوفي ، لو لم يكن جائزا لما أباحه الامام الغزالي حجة الاسلام . ولما قال بحله وهو فقيه متشدد الى درجة كبيرة وقد هاجم الفلسفة وكفر الكثير من اقوال الفلاسفة (١) .

غير ان ادعياء التصوف قد اساءوا الى السماع وجعلوه اقرب الى اللهو ، لما ياتون به من الحركات المتكلفة ، مع عدم صدق الحال . مما اثار سخط المنكرين ، وقد رأينا هموم ابن القيم الجوزية وغيره على السماع الصوفي ، ولا يزال السماع والاذكار التي يرددونها اتباع الطرق الصوفية في حلقاتهم وهم يتمايلون على انغام الدفوف والطبول موضع هجوم وانتقادات الكثيرين .

وقد رد الاستاذ الدكتور ابوالوفا الغنيمي التفتازاني على ذلك الهجوم (٢) بان الاجتماع على الذكر في هيئة حلقات

(١) انظر ، الغزالي ، تهافت الفلاسفة تحقيق د. سليمان دنيـا (دار المعارف بمصر) .

(٢) جاء في جريدة التعاون ، العدد ٨٢٠ الصادر في ١٢ شعبان ١٣٩٥ هـ / ١٩ اغسطس ١٩٧٥ م . جدل بين الدكتور التفتازاني والشيخ محمد عازي حول التصوف ، نذكر ما جاء فيه بخصوص الذكر والسماع .

فجائز شرعا ، لورود الاحاديث فى فضل اجتماع الذاكرين على الذكر وان للذكر فى جماعة طريقة شرعية معينة ، منها ان يكون النطق باسم "الله" او غيره من اسماء الله الحسنى كاملا غير منقوص ، وفى خشوع وتدبر .

وان فائدة الذكر ان يلين القلب حينما يشعر الانسان انه متوجه الى الله بالعبادة ، ويعتبر الذكر نافلة يتقرب بها الانسان الى ربه .

اما ما نشاهده فى بعض مجالس الذكر من عدم النطق باسم الله كاملا ، او التمايل الشديد والعنف ، فهذه امور دخيله على التصوف ، لم يعرفها الصوفية الكمل .

اما الانشاد فهو ايضا لاحداث الوجد بالنسبة للصوفى الذاكر ، ليرق قلبه بسماع كلام الصوفية ، او اشعارهم ، او ترديد بعض ادعية الرسول (ص) او قراءة بعض الاوراد التى ألفها كبار المشايخ العارفين ، طالما كانت موافقة لما ورد فى كتاب الله ، وسنة رسوله . اما ان يتحول الذكر الى رقص ، وتفتعل الحركات فيه افتعالا فهذا مخالف للشريعة .

وكذلك لا يجوز للنساء ان يحضرن مع الرجال فى مجالس الذكر ويجب ان تتطهر الموالد من كل ما يخالف الشرع (١) .

والحق ان انشاد القمائد الدينية التى ترقى القلب وتشعل حب الله فى قلوب عشاقه اذا التزم فيها الحاضرون باداب السماع وتواجدوا فى غير تكلف والتزموا بالسكون والخشوع ، الا من كان منهم صادق الحال فيعبر عن وجدده

(١) انظر .جريدة التعاون ، العدد ٨٢٠ الصادر فى ١٩ اغسطس

دون ارادة منه او تكلف فلا حرج عليه . والاجدر به ان يتحكم
فى انفعالاته والا يظهر وجده ما استطاع .

وقد روى عن الشيخ ابوبكر الكتانى قال : " جـسـرت
مسألة بمكة ايام الموسم (اى ايام الحج) فى المحبة فتكم
الشيخ وكان الجنيد رضى الله عنه اصغرهم فقالوا : هات ما
عندك يا عراقى . فاطرق رأسه وذرفت عيناه ثم قـسـال :
عبد ذاهب عن نفسه متعل بذكر ربه قائم باداء حقوقه ناظر
اليه بقلبه ، احرق قلبه ، نور هيبتة ، وصفى شربه مـن
كأسوده ، فأنكشف له سر الجبار ، من استار غيبته . فـان
تكلم بالله . وان نطق فمن الله ، وان تحرك فبامر الله
وان سكن فمع الله . فهو بالله ، ولله ، ومع الله . فبكى
الشيخ وقالوا . ما على هذا مزيد " (١) .

ولا يحق لمن لم يخوض التجربة الصوفية ان ينكر على
اهل التصوف رسومهم .

(١) انظر : محمد بن ابى الهدى المكنى سبى البركات،
روض الاسماع فى احكام الذكر والسماع ، ص ٤٢ وانظر ايضا :

Encyclopedia of Islam: Art (ALD Junaïd)
Arberry.

الخاتمة

يمكن ان نخلص من تلك الدراسة عن السماع الى
النتائج التالية :

(١) للموسيقى والغناء والاصوات الجميلة تأثير على
الانسان وكذلك الحيوان لا يمكن اغفاله او انكاره .

(٢) ان الانسان قد عرف الغناء والموسيقى منذ القدم
في صورة بدائية تطورت على مر العصور حتى صارت على ما
هي عليه الان من تقدم قائم على اساس علمي وفني .

(٣) لكل شعب من شعوب العالم غناء وموسيقى خاصة
به متميزة تتفق وذوق افراده وهذا لا يمنع ان يطرَب البعض
لسماع موسيقى وغناء الشعوب الاخرى .

(٤) استخدموا الموسيقى والغناء لاجراض متعددة
وتنوعا بتنوع تلك الاغراض .

(٥) ان الموسيقى والغناء تعبيراً عما كمن في النفس
من مشاعر دفينّة مختلفة مما يجعلها تطفوا على السطح فهمها
لا يأتيا بجديد وانما يبعثا ما هو كامن في النفس فقط .

(٦) اتخذ الصوفية من الموسيقى والغناء وسيلة
لاستحضار الوجد وتهيئة القلب وخشوعه . وقد استخدمت
الموسيقى لهذا الغرض في دور العبادة منذ القدم .

(٧) ان استجابة الروح للنغمات والاصوات الحسنة وانفعالها الشديد بها ، وتنوع تلك الانفعالات بتنوع النغمات والعبارات سرا من اسرار الله حاول الصوفية والحكماء والعلماء تعليله .

(٨) يعقد الصوفية مجالس للسمع يتلى فيها القرآن الكريم او تنشد فيها الاناشيد الدينية ويتبعون في ذلك رسوما وآدابا خاصة يلتزمون بها .

(٩) تختلف الاستجابات الانفعالية للسمع من مستمع الى آخر كل حسب حاله ودرجته ومقامه .

(١٠) يعتبر الصوفية ان سماع القرآن الكريم هو سماع الكمل من القوم ، وان سماع الالحان هو سماع المريـد المبتدئ .

(١١) ينكر الصوفية على الادعياء والدخلاء الذين يدعون الوجد وياتون بالحركات المفتعلة المتكلفة ، ويرون ان التحكم في النفس والامساك عن الاستجابات الانفعالية الشديدة من كمال الحال وعلو المقام .

(١٢) انكر فريق من علماء الدين السماع ومالوا الى تحريم الغناء .

(١٣) اجاز فريق اخر السماع ورأى ان لا حرمه فيه .

(١٤) ان اولئك وهؤلاء اولوا النصوص الدينية بما يناسب مع موقف كل منهما ، وكثيرا ما كان يستند كلا الفريقين الى نفس الدليل على صحة رأيه ويدعم به مذهبه بحيث ان كل منهما يفسره تفسيراً خاصاً .

(١٥) ان الرسول (ص) قد سمع الجوارى يفرهن بالدف وشاهد رقص الاحباش وسمح بالاحتفاء بالاعیاد والمناسبات السارة والامراس بالغناء واللهو الذى لا فاحشة فيه .

(١٦) ان جميع من اجازوا السماع اشترطوا الا يكون مبتذلا او مشتملا على ما يخالف الشرع .

(١٧) ان الغزالى انتهى الى ان السماع قد يكون حراما لمن غلبت عليهم شهوة الدنيا من الشباب الذى لا يحرك السماع منهم الا ما يغلب على قلوبهم من الصفات المذمومة . وقد يكون مكروها ، لمن ينزله على صورة المخلوقين الذين لا يحلوا له ، كذلك فهو مكروه لمن يتخذه عادة له فى اكثر الاوقات على سبيل اللهو ويسرف فى ذلك وقد يكون مباحا ، لمن لا حظ له منه الا الاستمتاع والتلذذ بالصوت الحسن . وقد يكون مستحبا ، لمن غلب عليه حب الله تعالى ، ولم يحرك السماع منه الا الصفات المحمودة .

(١٨) ان سماع صوت المرأة الاجنبية فى الغناء مباح فيما يرى الغزالى اذا لم يؤدى سماعها الى فتنة . وكان لمجرد الترويح عن النفس والاستمتاع بالصوت الطيب .

قائمة المراجع العربية

القرآن الكريم .

ابن الاثير : النهاية في غريب الحديث والاثار ، طبع الحلبي ،
القاهرة (ليس عليه تاريخ) .

ابن حنبل (الامام احمد) : مسند ابن حنبل ، طبع دار المعارف
القاهرة ، ١٩٥٨ .

ابن الجوزي البغدادى (الحافظ الامام عماد الدين ابو الفرج)
صفوة الصفوة ، حيداباد ، ١٣٥٥ هـ .

_____ تلخيص ابليس ، الطبعة الثانية ، دار الطباعة
المنبرية ، القاهرة (ليس عليه تاريخ) .

ابن خلدون ، المقدمة تحقيق الدكتور على عبدالواحد وافى
الجزء الرابع ، الطبعة الاولى ١٣٢٨ هـ /
١٩٦٢ م .

ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج ٢ ، القاهرة ١٢٩٩ هـ .

ابن حجر العسقلانى : فتح البارى بشرح صحيح البخارى ،
القاهرة ١٣٤٨ هـ .

_____ : التقریب ، القاهرة (ليس عليه تاريخ)

ابن حجر الهيثمي : كف الرماع من محرمات اللهو والسماع ،
القاهرة ، (ليس عليه تاريخ) .

ابن حزم : الاخلاق والسياسة ، تحقيق صلاح الدين بسيوني رسلان ،
القاهرة ١٩٨٥ .

ابن سينا : جوامع علم الموسيقى ، تحقيق زكريا يوسف
مراجعة د. حفنى محمود و د. احمد فؤاد
الاهوانى ، القاهرة ١٩٥٦ .

_____ :
الاشارات والتنبيهات ، الجزء الرابع ،
دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٥ .

_____ :
رسالة كلمات الصوفية ، مخطوط بـدار
الكتب المصرية ٢٠٠ مجاميع .

_____ :
رسالة فى ماهية العلا ، نشرها مهـرن
ضمن مجموعة الرسائل الصوفية لابن سينا
(ليدن ١٨٨٩ م) .

ابن العماد : شذرات الذهب فى اخبار من ذهب ، القاهرة
١٣٥١ هـ .

ابن القيم الجوزية : اغاثة اللفهان ، طبع القاهرة بدون
تاريخ .

_____ : مدارج السالكين ، تحقيق محمد رشيد
رضا ، طبعة اولى ، القاهرة ١٣٣١ هـ .

_____ : حكم الاسلام فى الغناء ، فصل من
اغاثة اللفهان ، تحقيق ابو حديفة ابراهيم
بن محمد ، الطبعة الاولى ، ١٩٨٦ م ، ١٤٠٦ هـ .
مكتبة الصحابة ، طنطا .

- ابن كثير : البداية والنهاية ، طبعة بيروت ، ١٩٧٧ .
- _____ : تفسير القرآن العظيم ، تحقيق عبدالعزيز
فنيـم وآخرون ، مطبعة الشعب (لـيـس
عليه تاريخ) .
- ابن عربى (محيى الدين) : النجاة رسالة خطية بجامعة
القاهرة رقم ٢١٧١٦ ، تصوف واخلاق .
- _____ : مواقع النجوم ومطالعة اهله الاسرار والعلوم
طبعة اولى ، مطبعة السعادة ، القاهرة
١٣٢٥ هـ / ١٩٠٧ م .
- _____ : شمس الطريقة فى بيان الشريعة والحقيقة ،
مخطوط بالمكتبة الازهرية يحمل رقم ١٢٧٢
خاص ، ٤٣٠١٠ عام آداب شرعية .
- _____ : آداب الشيخ والمريد ، مخطوطة بالمكتبة
الازهرية تحت رقم ١٠٧٠١ خاص ، ٣٣٥٨٠ عام
مجاميع حليم .
- ابن ماجه : سنن ابن ماجه ، تحقيق الاستاذ محمد فؤاد
عبدالباقى ، القاهرة ١٩٥٣ .
- ابوالبركات (محمد ابوالهدى الصيادى) : روض الاسماع فى
احكام الذكر والسماع ، القاهرة ١٩٠٣ .
- ابوبكر جابر الجازى : حكم الاسلام فى الغناء ، القاهرة ،
مكتبة القرآن .

ابوقاسم الدرامى : تحريم البراغ ، طبع القاهرة ، (ليس عليه تاريخ) .

ابو عمر بن الملاح : الاجماع على تحريم السماع ، مخطوط بالمكتبة الازهرية .

ابو داود : سنن ابو داود ، تحقيق محمد محيى الدين ، المكتبة التجارية ، القاهرة (ليس عليه تاريخ) .

ابوفرج الاصفهانى : كتاب الاغانى ، طبعة بولاق ، القاهرة .

أحمد فؤاد الاهوانى (دكتور) الكندى فيلسوف العرب ، القاهرة (ليس عليه تاريخ) .

اخوان الصفا : رسائل اخوان الصفا ، الرسالة الخامسة ، طبع القاهرة .

ابوالوفا الغنىمى التفتازانى (دكتور) ابن عطاء الله السكندرى و تصوفه ، الطبعة الثانية مكتبة الانجلو ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م .

_____ : مدخل الى التصوف الاسلامى ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، ١٩٧٦ .

الترمذى : صحيح الترمذى ، المطبعة المصرية ١٩٣١ .

التهانوى : كشف اصطلاحات الفنون ، الهيئة العامة للتأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٧٥

الجرجاني (على بن محمد علي السيد) : التعريفات ، القاهرة ،
١٣٥٧ هـ / ١٩٣٨ م .

حسين مجيب المصري (دكتور) : فارسيات وتركيات ، القاهرة
١٩٤٨ .

_____ : صلات بين العرب والفرس والترك ، القاهرة
١٩٦٩

الحفنى (دكتور محمود احمد) : رسالة الكندى فى خبر
صناعة التأليف ، نشرها بالاشتراك مع
الدكتور/ روبرت لخماني ، فى ليبزج ١٩٣١
مع ترجمة الى اللغة الالمانية .

_____ : فى اجزاء خبرية فى الموسيقى فى
سلسلة تراثنا الموسيقى ، القاهرة ١٩٥٩ .

زكريا يوسف (الاستاذ) : موسيقى الجندي ، بحث صغير ، بغداد
١٩٦٢ .

_____ : مؤلفات الكندى الموسيقية ، بغداد ١٩٦٢ .

الزبيدي : اتحاف السادة المتقين بشرح احياء علوم
الدين ، القاهرة ١٢٠١ هـ .

زكي مبارك (دكتور) : التصوف الاسلامي فى الاداب والاخلاق ،
القاهرة ، مطبعة الرسالة ١٣٥٧ هـ / ١٩٣٨ م .

زكريا الانصاري : شرح الرسالة القشيرية على هامش الرسالة
القشيرية ، مطبعة صبيح ١٣٦٧ هـ / ١٩٥٧ م .

- السخاوى : المقاصد الحسنة ، مكتبة الخانجي ، ١٩٥٦ .
- السلمى : (ابو عبد الرحمن) الطبقات الصوفية ، مكتبة
الخانجي ، يسره ورتبه احمد الشرباصى
القاهرة ١٩٦٩ .
- السبكى : (تاج الدين) طبقات الشافعية ، المطبعة
الحسنة ، القاهرة ١٣٢٤ هـ .
- سهام عبد المجيد (الاستاذة) : المعرفة عند محيي الدين بن عربى
رسالة ماجستير ، تحت اشراف الدكتورة /
فوقية حسن محمود .
- السهروردى : (ابو النجيب البغدادى) آداب المريدين تحقيق
فهم شلتوت ، القاهرة (ليس عليها تاريخ
الطبع) .
- _____ : عوارف المعارف ، على هامش احياء علوم
الدين للغزالي ، الجزء الثانى ، القاهرة ١٣٣٤ هـ .
- شوقى ضيف (دكتور) : الشعر الغنائى فى مكة ، القاهرة ١٩٤٥ .
- _____ : الشعر الغنائى فى المدينة ، القاهرة ١٩٤٤ .
- صلاح الدين بسيونى (دكتور) : الاخلاق والسياسة عند ابن حزم
الناشر مكتبة الشرق ، جامعة القاهرة ١٩٨٥ .
- الطوسى : " ابونصر السراج " . اللمع تحقيق الدكتور عبد الحليم
محمود و طه عبد الباقي سرور ، دار الكتب
الحديثة ، ١٩٦٠ .

عبدالسلام محمد هارون : الالف المختارة من صحيح البخارى
الجزء الاول والثانى ، مكتبة الخانجى
القاهرة ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .

عبدالوهاب الشعرانى : كشف القناع عن وجه السماع ، مخطوط
بالمكتبة الازهرية رقم (٩١٧) حليم
٣٣٤٤٤ تصوف .

_____ : الطبقات الكبرى ، القاهرة ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م

عبدالغنى الشايلس : ايضاح الدلالات فى سماع الآلات ، طبع
دمشق .

على بن على بن محمد بن ابي العز : شرح الطحاوية فى
العقيدة السلفية ، بيروت ١٤٠٤ هـ .

على بن محمد المعزى : كشف القناع عن وجه الفاظ شبه السماع
مخطوط بالمكتبة الازهرية رقم ٩٦٦ حليم
٣٣٦٠٠ تصوف .

الغزالى (ابو حامد) : احياء علوم الدين ، تقديم دكتور/ بدوى
طوبانه ، مطبعة عيسى البابى الحلبي ،
القاهرة .

_____ : الرسالة اللدنية ، مكتبة الجندي ، القاهرة
بدون تاريخ .

_____ : معارج القدس ، المكتبة التجارية الكبرى
القاهرة بدون تاريخ .

الغزالي (ابوحامد) : تهافت الفلاسفة ، تحقيق الدكتور
سليمان دنيا ، دارالمعارف مصر ١٣٨٥ هـ /
١٩٦٦ م .

فارمر : تاريخ الموسيقى العربية ، ترجمة الدكتور/
حسين نهار ، القاهرة ١٩٥٦ .

القسطلانى : ارشاد السارى بشرح صحيح البخارى ، المطبعة
الميمنية ، القاهرة .

القشيري : (ابو القاسم عبد الكريم) ، الرسالة القشيرية ، تحقيق
الدكتور عبد الحليم محمود ، ومحمود الشريف
القاهرة ، دار الكتب الحديثة (ليس عليها
تاريخ طبع) .

_____ : الرسالة القشيرية ، مطبعة محمد على صبيح ، القاهرة
بدون تاريخ .

القرطبى : تفسير القرآن ، طبعة دار الشعب ، بدون تاريخ .

الكلبازى : (ابوبكر محمد) التعرف لمذهب اهل التصوف
الطبعة الثانية ، تحقيق محمدا مين النواوى
القاهرة ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م .

كوكب عامر (دكتوراه) الامام عبد الوهاب الشعرانى وتوفيه
رسالة ماجستير تحت اشراف الدكتوراه/
فوقية حسين محمود ، ١٩٧٥ .

_____ : التعرف عند ابن سينا (رسالة دكتوراه) تحت
اشراف الدكتوراه / فوقية حسين محمود ، ١٤٠١ هـ/
١٩٨١ م .

الكندى : المصوتات الوترية ، القاهرة (بدون تاريخ) .

مسلم : صحيح مسلم ، طبعة الحلبي ، ١٣٠٤ هـ .

محمد بن طاهر القيسراني : السماع ، لجنة احياء التراث
بالمجلس الاعلى للشئون الاسلامية ، القاهرة
١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م .

محمد فؤاد عبد الباقي : المعجم المفهرس لالفاظ القرآن ،
القاهرة ١٩٨٧ .

منصور على نامف التاج الجامع للاصول في احاديث الرسول
مطبعة الحلبي ، القاهرة (بدون تاريخ) .

النويري : نهاية الارب ، الجزء الرابع ، القاهرة ١٩٣٥ م .

النووي (ابوزكريا يحيى بن شرف) رياض العالحين ، تحقيق
عبد الفتاح رباح واحمد الدقاق ، الطبعة
الثانية ، دار المأمون للتراث ، بغداد .

النسائي : سنن النسائي ، طبعة الحلبي ، القاهرة ، (ليس
عليها تاريخ) .

يوسف مراد (دكتور) : مبادئ علم النفس العام ، الطبعة
الرابعة ، دار المعارف بمصر ١٩٦٢ .

- An early Mystic of Baghdad by Margaret Smith. (١)
M.A., P.H.D. (London, 1935).
- Encyclopedia of Islam. Art "Al Ghazali" (٢)
by Macdonald.
- History of Arabic Music ترجمه الى العربية د. حسين نهار (٣)
سنة ١٩٥٦ .
by Farmer (London, 1936).
- Mysticism: A study in the nature and development (٤)
of man's spiritual consciousness.
by Underhill Evelyn (London, 1949).
- The Varieties of Religious Experience (٥)
by James (W) (New York, 1932).
- L'Empire des Sassanides: Christensen (Kopenhagen, (٦)
1907).
- Psychologie du Mysticisme Religieux Traduction (٧)
Francaise, Par Lucien Herr, 1925.
- Les problèmes de la vie mystique (٨)
Bastide (Paris, 1931).

